

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل (الجزائر) -



قسم اللغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات

عنوان المذكرة:

نظرية الثقافة في فكر "مالك بن نبي"

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في اللغة والأدب العربي

تخصص: "نقد ودراسات ثقافية"

إشراف الأستاذ :

أ.د/ عيسى لحيلح

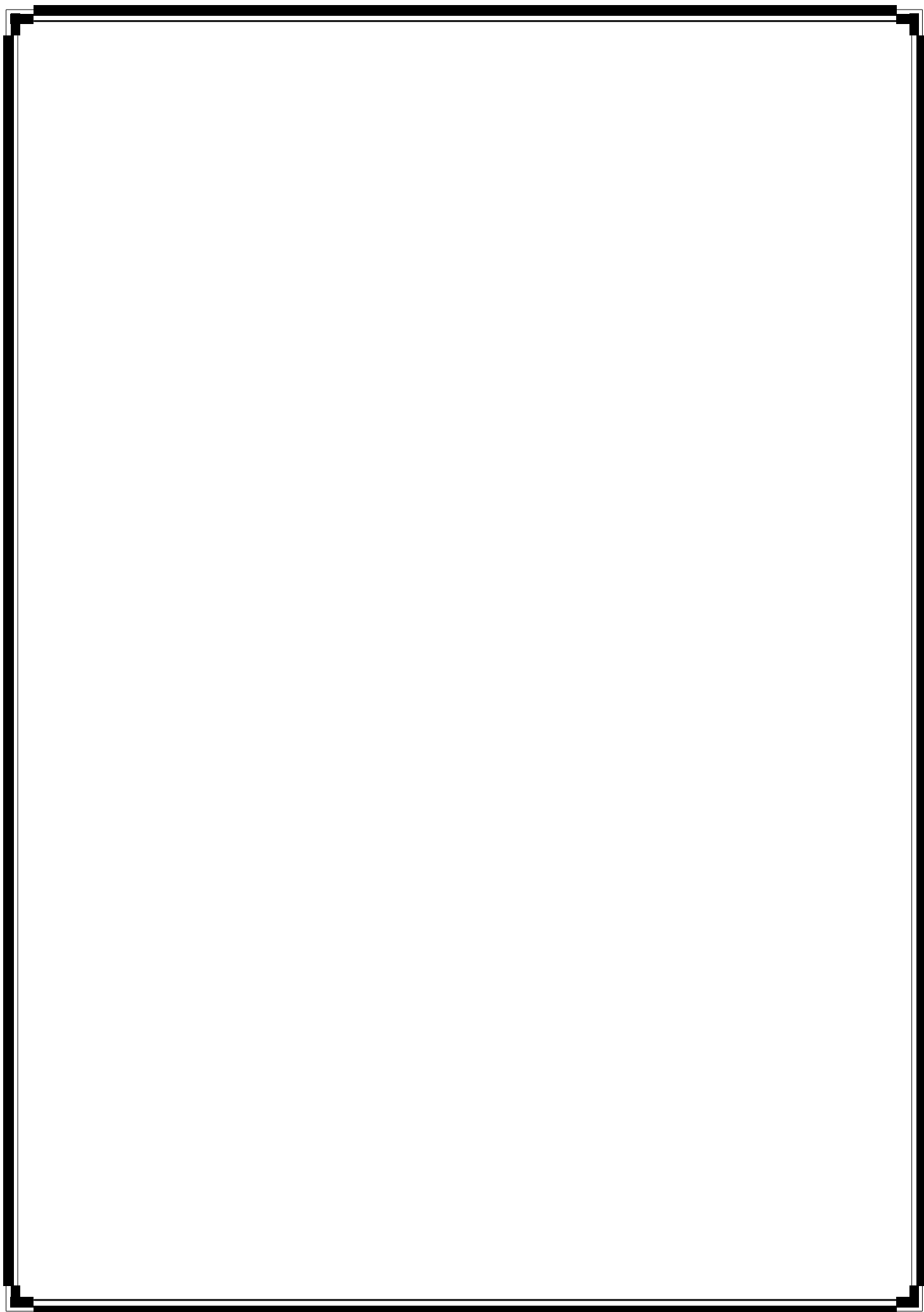
إعداد الطالبة:

أمينة عميروش

اللجنة المناقشة:

رئيسا	جامعة جيجل	أ.د/ عبد الحميد بوكعباش
مشرفا ومقررا	جامعة جيجل	أ.د/ عيسى لحيلح
عضوا مناقشا	جامعة جيجل	د. خالد بن عميور
عضوا مناقشا	جامعة جيجل	د. سلمى شويط

السنة الجامعية: 2015م/2016م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَلَّمَ ١٤١٧

كثيرة هي الدراسات التي تناولت شخصيات العديد من الدارسين والمفكرين المنتمين إلى القرن العشرين وغيره، والذين تركوا فيه بصماتهم الخالدة، وحتى إن كان التاريخ قد أجحف في حق البعض منها ولم يعطها حَقَّها من الدراسة والبحث، فقد استطاعت أن تفرض وجودها وتثبت مكانتها وسط زخم الإنتاج الأدبي والثقافي الكبير وتوافره، ومن بين هؤلاء، المفكر الجزائري "مالك بن نبي"، الذي نعدّه من القلائل المتجّريين على طرح قضيتي (الثقافة) و(الحضارة) وإثارتها انطلاقاً من رؤية واسعة عميقة تجمع بين التاريخ وبين الدين و(الثقافة) وغيرها، وقد كان له في ذلك كلّ، مقالاته وأطروحاته ومؤلفاته وأفكاره ومصطلحاته التي لهجت بها السنة الكثير من الدارسين، أو تلك التي خطتها أقلامهم في السنوات الأخيرة.

أهمية البحث:

اعتباراً لما سبق، وقع اختيارنا على موضوع (نظرية الثقافة في فكر مالك بن نبي) ليكون مجال بحثنا ودراستنا في مرحلة الماجستير تخصص (نقد ودراسات ثقافية)، ولعل قيمة بحثنا هذا تنبثق في الأساس من كون "مالك بن نبي" قد أولى اهتماماً كبيراً للإنسان باعتباره الحلقة الأساس في أي مشروع نضوي، واللبنة الرئيسية التي تقوم عليها (الثقافة) في تفاعلاتها وعلاقاتها مع كل من التاريخ والدين والمجتمع... إلخ، وهذا لا يتأتى إلا من خلال متابعة هذا الإنسان وتحليل الظواهر والمشكلات المحيطة به، ورصد أبعادها وخلفياتها انطلاقاً من رؤية إسلامية بحتة، وهذا ما دفع بنا إلى القول: إنّ "مالك بن نبي" يعدّ مدرسة رائدة لكل من يسعى إلى تلمس طريق التقدّم والنّهضة في ظلّ معطيات دوليّة معقّدة ومتداخلة.

أهداف البحث:

تبلورت أهداف الدراسة حول النقاط التالية:

— إماطة اللّثام عن إحدى الشخصيات الفكرية التي كان لها تأثير كبير في العالم الإسلامي.

– إضافة لبنة في مجال البحوث الأكاديمية، تساهم في إثراء جانب من الجوانب القيّمة المتعلقة بالنظرية الثقافية.

– تحقيق قراءة علمية حول مسيرة "مالك بن نبي" الفكرية.

– إبراز مكانة المفكر "مالك بن نبي" في الفكر الإسلامي عامّة والعربي خاصّة.

– العمل على إبراز الخطوط العريضة التي تضمنتها أفكار "مالك بن نبي" حول (الحضارة)، لتكون مرجعا يعود إليه كل طالب علم، يستفيد وينهل منه.

– الوقوف على الظروف الشخصية التي مرّ بها "مالك بن نبي" والتي أثّرت في فكره الحضاري.

– كشف النقاب عن حقيقة (الدورة الحضارية) للمجتمعات، والبحث في ماهيتها ومسيرتها وتحليلاتها في الحضارتين الإسلامية والمسيحية (العربية والغربية).

مبررات اختيار الموضوع:

قد يكون من العسير تحديد أسباب ومبررات اختيار موضوع ما ميدانا ومجالا للبحث والدراسة، ذلك أنّ البحث لا يتأتى نتيجة عامل محدّد واحد يؤدّي إلى قرار بطرقه، وإنّما ينشأ تدريجيا، وينمو على شكل رغبة عامّة تُجد من الدواعي ما يؤكدها ويقوّيها بين الفينة والأخرى.

ولعلّ أوفر الدواعي أو المبررات التي جعلتنا ننحذب إلى هذا الموضوع ما يلي:

أ/ أسباب ذاتية: تتمثل في طموحنا إلى التعرّف على ملامح هذه الشخصية الفدّة التي تركت بصماتها خالدة في التاريخ العربي على وجه الخصوص والإسلامي على وجه العموم.

ب/ أسباب موضوعية: نجملها في النقاط التالية:

– كون "مالك بن نبي" رائدا في ميدان الفكر عموما والفكر الإسلامي على وجه الخصوص، بدل حياته في سبيل نشر هذا الفكر ومواجهة الفكر الغربي.

– كونه من أوائل المفكرين الذين شغلته قضية (الثقافة) و(الحضارة) وظلوا مسكونين بها، حيث لم

يفارقه الاهتمام بها طيلة حياته، وإسهاماته في هذا الشأن هي الأكثر حضوراً وأهمية على مستوى الدراسات الإسلامية.

- إبراز شخصية لم تحض بالقدر الكافي من الدراسات الأكاديمية، ولم تستقطب اهتمام الباحثين الجزائريين.

اخترنا (نظرية الثقافة) على وجه التحديد، لكونها مازالت - ولحد الساعة - تلفت الانتباه وتستوقف نظر المشتغلين في حقل (الثقافة) و(الدراسات الثقافية)، وذلك نظراً لطبيعتها المتميزة من ناحية، ولضآلة الإبداع والتجديد العربي والإسلامي ومحدوديته في هذا الشأن من ناحية أخرى.

إشكالية البحث:

إنَّ إشكالية (الثقافة) في فكر "مالك بن نبي" ليست جديدة، ولم تُطرح هنا لأول مرة، كما أننا لسنا أول من سلك هذا الطريق وطَرَقَ هذا الموضوع في فكر "مالك بن نبي" - ولسنا الأخيرين - بل هناك عشرات المقالات والدراسات للعديد من المفكرين والدارسين الذين أشاروا إلى الموضوع وكتبوا عنه، وتوهوا بنظرية "مالك بن نبي" في تعامله مع (الثقافة) في علاقاتها مع التاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع والشرق والغرب... إلخ، ولكننا نسعى هنا إلى طرح القضية من رؤية تجمع بين الركائز والمنطلقات التي انطلق منها "مالك بن نبي" في دراسته لـ (الثقافة) و(الحضارة)، ومن هنا جاءت إشكالية البحث متمحورة حول:

__ ما هي الأسس والخطوط العريضة التي ينطلق في سياقها فكر "مالك بن نبي"؟.

- كيف كانت نظرتة إلى الإنسان الذي يتمحور حوله الفعل الحضاري؟ ثم هل هو إنسان ما قبل الموحدين أم إنسان ما بعد الموحدين بحسب طرح "مالك بن نبي"؟.

- كيف استطاع "مالك بن نبي" أن يقيم نظريته في (الثقافة)؟ وما مدى أسبقيته في الموضوع؟.

- ما مفهوم (الثقافة) عنده؟ وما معنى (الحضارة) في فكره؟ وهل كان لثقافته في (الحضارة الغربية) إسهام أو تأثير في إحيائه للنص القرآني من خلال ما أمدته من تراكم معرفي؟.

خطوات الدراسة:

توخياً لتحقيق الأهداف السابقة، تمّ تقسيم مادّة البحث إلى مدخل وفصلين توسطاً مقدمة وخاتمة.

المقدمة: تطرّقنا فيها لأهمية البحث وقيّمته، ثمّ برّزنا دواعي ومبررات اختيار الموضوع والتي حصرناها في مبررات ذاتية شخصية وأخرى علمية موضوعية، ثمّ تطرّقنا إلى إشكالية البحث التي تمحورت حول مجموعة من التساؤلات الجوهرية، منتقلين إلى تحديد خطوات الدراسة والمنهج المعتمد فيه، بعدها أدرجنا نماذج من الدراسات التي قامت حول فكره، وأخيراً الصعوبات التي واجهتنا خلال مسيرة إعداد البحث.

المدخل: عنوانه بـ (محطات في حياة "مالك بن نبي")، تناولنا فيه الإطار العامّ لحياة "مالك بن نبي" في مختلف تظاهراتها ومن جميع جوانبها، وقسمناه إلى أربعة مباحث.

المبحث الأول: تمحور حول مولد "مالك بن نبي"، وتطرّق إلى أهمّ المحطات التي رافقت نشأته ومسيرته الدراسية، وجاء المبحث الثاني ليتوقف عند المؤثرات الثقافية والاجتماعية والفكرية التي ساهمت في بناء وبلورة فكره.

أمّا المبحث الثالث: فقد عرضنا فيه لأهمّ مؤلفات "مالك بن نبي" التي جمعها تحت عنوان شامل هو (مشكلات الحضارة)، مراعين في ذلك الإطار المكاني لإصدارها.

والمبحث الرابع: تعرضنا فيه إلى وفاته وآراء المفكرين في شخصيته وثقافته.

الفصل الأول: حمل عنوان ("مالك بن نبي" وفكرة الثقافة)، وتربّع على ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: تطرقنا فيه إلى تحديد مفهوم (الثقافة) في اللغة والاصطلاح، مع الوقوف عند استعمالات المصطلح وتحليلاته في السياقين الغربي والعربي.

المبحث الثاني: حددنا فيه ماهية (الثقافة) عند "مالك بن نبي" الذي قدّم لنا مفهومًا جديدًا استلهمه من البحث في جذور ودلالات المصطلح في أمهات الكتب وفي فكر الدارسين والمدارس الفكرية، متبعًا في ذلك منهجًا طالما عُدّ فريدًا ومتميزًا، مكّنه من بلورة تصوّر واضح حول (الثقافة) ومن التوصل إلى تحديد الأسس التي يبنى عليها صرح أي (ثقافة)، وكان هذا موضوع مبحثنا الثالث.

الفصل الثاني: عنوانه بـ (مقومات الفكر الحضاري عند "مالك بن نبي")، عزّجنا فيه إلى البحث في الأسس التي تقوم عليها الحضارات، وقسمناه إلى أربعة مباحث:

المبحث الأول: توقفنا فيه عند مفهوم (الحضارة) متبعين المنهجية ذاتها التي اتبعناها مع مفهوم (الثقافة)، مركزين على مفهومها عند "ابن خلدون" الذي يُعدّ أوّل من أعطى مفهومًا متكاملًا لـ (الحضارة).

المبحث الثاني: خصصناه للوقوف على ماهية (الحضارة) عند "مالك بن نبي"، والتي توصل إلى تحديدها باعتماده المنهجين الرياضي والتحليلي.

المبحث الثالث: تحدثنا فيه عن العناصر التي تنبني وتقوم عليها (الحضارة)، والتي حصرها "مالك بن نبي" في: (الإنسان)، (التراب)، (الوقت)، مُوليا عنصر (الإنسان) الأهمية الكبرى وواضعا إيّاه في أولويات اهتماماته.

أمّا المبحث الأخير: فقد عاجلنا فيه قضية (الدّورة الحضارية) عند "مالك بن نبي" من حيث مفهومها، مراحلها، تحليّاتها في الحضارتين الإسلاميّة والمسيحيّة.

وحوصلنا بمبحثنا هذا بخاتمة تضمّنت أهمّ النتائج التي خلصنا إليها طيلة مشوار بحثنا في الموضوع.

المنهج المعتمد:

أما بالنسبة للمنهج الذي سيطبق على هذه الدراسة والذي ستسير عليه، فهو المنهج التحليلي، من خلال دراستنا لأفكار وآراء "مالك بن نبي" المتعلقة بالبحث، ثم تحليلها واستنباط رؤية منها.

مصادر البحث:

اعتمدنا في بحثنا هذا على جملة من المصادر والمراجع، نالت الحصة الأكبر منها مجموعة "مالك بن نبي" حول (مشكلات الحضارة)، فضلا عن مجموعة من المراجع التي تضمنت في الأساس دراسات لمفكرين ودارسين حول آراء "مالك بن نبي" وأفكاره و تصوراته حول (الثقافة) والنهوض الحضاري، نذكر منها:

- "مالك بن نبي": (شروط النهضة)، (مشكلة الثقافة)، (وجهة العالم الإسلامي)، (تأملات) و (مذكرات شاهد القرن)... إلخ.

- "محمد العبدية": ("مالك بن نبي" مفكر اجتماعي ورائد إصلاح).

- "بشير ضيف الله": (فلسفة الحضارة في فكر "مالك بن نبي").

- "عبادة عبد اللطيف": (صفحات مشرقة في فكر مالك بن نبي) .

الدراسات السابقة:

لا يمكن لطالب مبتدئ أن يلمّ بالدراسات كلّها التي قامت حول شخصية فذة فاقت شهرتها الآفاق وطارَت سُمعتها شرقا وغربا، لكن حسبنا _ احتراماً لمنهجية البحث وعلميته _ أن نورد بعضها:

الدراسة الأولى: "مالك بن نبي" وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة".

رسالة ماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية أصول الدين، إعداد الباحث "حسن موسى محمد العقبى"، إشراف الدكتور "صالح حسين الرقب"، المملكة العربية السعودية، 2015م.

استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي في دراسته، وتضمنت دراسته الأبواب والفصول التالية:

الباب الأول: "مالك بن نبي" عصره وحياته.

يشتمل على فصلين:

الفصل الأول: عصره وتأثره به.

الفصل الثاني: حياته.

الباب الثاني: موقف "مالك بن نبي" من (الحضارة الغربية) والاستعمار والاستشراق.

يشتمل على ثلاثة فصول.

الفصل الأول: موقفه من (الحضارة الغربية) المعاصرة.

الفصل الثاني: موقف "مالك بن نبي" من الاستعمار.

الفصل الثالث: موقف "مالك بن نبي" من الاستشراق.

الباب الثالث: موقف "مالك بن نبي" من المذاهب الفكرية المعاصرة.

يشتمل على أربعة فصول:

الفصل الأول: موقف "مالك بن نبي" من الرأسمالية.

الفصل الثاني: موقف "مالك بن نبي" من الديمقراطية.

الفصل الثالث: موقف "مالك بن نبي" من الماركسية الشيوعية.

الفصل الرابع: موقف "مالك بن نبي" من القومية.

الباب الرابع: موقف "مالك بن نبي" من الفكر الإسلامي الحديث.

يشتمل على فصلين:

الفصل الأول: موقفه من الدعوات الإصلاحية ورجالها.

الفصل الثاني: مستقبل الإسلام عند "مالك بن نبي".

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصل إليها الباحث.

الدراسة الثانية: الأسس التربوية للتغيير الاجتماعي عند "مالك بن نبي".

هذه الدراسة تقدم بها الباحث "علي حسن القرشي" لنيل شهادة الماجستير في التربية، كلية التربية، جامعة عين شمس ب (مصر)، تحت إشراف الدكتور "سعيد إسماعيل علي"، سنة 1983م، تمحورت الدراسة حول فكرة التغيير الاجتماعي عند "مالك بن نبي"، وعمد صاحبها إلى الكشف عن أهم المفاهيم والقضايا التربوية التي قال بها "مالك بن نبي" في مجمل كتاباته، وجاءت في سبعة فصول، حيث حدّد في الفصل الأول منها الإطار العام للبحث، والذي تضمن مقدمة البحث، مشكلته، مسلماته، أهميته، أهدافه، حدوده، منهج الباحث وخطة الدراسة.

أما الفصل الثاني: فقد تناول فيه عصر "مالك بن نبي" من حيث أوضاعه الثقافية والتعليمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ثم عرّف بحياته و أبرز العوامل المؤثرة في فكره.

في الفصل الثالث: تطرق الباحث إلى الاتجاهات التغييرية في العالم العربي وأسسها التربوية.

في الفصل الرابع: تعرّض الباحث للتغيير الاجتماعي وأسس التربية العامة عند "مالك بن نبي".

في الفصل الخامس: تحدث عن (الثقافة) من الوجهة التربوية وعلاقتها بالتغيير الاجتماعي عند "مالك بن نبي".

وعرض في الفصل السادس لآراء "مالك بن نبي" في التربية الاجتماعية وعملية إعادة البناء عنده.

أما الفصل السابع: فقد أفرده لتقويم فكر "مالك بن نبي" من الناحية العامة ومن ناحية تقويم محاولته في الفكر الاجتماعي.

الدراسة الثالثة: التغيير الاجتماعي في فكر "مالك بن نبي" - دراسة في بناء النظرية الاجتماعية.

وهي رسالة دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، تقديم الباحثة "نورة خالدة السعد"، نوقشت سنة 1997م.

تهدف الباحثة من خلال أطروحتها إلى دراسة أفكار "مالك بن نبي" قصد إيجاد البدائل النظرية لنظرية التغيير الاجتماعي الغربية بنظرية تستمد مقوماتها من الإسلام وتراعي خصوصية المجتمع الإسلامي، فكانت المحاولة التي قام بها "مالك بن نبي" - التي تأتي في طليعة المفكرين الذين قاموا بدراسة الواقع المتخلف الذي تعيشه المجتمعات الإسلامية منذ أن خرجت من دائرة الضوء الحضاري - دراسة تحليلية تسعى لفهم أسباب التخلف من خلال سياقه التاريخي، وتسعى لإيجاد الحلول للمشكلات التي تعاني منها معظم المجتمعات الإسلامية، برؤية تأخذ في اعتبارها عمومية الظاهرة وخصوصية المجتمع المسلم، وقد تضمنت الدراسة ستة فصول:

الفصل الأول: البيئة السياسية والاقتصادية والثقافية في الفترة التي عاشها "مالك بن نبي" في (الجزائر).

الفصل الثاني: بناء النظرية الاجتماعية.

الفصل الثالث: نظريات (الدورة الحضارية).

الفصل الرابع: نظرية التغيير الاجتماعي عند "مالك بن نبي".

الفصل الخامس: مقارنة نظرية التغيير الاجتماعي عند "مالك بن نبي" بنظرية (الدورة الحضارية).

الفصل السادس: تقييم نظرية التغيير الاجتماعي عند "مالك بن نبي".

الدراسة الرابعة: الدورة الحضارية بين فكر "مالك بن نبي" و"أوزوالد اشبنجلر".

وهي رسالة مكملة لنيل شهادة الماجستير في فلسفة (الحضارة)، من إعداد الطالب "جمال بروال"، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم العلوم الإنسانية، شعبة الفلسفة، جامعة "الحاج لخضر"، باتنة، سنة 2012م/2013م، تحت إشراف الدكتور "عبد المجيد عرماني".

والدراسة في حقيقتها جاءت لبيان ماهية (الدورة الحضارية)، مع تحديد مراحلها وتمظهراتها وتطبيقاتها في الحضارتين العربية والمسيحية، بين فكرين رائدين منتميين إلى حقلين فكريين متباينين وبيئتين غير متوافقتين، أحدهما ألماني مسيحي عايش أوضاع الحرب العالمية الأولى، والآخر جزائري مسلم عاش في بيئتين وعايش الاستعمار.

وقد قسمت الدراسة إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: في ماهية (الدورة الحضارية) وتاريخية المفهوم وتبلوره.

الفصل الثاني: (الدورة الحضارية) عند "اشبنجلر": مفهومها وخصائصها، مراحلها وتطبيقاتها.

الفصل الثالث: (الدورة الحضارية) عند "مالك بن نبي": مفهومها وخصائصها، مراحلها وتطبيقاتها.

الفصل الرابع: المقارنة بين (الدورتين الحضاريتين) عند كل من "مالك بن نبي" و"اشبنجلر".

الدراسة الخامسة: "مالك بن نبي" ومشكلات الحضارة _دراسة تحليلية ونقدية_.

وهو كتاب للدكتور "زكي الميلاد"، يتناول فيه بالبحث والدراسة والتحليل قضية (الحضارة) عند "مالك بن نبي"، ويتعرض لدراسة وتقويم فكره، وقد جاءت الدراسة في خمسة فصول كالآتي:

الفصل الأول: أضواء على شخصية "مالك بن نبي".

الفصل الثاني: نظرات حول فكر "مالك بن نبي".

الفصل الثالث: مرتكزات النظرية الفكرية عند "مالك بن نبي".

الفصل الرابع: مكونات القوة في فكر "مالك بن نبي".

الفصل الخامس: نقد الفكر المنهجي لـ "مالك بن نبي".

الدراسة السادسة: محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي" "للطيب برغوت".

وهو كتاب جاء ليقدم رؤية أخرى تتمحور حول (نظرية الثقافة) عند "مالك بن نبي" والتي تعتبر محوراً ولباً نظريته في فلسفة التاريخ و(الحضارة)، على اعتبار أن الفعل الحضاري هو باستمرار محصلة كل فعل ثقافي، وأن الأزمة الحضارية هي باستمرار محصلة أزمة ثقافية، وأن نجاح أية حركة نحوض حضاري ترتبط بطبيعة مشروعها الثقافي، كما يستخلص ذلك من مجمل رؤية "مالك بن نبي" لفلسفة ومنهج التغيير الاجتماعي والحضاري، والملاحظ في تفكير "مالك بن نبي" بصفة عامة، هو أنه يطرح موضوعاته ضمن إطار منظومي منهجي متكامل يرتقي بهذه الموضوعات إلى مستوى النظريات المتكاملة، كما فعل في دراسته لموضوع (الثقافة) الذي ربطه بموضوع (الحضارة) كقطب تتجه إليه حركة الوعي والتدافع البشري في الأرض، ف(الثقافة) تُنشئ (الحضارة) وتمنحها هويتها وذاتيتها، و(الحضارة) تُغني (الثقافة) وتجدها.

وقد جاءت الدراسة كآلاتي:

الفصل الأول: في الطريق إلى عالم "مالك بن نبي".

الفصل الثاني: انعكاسات غياب المراجعة والتقويم على سير حركة التجديد الحضاري.

الفصل الثالث: "مالك بن نبي" وفقه المراجعة والنقد التقويمي.

الفصل الرابع: "مالك بن نبي" ودراسة السنية الإسلامية.

الفصل الخامس: الآفاق الكبرى لاستراتيجية التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي".

الفصل السادس: المداخل الكبرى لاستراتيجية البناء الحضاري.

الفصل السابع: موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري.

الفصل الثامن: الدور المحوري للإسلام في حركة التغيير الحضاري.

الفصل التاسع: مقولات في الوعي الثقافي العالي.

الصعوبات:

ككل باحث أكاديمي، واجهتنا مجموعة من الصعوبات خلال مسيرة إعداد البحث وإنجازه و إخراجها، والتي عملنا قدر المستطاع على تجاوزها، ويمكن تصنيفها إلى:

أ/ من الناحية الذاتية: تتمثل في الالتزامات المهنية- كوني أشغل منصب أستاذة لغة عربية في التعليم المتوسط- الأمر الذي يأخذ منا وقتا وجهدا كبيرين، ويصعب علينا التوفيق بين متطلبات البحث العلمي والدراسة وبين القيام بالواجب المهني.

ب/ من الناحية الموضوعية: تتمثل في تعقّد الموضوع واتساعه وترامي أطرافه، الأمر الذي جعلنا نجد صعوبة في الإمام بجميع جوانبه.

صعوبة وتعقد الأفكار التي ينادي بها "مالك بن نبي"، الأمر الذي جعلنا نلاقي مشاكل في فهمها واستيعابها.

في الأخير، لا يسعنا إلا أن نتوجه إلى المولى عز وجل بالدعاء أن نكون قد وُفّقنا في بحثنا هذا، كما نتقدم بالشكر إلى كلّ من مدّ لنا يد العون والمساعدة من قريب أو بعيد، ونخص بالذكر الأستاذ المشرف، لما له من فضل في التوجيه والإشراف والمتابعة للبحث خطوة خطوة.

المدخل:

محطات في حياة "مالك بن نبي"

تمهيد.

المبحث الأول: "مالك بن نبي" مولده_نشأته_دراسته_.

المطلب الأول: مولده.

المطلب الثاني: نشأته ودراسته.

المبحث الثاني: "مالك بن نبي" ثقافته ومؤثرات بنائه
الفكري.

تمهيد

المطلب الأول: المؤثرات الاجتماعية.

أولاً: البيئة العائلية.

ثانياً: البيئة الاجتماعية.

المطلب الثاني: المؤثرات الثقافية.

أولاً: تأثير الأساتذة والمعلمين.

أ/ المعلمون والأساتذة العرب.

ب/ المعلمون والأساتذة الفرنسيون.

ثانياً: تأثير القراءات العربية والغربية.

أ/ المؤثرات من القراءات العربية.

ب/ المؤثرات من القراءات الغربية.

المطلب الثالث: المؤثرات الفكرية.

المبحث الثالث: مؤلفات "مالك بن نبي".

تمهيد.

المطلب الأول: المؤلفات الصادرة بـ (فرنسا).

المطلب الثاني: المؤلفات الصادرة بـ (مصر).

المطلب الثالث: المؤلفات الصادرة بـ (الجزائر).

المطلب الرابع: الآثار غير المطبوعة_المخطوطات_

التسجيلات.

المبحث الرابع: "مالك بن نبي"، وفاته وأقوال العلماء فيه.

المطلب الأول: وفاته.

أولاً: ظروف الوفاة.

ثانياً: الدفن.

المطلب الثاني: آراء المفكرين و العلماء فيه.

استنتاجات.

نبي"

إنه لحرّيّ بنا قبل أن نخوض غمار الحديث عن موضوع (الثقافة) عند "مالك بن نبي"، أن نتوقف عند الخطوط العريضة والملامح العامة التي سادت عصره ورسمت شخصيته؛ هذه الأخيرة التي كان لها الدور الأول والفضل الأكبر في بلورة وبناء فكره الذي لا يزال _لحدّ الساعة_ ينبض بالفعالية والحيوية على الرغم من محاولات التّهميش الكثيرة التي طالته.

نبي"

المبحث الأول: "مالك بن نبي" _ مولده _ نشأته _ دراسته _.

المطلب الأول: مولده.

هو "مالك بن الحاج بن الخضر بن مصطفى بن نبي" وابن "الحاجة زهيرة بنت عيسى" مفكر وعلم بارز من أعلام الفكر الإسلامي، له طابع العالم الاجتماعي، كان يلقب بين أهله وذويه بـ "الصّدِّيق"، أبصر النور لأول مرة بـ (قسطنطينة)، في الفاتح من شهر جانفي، سنة خمسة وتسعمائة وألف (1905م)، الموافق للخامس من شهر ذي القعدة عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة (1323هـ)، كما صرّح هو نفسه في مذكراته: «كان مولدي في الجزائر عام 1905م، أي زمن كان يمكن فيه الاتصال بالماضي عن طريق آخر من بقي حيا من شهوده والإطلال على المستقبل عبر الأوائل من رواده».⁽¹⁾

لـ "مالك بن نبي" جذور تركية أبا عن جدّ، فجده الأول كان من (تركيا)، وبالضبط من (اسطنبول)، وكان الابن الوحيد من الذكور لأبويه، الأمر الذي جعله محل عناية كبيرة منهما ومن شقيقته "فاطمة" و"سكينة".

المطلب الثاني: نشأته ودراسته.

هيا الله لـ "مالك بن نبي" محيطا دينيا وتربية طيبة تحيط به من كل جانب، فترعرع ونشأ في كنف أسرة محافظة، كان والده موظفا بسيطا بالقضاء الإسلامي، أما والدته فكانت تتخذ من الخياطة سبيلا لتوفير قوت أولادها.⁽²⁾

⁽¹⁾ مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن. تر (مروان القنواقي)، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ط1، دمشق، 1993م، ص 15.

⁽²⁾ ينظر إبراهيم نويري: "ترجمة محطات من حياة المفكر الجزائري العالمي الكبير "مالك بن نبي". موقع تراجم أعلام الجزائر، 8 جوان 2013م، تم تصفح الموقع بتاريخ 2014-01-05.

نبي"

بعد ضيق الحال بعائلة "مالك بن نبي" تضطر إلى السفر نحو (تبسة)، ليقى هو في (قسنطينة) تحت كفالة عمه "محمود بن الخضر"، ولما بلغ السابعة من عمره عاد إلى (تبسة) بعد وفاة عمه وسفر جدّه لأمه إلى (طرابلس الغرب) فرارا من جرائم الاستعمار الفرنسي وويلاته.

توزعت مراحل "مالك بن نبي" الدراسية في الابتدائية والثانوية بين مدينتي (تبسة) و(قسنطينة)، فتعلم في المدرسة الفرنسية الحكومية في (تبسة) على أيدي أساتذة فرنسيين، كما درس في المدرسة نفسها على أيدي أساتذة عرب زرعوا في نفسه بذرة العمل الوطني.

في الوقت نفسه، كان يرتاد المدرسة القرآنية القديمة التي لُقن فيها بعض سور الذكر الحكيم، والتي كانت بالنسبة له عاملا مهما في نضوج فكره وإيقاده، ولا سيما في بواكير حياته، إلا أنّ الفارق الكبير بين المدرستين في طرق التدريس، والعقوبات المستمرة التي كان "مالك بن نبي" عرضة لها من طرف معلميه بسبب عجزه عن التوفيق بين الدراسة وبين ارتياد الكتاب، وعدم قدرة والديه على تسديد أجرة معلم القرآن، جعلته ينفر من المدرسة القديمة⁽¹⁾، فاضطر والده إلى سحبه منها بعد أربع سنوات على أن يواصل تعليمه في المدرسة الحكومية التي نبغ فيها نبوغا كبيرا جعله يتفوق على أقرانه وزملائه في الدراسة، ومكنه من افتكاك رتبة (جيد)، ومن الحصول على المنحة التي مكنته من العودة إلى (قسنطينة) لمتابعة دراسته الإكمالية خصوصا مع عجز والده عن تسديد مصاريف الدراسة⁽²⁾ بحكم الضيق المالي الذي كان يعانيه آنذاك، فالتحق بإكمالية (سيدي الجللي)⁽³⁾ التي كانت تعتبر معهدا إسلاميا يتخرج منه الطلاب لممارسة الوظائف الحكومية في التدريس

(1) ينظر محمد العبدية: مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاح. دار القلم، ط1، دمشق، 2006، ص 23.

(2) ينظر عبد اللطيف عبادة: فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، مؤسسة عالم الأفكار للنشر والتوزيع. ط2، المحمدية (الجزائر)، 2007، ص 18.

(3) في مذكرات شاهد القرن ورد أن اسم الإكمالية هو (سيدي الجللي)، أما بعض الدراسات التي تناولت فكر "مالك بن نبي" فتشير إلى أن اسم الإكمالية هو (سيدي جليس).

نبي"

والحمامة والطبّ، وتخرّج منها سنة 1918م حاملا معه تأشيرة الدخول إلى الثانوية التي التحق بها سنة 1921م⁽¹⁾، والواقع أن المرحلة الثانوية كان لها دور كبير وأثر بالغ في تنمية فكر "مالك بن نبي" وتوسيع مداركه ومعارفه، وفي صوغ شخصيته، وما كان هذا ليتحقق لولا شغفه الكبير بالمطالعة وانكبابه على أمهات الكتب القديمة والحديثة، وعلى روائع الشعر العربي قديمه وحديثه، فضلا عن دروس السيرة والفقهاء والعقيدة التي كان يتلقى مبادئها على أيدي فقهاء (قسنطينية) وشيوخها _وسنورد أسماء الأساتذة والشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم في سطورنا الموالية_.

تخرّج "مالك بن نبي" من المدرسة الثانوية في جوان 1925م، ليجد نفسه معفيا من الخدمة الوطنية بالقرعة، ولما كان هاجسه الوحيد هو المستقبل، وإخراج عائلته من وضعها المأزوم، لم يكن أمامه إلا أن يشق طريقه بحثا عن وظيفة يسد بها رمق أخته ووالديه، فقرر مغادرة (الجزائر) والسفر إلى (فرنسا)، وبما أنه يجيد التحدث باللغة الفرنسية، فقد غير اسمه إلى "جون" ليتمكن من الحصول على عمل، لكن مساعيه كلّها باءت بالفشل، فاضطرته الظروف إلى بيع كتبه على أرصفة شوارع (باريس) مقابل دنانير قليلة.⁽²⁾

لَمَّا أُغْلِقَتْ جميع الأبواب في وجهه أثناء إقامته في ديار الغربية، قرّر العودة إلى موطنه، فحطّ رحاله في (تبسة) سنة 1927م، واستفتح من جديد رحلة البحث عن عمل، وفي غرّة شهر مارس من السنة نفسها نجح في الحصول على وظيفة، وعُيّن مساعدا قضائيا متطوعا في محكمة (تبسة) ثم في محكمة (أفلو) بـ (وهران).

⁽¹⁾ ينظر الطيب بن إبراهيم: مواقف وأفكار مشترك بين مالك بن نبي وابن خلدون. دار مدني للنشر والطباعة، دط، دم، 2008، ص 32.

⁽²⁾ ينظر رابح عدالة: علماء قسنطينة. دار المجتهد للنشر والتوزيع. دط، دم، 2013، ص 3.

نبي"

بعدها انتقل إلى محكمة (شلغوم العيد) المعروفة آنذاك بـ (شاتودان)، ولمّا لم ينسجم مع أعضاء المحكمة استقال وعاد إلى (تبسة) من جديد⁽¹⁾، واختار أن يجرب مجال التجارة فأنشأ مطحنة للحبوب مع صهره، لكن سرعان ما اضطرتّه الأزمة الاقتصادية عام 1929 إلى بيعها، وفي هذا الصدد يقول "مالك بن نبي: « لأنّ فرنسا لا تزال تعاني رواسب الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت العالم عام 1929م، وكان أثرها في الجزائر ما كان، فقد تخلصنا أنا وصهري من المطحنة»⁽²⁾.

مع تفاقم الأزمة الاقتصادية، ساءت حالة "مالك بن نبي" _ومعه جل العائلات الجزائرية إن لم نقل كلّها_ فازدادت حاجته للعمل، ومع إصرار وإلحاح أسرته عليه بالعودة إلى (فرنسا) مرّة أخرى للبحث عن العمل وإكمال الدراسة، لم يجد إلاّ أن يشدّ رحاله نحو (فرنسا)، وكان ذلك في صائفة 1931م.

فور وصوله إلى (فرنسا)، سجّل نفسه لإجراء امتحان الالتحاق بـ (معهد الدراسات الشرقية) في أواخر أكتوبر أو بداية نوفمبر من سنة 1930م، والذي يؤهله لارتداد كلية الحقوق والتخصص في المحاماة.

وعلى الرغم من ثقته في النجاح إلاّ أنّه لم يوفق في الالتحاق بالمعهد، لأن السلطات الفرنسية لم تكن تسمح للجزائريين المسلمين أمثاله بمزاولة مثل هذه الدراسات، إذ يصرح في مذكراته: « لم أشعر بأي رعب تجاه الامتحان، فتوجهت بكل اطمئنان وهدوء إلى المعهد فوصلت في الوقت (...)، ولم تبد لي أي صعوبة في الاختبارات، ولكن النتيجة كانت خيبة أمل: لم أنجح!! وليس كل هذا ما في

⁽¹⁾ ينظر محمد العبدية: مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاح، ص 31.

⁽²⁾ مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 271.

نبي"

الأمر، بل لقد طلبني مدير المعهد، وفي هدوء مكتبه الوقور، شرع يشعري بعدم الجدوى من الإصرار على الدخول إلى معهده»⁽¹⁾.

اضطر "مالك بن نبي" عندها إلى تعديل أهدافه وغاياته، واختار الانتساب إلى مدرسة (الكهرباء و الميكانيك) المعروفة ب (معهد الدراسات اللاسلكية) التي مكّنته من تغيير اتجاهه من المجال القضائي السياسي _الجانب النظري_ إلى المجال التقني الخالص _الجانب التطبيقي_ وتخرّج منها سنة 1935م بدرجة مساعد مهندس.

خلال إقامته في (باريس)، وجد "مالك بن نبي" نفسه في خضمّ (الحضارة الغربية) التي تمكّن من الاحتكاك بها والتفاعل معها، مستشفا ملامحها ومستكشفا جوانبها الإيجابية والسلبية، مما زاد في إغناء رصيده الفكري والمعرفي، و في إثراء شخصيته التي نضجت ورسمت خطوطها العريضة في ظل ما يسمّى ب: «التفكير في الحضارة الغربية ولقاء الشرق بالغرب».

وما زاده قريبا من التعاطي مع روح (الحضارة الغربية)، انتسابه ل (الوحدة المسيحية للشباب الباريسي)، ومعايشته لواقع الحياة الأوروبية، وانخراطه في (وحدة طلبة شمال إفريقيا المسلمين)^(*) التي كانت تصدر مجلة شهرية (مجلة التلميذ)، الأمر الذي سمح له _من خلالها_ بالتفكير عن أفكاره ورؤاه الفلسفية والسياسية التي ظل متمسكا بها على الرغم من الطابع العلمي الذي انتهجه في المعهد

⁽¹⁾ المصدر نفسه، ص216.

^(*) وحدة طلبة شمال إفريقيا المسلمين: هي جمعية تعرف باسم "ودادية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية" (AEMAN) تأسست سنة 1919م على أيدي مجموعة من الطلبة الجزائريين من طرف السياسة الفرنسية، من أعضائها "بلقاسم بن حبيلس"، "الهادي بن سماية"، ومن أهدافها: تأسيس مكتبة لمساعدة الطلبة في تحضير مذكراتهم، توفير الدعم المادي والمعنوي للطلاب، تأسيس ناد خاص بالجمعية، اقتصر نشاط الجمعية خلال الفترة (1919م_1931م) على الجانبين الثقافي والاجتماعي، لتخترق المجال السياسي بعد سنة 1931م.

نبي"

اللاسلكي، وعندها ألقى أول محاضرة له وكانت بعنوان (لماذا نحن مسلمون؟) في أواخر ديسمبر 1931م.⁽¹⁾

لقد تمكن "مالك بن نبي" من خلال محاضراته من إدخال بعض المفاهيم الفلسفية التي تأثر بها عند دراسته للكتب الفلسفية، حيث أثارت عبارته (الروح تصنع المادّة) المطروحة في إحدى محاضراته انتباه الجالسين، وأظهرت اتجاهه المثالي في الفلسفة المعارض للاتجاه المادي.

في (فرنسا) تعرّف "مالك بن نبي" على سيدة فرنسية الأصل تدعى "سيلستين بول فيليبون

C.P.Philippon"⁽²⁾، وبعد أن أقنعها باعتماد الدين الإسلامي، وبعد أن اختارت لنفسها اسم "خديجة" اتخذها زوجة له، وقد كان لها الأثر البالغ في حياته، من خلال توفيرها له الجو العائلي والرعاية والراحة التي كان يفتقدها في ديار الغربية، والتي سمحت له بالتفرغ للدراسة في المعهد اللاسلكي الذي لم يكن قد تخرج منه بعد، إذ يقول في مذكراته: « كان يوم الجمعة من عام 1931م وقد تولى الله الأمر، فهداني إلى زوجي وهداها هي، فسّمت نفسها "خديجة" وأخذت على الفور زمام حياتي المادية في البيت».⁽³⁾

في سنة 1938م أنشأ "مالك بن نبي" رفقة مجموعة من المهاجرين الجزائريين مركز (المؤتمر الجزائري الإسلامي للثقافة) في مدينة (مرسيليا)، والذي ركز من خلاله على ضرورة تغيير ذهنية الإنسان الجزائري المسلم، وعلى ضرورة ثقته بنفسه وتحوله من إنسان غير فعّال ومتخلف إلى إنسان

⁽¹⁾ ينظر عبد اللطيف عبادة: فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 21.

⁽²⁾ ابنة شقيقة المفكر الجزائري "مالك بن نبي" تسرد سيرة حياته. بدون مؤلف، موقع المورد الإلكتروني، مارس 2013
www.mawrid.com ، تمّ تصفح الموقع يوم (2014/06/15).

⁽³⁾ مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 236.

نبي"

جاءَ ومتحضر، وكان رد فعل السلطات الفرنسية الاستعمارية على النشاطات التي يقوم بها في المركز أن منعتَه من التدريس وأغلقت المركز نهائياً.⁽¹⁾

لقد قضى في ديار الغربية الفترة الممتدة بين سنتي 1936م و1956م، أي حوالي 26 سنة ذاق خلالها الويلات؛ فشله في الوصول إلى الهدف الذي سافر من أجله وهو التخصص في المحاماة ومن ثمَّ عجزه عن تحقيق حلم والديه في رؤيتهما لابنهما محامياً، وتعرُّضه للسجن من طرف السلطات الألمانية حوالي السنة، أي من شهر أوت 1944م إلى شهر ماي 1945م.

في السجن، بدأ "مالك بن نبي" يخطِّ صفحات كتبه التي بدأت تصدر تباعاً فور خروجه من السجن وعودته إلى (فرنسا)، فكان باكورة أعماله كتاباه (الظاهرة القرآنية) و(شروط النهضة) الصادران باللغة الفرنسية⁽²⁾، ثم توالى كتبه في الظهور كتاباً بعد الآخر تحت عنوان جامع هو (مشكلة الحضارة)، كما واصل نضاله عبر الصحافة.

لَمَّا كانت زوجته قد عجزت عن منحه ولدا يحمل اسمه من بعده، ولَمَّا كانت آخر وصية تركها له والدته قبل رحيلها هي الزواج ثانية قصد الإنجاب، اضطر للقبول بإرضاء للجميع، وحتى لزوجته التي لم تكن تعارض الموضوع، إذ يقول: « فعلا كانت والدتي مصممة على أن يكون لها أحفاد من ابنها، فقررت أن أرضي الجميع بالقبول في انتظار الظروف السانحة، علما أن "خديجة" لم تعارض الموضوع مبدئياً».⁽³⁾

⁽¹⁾ ينظر رابح عدالة: علماء قسنطينة، ص 64.

⁽²⁾ ينظر محمد العبدية: "قبسات من فيلسوف العصر "مالك بن نبي" خطوة لفهم نكبة الغفلة في الثقافة العربية". صحيفة قراءات العرب، الاثنين 2007/03/226، ص 09.

⁽³⁾ مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 340.

نبي

لكن، وقبل أن يقدم على خطوة الزواج، كان "مالك بن نبي" مصرا على أن يحقق حلم زوجته "خديجة" في زيارة البقاع المقدسة التي سمعت عنها الكثير من بعد إسلامها، وبصعوبة كبيرة تمكّن من الحصول على جوازي سفر لأداء فريضة الحج⁽¹⁾، لكن الظروف منعتهما من ذلك.

في سنة 1956م، وبعد إعلان الثورة المسلحة في (الجزائر)، بدأ "مالك بن نبي" يشعر بالتضييق الكبير عليه من طرف السلطات الاستعمارية في (فرنسا)، كما أدرك ضرورة مساهمته في الكفاح المسلح⁽²⁾، وبما أنه كان في تلك الفترة يتحضر لإخراج كتابه (الفكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر (باندونغ) الخادم للقضية الجزائرية، فقد اختار (مصر) التي كانت من أبرز الدول المشاركة في مؤتمر (باندونغ) المنعقد سنة 1955م وجهة له، فاستقبلته الحكومة المصرية بترحيب كبير، وحظي عندها بالاهتمام الأكبر، وتولت طباعة الكتاب تحت نفقتها الخاصة وخصصت له راتبا شهريا بأمر من الرئيس "جمال عبد الناصر" الذي كان من أكثر المعجبين والمتحمسين لأفكار "مالك بن نبي".

في (مصر)، راسل "مالك بن نبي" من شاء لهم القدر أن يكونوا قادة جهاد الشعب الجزائري وحاملي لواء الثورة المبعّلة، فوضع نفسه تحت تصرفهم وعرض عليهم خدماته كمرض عسكري في جبهة القتال وكمؤرخ للثورة الجزائرية عن طريق المشاهدة.

لقد كانت فترة وجوده في (مصر) من أغنى مراحل عطائه الفكري، والتي سمحت له بالانطلاق في عهد جديد مع التأليف وإتقان اللغة العربية؛ ففي (القاهرة) التي فتحت له أبوابها بدأ يحاضر و يكتب، أو لنقل أكمل مسيرة الإبداع التي سبق له أن بدأها، وجعل من بيته مدرسة ثقافية يقصدها

(1) ينظر محمد العبدية: فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 22.

(2) ينظر يوسف بوراس: الفكر السياسي عند مالك بن نبي. دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، دط، الجزائر، 2013، ص

نبي"

الطلبة عربا ومسلمين، من كل صوب وحذب، يستمعون إلى آرائه⁽¹⁾، وينهلون من فكره الوضاء، ويأخذون من نظرياته التي تمحورت في مجملها حول موضوع (مشكلات الحضارة) وهنا أصدر مجموعة كتب منها: (النجدة... الشعب الجزائري يباد)، (حديث في البناء الجديد) (مشكلة الثقافة)، (في مهب المعركة)، (تأملات)، (فكرة كمنويلث إسلامي)⁽²⁾.

كما مكّنه مكوّنه في (مصر) من ترجمة كتبه الصادرة بالفرنسية في (فرنسا) إلى اللغة العربية، ومن شغل منصب مستشار للمؤتمر الإسلامي الذي أطلق عليه اسم (مجمع البحوث الإسلامية)⁽³⁾، كما تمكن من التعرف على العالم العربي من خلال زيارته المتعددة إلى عدة بلدان عربية منها: (سوريا)، (لبنان)، (الكويت)، (ليبيا)... إلخ، والتي قوّت صلّاته ومنتت علاقاته مع العديد من العلماء والمفكرين الذين قاسموه المبادئ والأفكار نفسها، وتمكن من دعم القضية الجزائرية والتعريف بها، حيث دعا الشعوب المحببة للسلام والمناهضة للاستعمار لتقديم الدّعم المادي والمعنوي للتوّار.⁽⁴⁾

في أواخر الخمسينات _وفي مصر_ تزوج "مالك بن نبي" من قريبة له _اخترتها عائلته_ وبعد سنوات قليلة، أنجب منها توأم بنات سماهما "إيمان" و"نعمت"، وكان ذلك سنة 1961م ليرزقه الله بعدها بنتا ثالثة اختار لها اسم "رحمة".

بعد أن استقلّت (الجزائر) _وعلى وجه التحديد عام 1963م_ عاد "مالك بن نبي" إلى أرض الوطن، فأُسندت إليه إدارة التعليم العالي بوزارة الثقافة والإرشاد القومي الجزائري⁽⁵⁾، فقام بمهمته

(1) ينظر بركات محمد مراد: "مالك بن نبي فيلسوف الحضارة وشاهد القرن". مجلة رؤى (مالك بن نبي والمشروع الحضاري)، السنة الرابعة، ع 20، 2003، ص 6.

(2) المرجع نفسه، ص 6.

(3) ينظر محمد العبدية: مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي، ص 42.

(4) ينظر رابع عدالة: علماء قسنطينة، ص 65.

(5) ينظر محمد العبدية: مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي، ص 44.

نبي"

مع مواصلة نشر رسالته، سواء عن طريق المحاضرات أو عن طريق التأليف والكتابة، فصدر له (آفاق جزائرية)، وكذلك الجزء الأول من مذكراته (مذكرات شاهد القرن - الطفل -) و(مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) و(المسلم في عالم الاقتصاد).

أفسحت أمامه مجلة الثورة الإفريقية - اللسان الرسمي لحزب جبهة التحرير الوطني - صفحاتها، فنشر مجموعة من المقالات في السياسة و(الثقافة) والاقتصاد وفي الشؤون الدولية.⁽¹⁾

وعُيّن بأمر من الرئيس "هواري بومدين" إلى جانب الوزير "مولود قاسم نايت بلقاسم" عضواً منظماً لملتقيات الفكر الإسلامي الذي كانت الجزائر تحتضنه سنوياً، وألقى بها بعض المحاضرات⁽²⁾، وفي سنة 1968م أسس مسجد الطلبة بجامعة (الجزائر) ومجلة للتعريف بالإسلام وعنوانها (ماذا أعرف عن الإسلام؟) «Que sais je de L' islam».⁽³⁾

بعدهما أحسن "مالك بن نبي" بفشله في التوفيق بين عمله وبين نشاطه الفكري استقال من منصبه كمدير سنة 1967م، ليتفرغ كلياً للعمل الإسلامي والتوجيهي والتنظيم الندوات الفكرية التي كانت تستقطب جلّ الطلاب والدارسين من مختلف الجنسيات.

في سنة 1972م أدى مناسك الحج، وفي طريق العودة عرّج على (دمشق) حيث كانت له عدة محاضرات جمعت في كتاب واحد هو (مجالس دمشق).⁽⁴⁾

(1) ينظر عبد اللطيف عبادة: فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 26.

(2) ينظر رابع عدالة: علماء قسنطينة، ص 65.

(3) ينظر عبد اللطيف عبادة: فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 27.

(4) ينظر يوسف بوراس: الفكر السياسي عند مالك بن نبي، ص 24.

المبحث الثاني: "مالك بن نبي" ثقافته ومؤثرات بنائه الفكري.

إنّ البناء الفكري لأي مفكر أو عالم، باحث أو دارس، فيلسوف أو ناقد، لا يولد من فراغ ولا ينشأ من عدم، وإنما لا بد له من ركائز يقوم عليها، ومن دعائم يستند إليها من مرجعيات معلومة وغير معلومة، والحال حال المفكر "مالك بن نبي"، الذي ساهمت مجموعة من الخلفيات والمؤثرات الثقافية والاجتماعية والسياسية... إلخ في بلورة فكره وبناء شخصيته، فقد أوضح في مذكراته الموسومة بـ (مذكرات شاهد القرن)، وفي العديد من مؤلفاته ومقالاته، الأثر البالغ الذي تركته المدرسة والأهل والشارع في حياته، ونوّه بالعلماء الكبار وبالأعمال التي تركت بصماتها خالدة في فكره.

ولعل ما يميزه وفكره، ارتباطه بالإسلام دينا وإيمانا، وتكوّنه بين أحضان (الثقافة العربية) التي أخذ أصولها من منابعها الأولى وغداها بما كان سائدا في الأمة العربية من قضايا إسلامية كبرى ذات أبعاد حضارية تهدف إلى تحقيق نهضة شاملة تعم الجميع من جهة، وانفتاحه على مقومات (الحضارة الغربية) وعلومها التي جعلته متميزا في طرحه، علميا في منهجه، منفتحا على الآخر من جهة أخرى.

إذا ما أردنا الوقوف على أهم العوامل والأحداث التي عملت على بناء شخصية "مالك بن نبي" فكريا وثقافيا واجتماعيا، أمكننا إجمالها في العوامل التالية:

المطلب الأول: المؤثرات الاجتماعية.

أولا: البيئة العائلية.

لا يمكن لنا _ول_ "مالك بن نبي" _بأي حال من الأحوال أن نهمّل الأثر الكبير الذي تركته أسرته في حياته، ولا سيما ركيزة هذه الأسرة ودعامتها، ألا وهي المرأة ممثلة في جدته وأمه وزوجته.

فأما بخصوص جدته، فقد نشأ وترعرع منذ أن فتح عينيه على الحياة على نصائحها وقصصها التي انصبت موضوعاتها حول احتلال (الجزائر) وما نجم عنه من دمار وخراب، هذه الأخيرة (الجددة) عدّها "مالك بن نبي" المدرسة الأولى التي ساهمت إلى حد كبير في بلورة فكره وتنمية تكوينه العاطفي، وفي تربيته التربية الصالحة وتوجيهه الوجهة الحسنة، وفي هذا الصدد يصرح: «سمعت الكثير من أقاصيصها وحكاياتها التي كان محورها العمل الصالح وما يليه من ثواب، وعمل السوء وما يتبعه من عقاب، وكانت هذه الأقاصيص الورعة تعمل على تكويني دون أن أدري، فمنها عرفت أن الإحسان في مرتبة عليا من الخلق الإسلامي».⁽¹⁾

⁽¹⁾ مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 19.

نبي"

أما بخصوص أمه، فطالما وصفها بالعقل المنظم لحياة أسرته المملوءة بالدفء ومعاني الإنسانية. أما زوجته (خديجة)، فقد كان لها بصمة واضحة في حياته وفكره، وذلك من خلال الجو العائلي المريح الذي كانت توفره له، والذي كان ينسبه حرقه الغربية من جهة، ومن خلال القضايا الأفكار الثقافية والسياسية التي كانت تتبادل آراءها معه من جهة أخرى، وفي هذا الصدد يصرح بقوله: «...» ومضت زوجتي تفنن من أجل توفير وسائل الراحة لي داخل البيت، حتى من الناحية الفكرية، إذ كانت تأتي على الأشياء التي أشاهدها في عالمي الجديد بشهادة من يعرفها من داخلها لقد كنت أرى في تلك الأشياء القيم الحضارية التي أصبحت الشغل الشاغل بالنسبة لي من الناحية النظرية (...). وأتجاذب الحديث مع "خديجة" حول القضية الجزائرية أو حول الدين، وكان يروق لها بعد أن أصلي صلاة المغرب أن تستمع لما أتلو من القرآن دون أن تفهم بطبيعة الحال، غير أنها تتذوق جرس التلاوة نفسها، ويحدث أن تطرح بهذا الصدد سؤال المرید المبتدئ أو تبدي رأيها في موازنة الإسلام والمسيحية بطريقة تفيدني أحياناً»⁽¹⁾.

هذا عن تأثير المرأة فيه، غير أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، إذ كان لباقي أفراد أسرته إسهام فعال في تزكية الروح الوطنية والإسلامية عنده، ونقصد بقولنا هذا جدّه لأمه "الحاج خيضر" الذي غرس فيه روح كره الاستعمار الفرنسي ومعاداته، وذلك عبر رفضه (الجدّ) مساكنة الاستعمار الفرنسي، وهجره (الجزائر) نحو (ليبيا)، وعودته إليها مجدداً بعد احتلال (طرابلس الغرب) من طرف الإيطاليين كدلالة أخرى تضاف إلى سجل رفضه و بغضه ومعاداته للاستعمار أيّاً كان، وحيثما كان، أما والده الذي كان شديد التدين، فقد كان حريصاً على تطعيمه أصول الثقافة الإسلامية والعربية من مشاربها ومنابعها الأولى، والتي كان لها الدور الكبير في صقل شخصيته وتعميق الضمير الوجداني داخله.

⁽¹⁾ المصدر نفسه، ص 274.

ثانيا: البيئة الاجتماعية.

لما كان الكاتب _أو لنقل المبدع_ ابن بيئته، فطبيعي أن يكون لمحيط "مالك بن نبي" تأثير بالغ على تجربته وأدائه، ذلك أن تنقله المستمر ما بين (قسنطينة) وبين (تبسة) مكّنه من التمسك بالأصالة التي استمد جذورها من الطابع شبه البدوي الذي عايشه في (تبسة)، ومن التطلع إلى آفاق المعاصرة التي تفتح عليها وولج أبوابها خلال إقامته في (قسنطينة)، وفي هذا يقول: «في (تبسة) كنت أرى الأمور من زاوية الطبيعة والبساطة، أما في (قسنطينة)، فقد أخذت أرى الأشياء من زاوية المجتمع والحضارة، واضعا في هذه الكلمات محتوى عربيا وأوروبيا واحدا».⁽¹⁾

فضلا عن هذا، فقد لعبت زيارته المتكررة إلى بعض البلدان العربية ك (مصر) و(لبنان) والأجنبية ك (فرنسا) و(الولايات المتحدة الأمريكية) دورا كبيرا في توسيع آفاقه ومعلوماته و مداركه، كما كان لها أثر كبير في دقة ملاحظاته⁽²⁾.

لقد كان الحبي الذي نشأ فيه "مالك بن نبي" سواء في (قسنطينة) أو في (تبسة) على مقربة من المسجد، مما جعله عاملا هاما في تحديد توجهاته ونشأته وتربيته، فاعتاد على التردد إليه لأداء صلواته ولحضور مختلف حلقات الدروس لمختلف فقهاء (قسنطينة) و(تبسة) وشيوخهما.

كما كان يتردد على المقاهي التي لعبت دورا رئيسيا في بلورة الحياة الثقافية الجزائرية، ذلك أنّها اعتبرت مركز استقطاب للأدباء والمفكرين وملتقى لتبادل الأفكار وقراءة التاريخ والاطلاع على الصحف العربية والفرنسية، كما صرح من خلال قوله: « في المساء، كان الناس يتجمعون في المقاهي الجزائرية يستمعون إلى القصّاصين ويروون حكايات ألف ليلة وليلة أو سيرة "بني هلال"،

⁽¹⁾ مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 36.

⁽²⁾ ينظر محمد العبدية: مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاح، ص 56.

نبي"

أما من كانوا يفضلون البقاء في المسجد بعد صلاة العشاء، فكانوا يستمعون إلى ما يلقي الإمام من دروس، وبهذا كانت (تبسة) عبارة عن مركز ثقافي تلقت فيه عناصر الماضي بطلائع المستقبل، وبالطبع فإن مداركي كانت تنمو متأثرة بهذين التيارين⁽¹⁾.

ومن بين المقاهي التي كانت تجذبه إليها، مقهى (بوعريبط) التي مكنته من الاطلاع على فنون الأدب العربي، حيث يقول: «كان صالوننا الأدبي في مقهى (بوعريبط) يزودنا بفرص كثيرة من المشاركة في الحديث حول الأدب العربي. لقد اكتشفت بهاءه القديم و إمكاناته الحاضرة»⁽²⁾.

ومقهى (ابن يمنية) التي شكلت ملتقى لتبادل الأفكار و النقاشات الحادة، والتي بلورت الوعي الوطني في بداية القرن العشرين، فكانت بذلك الفضاء الذي تفتتت فيه قريحة "مالك بن نبي" فسماها ب (مقهى الفكر)، و عنها يقول: «كنت أعني في قهوة (ابن يمنية) آثار التمزق الفكري والعقائدي حيث كان فيها مناقشات وأحاديث حادة ومثيرة، كان يغذيها التيار المدرسي ذو الثقافة الفرنسية التي تعطي في المدارس الحكومية والتيار الباديسي الحر»⁽³⁾.

من هنا، نتوصل إلى أنّ البيئة التي نشأ فيها "مالك بن نبي" تغلب عليها الصبغة الإسلامية المشوبة ببعض المؤثرات الثقافية التي تماهت معها التماهي كلاً، سواء في الأسرة التي انحدر منها أو في الحيّ الذي نشأ فيه أو في المدن والبلدان التي عاش وقائعها وعایش تطوراتها.

في ظل هذه البيئة، نشأ وترى وتعلم مقتحماً دروب الحياة بوعي وبصيرة، وامتسحاً بما نهلته من علوم ومعارف منذ صغره، وسّعت مداركه وقوّت شخصيته.

(1) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 28.

(2) المصدر نفسه، ص 67.

(3) المصدر نفسه، ص 67.

نبي"

تلك هي معظم الأحداث والوقائع الاجتماعية التي تركت بصماتها خالدة في حياة "مالك بن نبي"، وساهمت بقسط كبير في بناء شخصيته وصقلها.

المطلب الثاني: المؤثرات الثقافية.

أولاً: تأثير المعلمين والأساتذة.

أ/ المعلمون والأساتذة العرب:

تأثر "مالك بن نبي" بمجموعة من الأساتذة المثقفين ثقافة عربية إسلامية، والذين التقى بهم وتعلّم على أيديهم ونهل من نبع أفكارهم ومعارفهم، سواء في الكتاب أو في مدرسة (سيدي الجلي) الإعدادية بـ (قسنطينة) أو مدرسة (إعداد المعلمين).

ونذكر على رأس هؤلاء "الشيخ عبد المجيد"، الذي أخذ عنه أصول قواعد اللغة العربية والنحو والصرف وحفظ عنه قسطاً من الشعر العربي، وفي هذا الصدد يقول: «تلقيت مع "الشيخ عبد المجيد" أول أسس الثقافة العربية، لقد تعلمت تصاريف الأفعال والتمييز بينها، وحفظت شيئاً من الشعر».⁽¹⁾

فضلاً عن هذا، فقد كان لآراء "الشيخ عبد المجيد" عن المجتمع وانتقاداته للبدع وكراهيته لتصرفات الإدارة الفرنسية وتهجمات على تجاوزاتها، الأثر البالغ في تكوين وصياغة شخصيته.

كما تأثر بالشيخ "ابن العابد" الذي كان أستاذاً للشريعة الإسلامية في معهد تكوين المعلمين، والذي مكّنه بـفضل محاضراته— من اجتناب الوقوع في متاهات الفكر الغربي وتياراته التي بدأت تجذبه إليها وتمارس تأثيراتها عليه.

⁽¹⁾ مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 51.

نبي

يستوقفنا في هذا المقام، الحديث عن الحركات الإصلاحية التي أخذ "مالك بن نبي" أسسها وتشرب مبادئها من كبار علماء الإصلاح في (الجزائر) ممن تتلمذ على أيديهم أو جمعته بهم علاقة الزمالة والصدّاقة.

هذا، ويعتبر الشيخ "مولود بن موهوب" من أكثر المعلمين تأثيرا في "مالك بن نبي"، كان إصلاحيا بحكم تكوينه على يد أحد أكبر الإصلاحيين وهو "عبد القادر المجاوي"، فكان يسعى إلى نشر هذا التراث الإصلاحي⁽¹⁾، ويعمل على جذب تلامذته إليه ويدعوهم إلى حب الحركة الإصلاحية والعمل بها، وفي هذا الصدد يصرح "مالك بن نبي" بقوله: «لقد احتفظ الشيخ في ذهنه بذلك الأثر الذي غرسته في نفسه دراسته على يد معلمه "الشيخ المجاوي"، وقد تولّى هو نقل هذه الغرسة إلى تلك الأجيال من المدرسين، وكنت منهم، وقد أينعت ثمارها في الحركة الإصلاحية الناشئة في الجزائر».⁽²⁾

وله صديق أثر فيه إلى أبعد حد، وهو "حمودة بن الساعي" الذي قاسمه مقاعد الدراسة في المرحلة الثانوية وكان بالنسبة له الأب الروحي والأستاذ والصديق والملمهم ومصدر القوة، والذي كان إصلاحيا بامتياز بحكم القناعات الإصلاحية التي كان متمسكا بها، لذا تأثر بثقافته العربية الإسلامية، وأعجب بإتقانه الاستشهاد بالآيات القرآنية في الظروف الاجتماعية المستجدة في المجتمع الإسلامي، وأعاد له الفضل في اتجاهه ككاتب متخصص في شؤون العالم الإسلامي.⁽³⁾ حيث يقول: «أدين "لحمودة بن الساعي" باتجاهي كاتبا متخصصا في شؤون العالم الإسلامي، وإنّ تحوّلني عن

(1) ينظر يوسف بوراس: الفكر السياسي عند مالك بن نبي، ص 28.

(2) ينظر يوسف حسين: نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث. دار التنوير، ط1، الجزائر، ص 38.

(3) ينظر عبد اللطيف عبادة: فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 30.

نبي"

دراستي قد زاد بصحبته منذ أن أصبحت مهتما بالفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ أكثر من اهتمامي بمواد مدرسة اللاسلكي». (1)

هذا، وتأثر أيضا بجمعية العلماء المسلمين وبرؤاها الذين كان يتقاسم معهم الآراء والأفكار الإصلاحية وكان يشعر بقربهم بوحدة الانتماء، حيث يقول: « لقد شعرت بأني وهؤلاء في اتجاه فكري واحد» (2)، كما تمكّن مع بعض رفاقه من إدخال ونقل هذه الحركة الإصلاحية إلى (فرنسا) عن طريق المحاضرات والندوات التي كان يترأسها، وعن طريق النضال اليومي للتعريف بالإسلام ورسالته، ولكن قولنا هذا لا ينفي أنه يعارض أفكارها في بعض الأحيان.

وعن تأثره بـ "عبد الحميد بن باديس" وأفكاره يذكر: « لقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات "ابن باديس"، فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري المخدّر يتحرك، ويا لها من يقظة جميلة مباركة! (...)، فتحوّلت المناجاة إلى خطب ومحادثات ومناقشات وجدل، وهكذا استيقظ المعنى الجماعي، وتحوّلت مناجاة الفرد إلى حديث الشعب». (3)

لقد كان التيار الإصلاحي _أو لنقل المدرسة الإصلاحية_ التي تعلّق بمبادئها واعتنق آراءها وأفكارها، بمثابة الشعلة التي ألهمت في روحه فتيل كرهه للاستعمار وحقده عليه ودفعته إلى مواجهة الاحتلال الفرنسي وإبطال كل محاولاته التخريبية، كما رأى "مالك بن نبي" في جهود حركة جمعية العلماء المسلمين مزايا عديدة واعتبرها أقرب الحركات إلى النفوس، ذلك أنّ منهجها مستلهم من قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد، الآية 11) وذلك أنّها ترى أن مفتاح القضية يكمن في روح الأمة وأنّ تكوين (الحضارة) يكون في الظروف والشروط التي ولدت فيها

(1) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 235.

(2) المصدر نفسه، ص 74.

(3) مالك بن نبي: شروط النهضة. تر (عبد الصبور شاهين، عمر كامل مسقاوي)، دار الوعي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013م، ص 26.

نبي"

(الحضارة الأولى / حضارة الإسلام) - وكانت (قسنطينة) مهدها - وذلك أنّ الحركة اتخذت بعدا دينيا تمثل في العودة إلى صفاء الإسلام وبعدها سياسيا ركّزت فيه على بعث اليقظة في الشعب بعد تخدير المستعمر له، كما نفضت عنه غبار البدع والخرافات لتضعه صَوْبَ مهماته الاجتماعية.

لكن، وعلى الرغم من تأثره بالحركة الإصلاحية وبروادّها وبجمعية العلماء المسلمين وبجهودها، وعلى الرغم من حماسه لها، إلاّ أنّه لم يتوانَ عن نقدها وتقييم هفواتها وتشخيص نقائصها وإبداء النصح لها.

لقد انتقد بعض جوانب النهج الذي خطته جمعية العلماء المسلمين وسارت عليه، كما انتقد مشاركة وانخراط هذه الأخيرة في (المؤتمر الإسلامي الجزائري) واعتبرها انحرافا عن مسارها الإصلاحي، إذ تحوّل - حسب نظرتة - النشاط الفكري والعمل التربوي إلى خطابات سياسية ومنافسات انتخابية⁽¹⁾، فكأنه كان رافضا انشغال واشتغال الجمعية بالسياسة.

ب/ المعلمون والأساتذة الفرنسيون:

إن كان تأثير مدرسة الإصلاح - ومعها الأساتذة العرب - في "مالك بن نبي" قد انصبّ في مجمله حول تحديد مساره الإيديولوجي وحول غرس قيم (الحضارة الإسلامية) فيه، فإن المدرسة الفرنسية - ومعها الأساتذة الفرنسيون - في مقابل ذلك قد أكسبته المنهج العلمي الحديث.

ويمكننا هنا الحديث عن الأساتذة الذين نوّه بهم في معرض حديثه عن التأثيرات الغربية على

ثقافته و شخصيته.

⁽¹⁾ ينظر مولود عويمر: مالك بن نبي رجل الحضارة - مسيرته وعطاؤه الفكري - دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، دط، المدينة الجديدة، تيزي وزو، 2007، ص 17.

- "السيد مارتان (Mr. Martin)." -

كان معلماً بمدرسة (سيدي الجلبي) الإعدادية بقسنطينة⁽¹⁾، وإليه يعيد "مالك بن نبي" الفضل كله في تعلمه للغة الفرنسية وإتقانه لقواعدها وفي غرس شغف المطالعة في روحه.

- "السيد بوبريتي (Boubreiter)." -

كان مدرس تاريخ العصور القديمة والأدب الفرنسي بمدرسة (سيدي الجلبي)، له هو الآخر الدور الأكبر في إرشاده إلى الكتب التي ينبغي عليه مطالعتها، وفعلاً كان يعيره بعض المجلات منها: (مجلة الأخبار الأدبية) و(مجلة كونفيرانسيا) تحفيزاً وتشجيعاً له على التقدم الذي كان يحرزها في دراسته من جهة، وتغذية لعقله وروحه من جهة ثانية، فيقول: «ومن جهتي أنا، فقد كان الأستاذ "بوبريتي Boubreiter" قد فتح لي آفاقاً جديدة، ولم يكن ذلك بفضل دروسه المقررة علينا كتاريخ الأزمنة القديمة والأدب الفرنسي — وإن تكن هذه قد تركت أثراً لا ينكر — إنما بفضل توجيهاته فيما نقرأ من كتب»⁽²⁾.

كما تأثر بالمعلمة "بويل" التي أعجبت باجتهاده ومواظبته وسلوكه القويم ونظافته خصوصاً مع صغر سنه — لم يتجاوز ست سنوات — وكان وقتها في المدرسة الفرنسية بـ (تبسة)، وما شدّه إليها عاطفة الحب الكبيرة التي كانت تحملها للإنسان مهما كان عرقه وجنسه، ذلك أنها كانت تفضّل "مالكاً" الطفل العربي الجزائري على زملائه الأوروبيين — مثلها — الأمر الذي جعل ذكراها وحروف اسمها عالقة في ذهنه وفي هذا يقول: «ولكن الشيء الذي لم يزل عالقا بذاكرتي إلى اليوم هو ما شعرت به اتجاه المدام "بويل"، وعلى أية حال استيقظت ذات يوم وأنا أشعر تجاه مدام بويل"

(1) ينظر موسى لحرش: "مالك بن نبي (حياته ونتاجه الفكري)". المجلة الجامعية مالك بن نبي والفقهاء الحضاري، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، دغ، قسنطينة، جويلية 2006، ص 18.

(2) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 65.

نبي"

بحبّ لا ينقص عن حبي لأمي، ومما يزيد في غرابة الأمر، شعرتُ أنّ السيدة استجابت تماما إلى

انطلاق قلب هذا الطفل، ومهما يكن رأيت تلك اللحظة دروسي تأخذ السير الممدوح»⁽¹⁾.

أما بخصوص صفة العلمية التي تطبّع بها بين أحضان المدرسة الفرنسية وعلى أيدي المعلمين الفرنسيين، فقد كان ذلك خلال مزاولته الدراسة في (مدرسة اللاسلكي) التي تخرج منها مهندسا كهربائيا، هذه الدراسة كان لها أثر كبير عليه، خصوصا بعد مطالعته لكتب الأب "مورو" في الاختصاصات العلمية الدقيقة، إذ تعرف على عالم الكم والكيف والضبط والملاحظة، وهنا اكتسب صفة العلمية التي صارت عنوانه في دراسة جميع الظواهر، إذ لم تكن تخلو من ملاحظات وبواكير تفكير اجتماعي بما يحمله من هواجس التغيير التي تخامر عقله ووجدانه.⁽²⁾

ثانيا: تأثير القراءات العربية والغربية.

أ/ المؤثرات من القراءات العربية:

عُرف المفكر "مالك بن نبي" بشغفه الكبير في مطالعة الكتب التي غذت فكره وطبعته بسمات انفراد بها، فاتجه هوامه إلى كتب التراث القديمة وقرأ كل ما وقعت عليه عيناه من الكتب الدينية والأدبية والسياسية... إلخ، واطّلع على عشرات المقالات للعديد من الكُتاب والأدباء والمفكرين والفلاسفة.

ومما قرأه وكان له بمثابة الينابيع التي حدّدت اتجاهه الفكري، كتابا (رسالة التوحيد) لـ"الشيخ محمد عبده" و(الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق) لـ"أحمد رضا" اللذان كشفنا عن حالة التخلف في العالم الإسلامي، وعنهما يقول "مالك بن نبي: «...» كتابان عثرت عليهما في مكتبة

⁽¹⁾ مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 27.

⁽²⁾ ينظر يوسف بوراس: الفكر السياسي عند مالك بن نبي، ص 33.

نبي"

النجاح، أعدّهما الينابيع البعيدة والمحددة لاتجاهي الفكري، أعني بذلك كتاب (الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق) لأحمد رضا و(رسالة التوحيد) للشيخ "محمد عبده" (...)، هذان المؤلفان أثرًا على ما أعتقد في أبناء جيلي من المدرسين، أنا مدين لهما على كل حال بذلك التحول في فكري منذ تلك الفترة، لقد رسم لي كتاب "أحمد رضا" مزودا بالشواهد الكثيرة بهاء المجتمع الإسلامي في ذروة حضارته، وكان ذلك معيارا صحيحا نقيس به بؤسه الاجتماعي في العصر الحاضر، أمّا كتاب "محمد عبده" _وأنا هنا أتحدث عن المقدمة الهامة المترجمة حول غنى الفكر الإسلامي عبر العصور_ فقد أعطاني مستندا للحكم على فقره المحزن اليوم».⁽¹⁾

كما اطلع على كتابي (أم القرى) و(طبائع الاستبداد) لـ "عبد الرحمن الكواكبي" واعتبرهما البوابة التي ولج منها إلى روح جديدة متوثبة بدأت تسري في جسم الأمة الإسلامية على الرغم من تيمة الخيال التي طغت عليه، فيقول: «...» كتاب (أم القرى) قد عرفني بإسلام بدأ يُنظم صفوفه ليدافع عن نفسه ويقوم بحركة بعث جديد، إنه كتاب خيالي، لكنه مُعبّر يحمل شعورا بدأ يعتمل في العالم الإسلامي على الأقل في بعض الأنفس كالكواكبي، لم أكن أشك بأنه كتاب خيال، ولكن أثره في نفسي كان عميقا».⁽²⁾

هذا، وأقبل "مالك بن نبي" بنهم على كتب التاريخ الإسلامي، فقرأ (مروج الذهب) و(معادن الجواهر) للمؤرخ "المسعودي"، كما قرأ كتابي (العبرات) و(النظرات) لـ "المنفلوطي".

⁽¹⁾ مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 66.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 88.

"نبي"

كما تأثر بكتابات "عبد الرحمن بن خلدون" وخصوصا نظريته حول (الدورة الحضارية) التي كانت أفكاره بعد ذلك تطورا لها، فقرأ (مقدمته) وصارت مرجعا له في معظم كتبه، وأصبح أستاذه وملهمه الأكبر.⁽¹⁾

وعموما، فهذه الكتب العربية _وغيرها كثير إلا أننا ركزنا على أكثرها أهمية_ التي انكبَّ "مالك بن نبي" عليها، قوّت شعوره بالانتماء العربي وغدّته وجدانيا وفكريا بقيم الحضارة الإسلامية ومعطياتها، وكانت له بمثابة النافذة التي اطلع عبرها على بؤس الواقع الاجتماعي العام.

لم تقتصر مطالعات "مالك بن نبي" العربية على الكتب، بل امتدت لتشمل الصحف والجرائد التي كانت من جهة مرآة عاكسة لواقع الأمة العربية الإسلامية عموما والمجتمع الجزائري خصوصا، ومن جهة أخرى لسان "مالك بن نبي" الجاهر بجمومه، الناطق بأرائه، ومن الصحف والجرائد التي واظب على قراءتها وتصفّحها:

● **صحيفة النجاح:** الناطقة باللغة العربية، والتي أسسها "سامي إسماعيل" في (قسنطينة) سنة 1920م⁽²⁾، وهو شاب من (طولقة) من مدينة (بسكرة)، تخرج من جامع الزيتونة (تونس) ثم عاد ليؤسس هذه الجريدة، وعلى الرغم من أنّها لم تكن ذات قيمة علمية وثقافية تذكر لكون اهتمامها انصبّ على الاحتفالات وإعلانات الوفيات، إلا أنّ كتابتها باللغة العربية اعتُبر تحدياً للإدارة الفرنسية التي أرست سياستها على فرنسة البلاد.

● **صحيفة المتقد:** ظهرت سنة 1922م في مدينة (قسنطينة) كواحدة من الصحف التي صدرت في ذلك الوقت محاولة تقديم رؤية أخرى للرأي العام، إلى أن أوقفتها إدارة (فرنسا).

⁽¹⁾ ينظر فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث. دار الشروق، ط3، عمان، 1988، ص 416.

⁽²⁾ مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 51.

نبي"

- **جريدة الشؤون العامة لقسنطينة:** هي إحدى الجرائد التي تهتم خاصة بما يجري بـ (قسنطينة).
- **صحيفة الإقدام:** كانت تفضح دسائس الاستعمار وسوء استغلال السلطة، كما كان لها دور كبير في تفتح وعي "مالك بن نبي" على أشكال معاناة الفلاح الجزائري.⁽¹⁾
- **مجلة الشهاب:** كان يصدرها الشيخ "عبد الحميد بن باديس" في مطبعة الشهاب بـ (قسنطينة) وبشأنها يقول "مالك بن نبي": «توقفت بقسنطينة قبل أن آخذ سيارة إلى تبسة، لقد أردت أن ألتقي الشيخ "ابن باديس" خاصة، فمجلة الشهاب قد جدّدت في نفسي خلال إقامتي في (أفلو) الأفكار التي كنت أروجها في مقهى (ابن يمينة) والمدرسة».⁽²⁾
- **جريدة صدى الصحراء:** يصدرها الشيخ "محمد الأمين العمودي" في مدينة (بسكرة)، وهو عضو مؤسس وفاعل في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كانت تعمل إلى جانب (مجلة الشهاب) على إيصال صوت المجتمع الجزائري إلى كافة أنحاء العالم، كما كانت تزيد من الوعي الجماهيري، وكانت تطبع في مطبعة (بوشنال) في شارع (ابن شريف).⁽³⁾
- **جريدة الإصلاح:** أسسها الشيخ "الطيب العقبي"، كانت تصدر من خلال تبرعات المواطنين، وكان "الطيب العقبي" يبين من خلالها ما للصحافة من أدوار مختلفة في تكوين الفرد والمجتمع وتشكيل الرأي العام، كما يبين ما تكون عليه من وطنية وإيثار للمصلحة العامة وخدمة المجتمع والرقى به نحو الكمال المنشود.⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ينظر يوسف حسين: نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث، ص (47_49).

⁽²⁾ مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 93.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص (106/105).

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ص 105.

نبي"

- **جريدة العصر الجديد:** وهي جريدة تونسية، كانت تمدّ "مالك بن نبي" بأخبار العالم الإسلامي.⁽¹⁾
- **جريدة الأمة:** هي لسان حال حزب "شمال إفريقيا" والناطقة باسمه، تولى تأسيسها شباب جزائري يقطن بالمهجر.
- **جريدة الأمة العربية:** أشرف عليها "شكيب أرسلان" من (جنيف)، حيث كان لاجئاً يواصل صراعه البطولي دون أن يكلّ أو يملّ، وكانت تصل أعدادها إلى (الجزائر)، حيث كان "مالك بن نبي" يقرؤها.⁽²⁾
- **جريدة اتحاد النواب:** التي نشر فيها "فرحات عباس" مقاله: (أنا فرنسا) الذي وصفه "حمودة بن الساعي" بالنجاسة- وهو يلوح بالجريدة على الرصيف- والذي رد عليه "مالك بن نبي" في (مجلة جذرية الدفاع) لصاحبها "الأمين العمودي" بمقال عنوانه (مثقّفون أم مثيقيون؟).⁽³⁾
- **جريدة البرلمان:** تصدر عن "الهيئة المركزية لحزب الشعب" تعبيرا عن مطالبهم.
- **جريدة الحزب الحر الدستوري:** جريدة تونسية ناطقة باللغة العربية.
- **جريدة الشباب المسلم:** صدرت بـ (الجزائر العاصمة)، واختفت بعد الحرب العالمية الثانية.⁽⁴⁾
- **جريدة المغرب:** أسسها الطلبة المراكشيون.⁽⁵⁾
- **جريدة الدفاع:** يصدرها "الأمين العمودي" بالعاصمة.
- **مجلة الإسلام الفتية:** صدرت بـ (الجزائر العاصمة)، واختفت بعد الحرب العالمية الثانية.

(1) المصدر نفسه، ص 189.

(2) المصدر نفسه، ص 189.

(3) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 360.

(4) ينظر يوسف حسين: نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث، ص 49.

(5) ينظر مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 253.

نبي"

- صحيفة صدى الحرّاكتة: أنشئت في (أم البواقي) تحت إشراف "حشاني رمضان".⁽¹⁾
 - جريدة الصوت الأهلي: كان يصدرها شخص يدعى "الزّناطي".⁽²⁾
 - مجلة المعلمين الجزائريين: جريدة جزائرية تصل حتى (باريس) رفقة بعض الجرائد الأخرى فيقرؤها "مالك بن نبي".⁽³⁾
- وغيرها كثير، تجاوزت كلها نطاق المتعة والمطالعة إلى المساهمة الفاعلة في تشكيل فكره وتحديد اتجاهه وتغذية الجانب القيمي والأخلاقي فيه، كما ساعدته على تكوين صورة واضحة عن طبيعة التفاعلات الاجتماعية، وعلى معرفة الأسس التي يسير وفقها المجتمع.

ب/ المؤثرات من القراءات الغربية.

شغف "مالك بن نبي" بالفكر الغربي الذي تعرّف عليه خلال إقامته في (باريس) _ قلب الحضارة الغربية _ فانكب على اقتناء كتب التراث الفكري الغربي، وحرص على قراءة آخر إصداراته الأدبية التي كان لها إسهام فعال في صياغة شخصيته وتشكيل قناعاته، ولعل ما زاده قربا من الثقافة الغربية، إتقانه للغة الفرنسية وإدراكه لأهمية هذا التراث الفكري الغربي، خصوصا وأنه يعود ل (حضارة) بسطت نفوذها وسيطرتها على العالم في جميع مجالات عصرنا هذا.

ومن الكتب التي مارست تأثيرها عليه:

كتب "جيل فيرن" "Jules Verne"، بعض مؤلفات "بيير لوتي" "Pierre Loti" و"كلود فارير" "Claude Varrere" مثل (LAzyade)، فاقدات السعادة (Les des

⁽¹⁾ المرجع نفسه، ص 309.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 300.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص 106.

(enchantees)، (الرجل الذي اغتال) (L'homme qui Assassina)، كما قرأ كتاب "أندريه جيد" المعنون بـ (الغذاء والأرض) وكتاب "أوجين يونغ" "Eugene Yong" المعنون بـ (الإسلام بين الحوت والدب) (L'islam entre la Baleine et Lours).⁽¹⁾

نذكر أيضا: سلسلة (أسرة باريدان Baradaillans) لـ "ميشال زيفاكو"، رواية "ألكسندر دوماس" "Dumas" حول (الكونت دومنت كريستو Conte De Monte Cristo)، رائعة "لامارتين" (البحيرة)، قصة (التلميذ Le Discipline) لـ "بيار بورجي" الذي أخرجه من عالم الأوهام والسذاجة.⁽²⁾

كما كان لبعض الصحف الفرنسية أثرها البالغ على فكر "مالك بن نبي" وشخصه منها:

- **صحيفة الإنسانية (L'humanité):** التي نبهته إلى الوضع الاستعماري في أشبع صورته، وهي صحيفة ذات اتجاه شيوعي، كان "مالك بن نبي" يقرأها من أجل تغذية مداركه السياسية ومعرفة الآراء السياسية التي كانت رائجة في ذلك الوقت، وقد قال بشأنها: « تحمل إليّ غضبائها ومهدئاتها، وكانت تتأر لي من ذلك الوضع الذي سوف نسميه النظام الاستعماري الذي عُبْنَا ضده في تلك الفترة من غير أن نشعر بتلك القوة التي انصبت فيما بعد في الاتجاه الإصلاحية والتيار الوطني». ⁽³⁾

- **صحيفة الكفاح الاجتماعي (La lutte Sociale):** يصدرها "فيكتور سبولمان spulmun victor"، كانت تصلنا إلى (الجزائر) بصورة متقطعة.⁽⁴⁾

- **صحيفة باريس سوار:** صحيفة مسائية تصدر في (باريس).⁽¹⁾

⁽¹⁾ ينظر رايح لونيسي: رجال لهم تاريخ ونساء لهم تاريخ. دار المعرفة، دط، الجزائر، 2010، ص 214.

⁽²⁾ ينظر مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 66.

⁽³⁾ ينظر مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 93.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ص 189.

نبي"

ونظرا لتأثره بالثقافة الغربية، نلاحظ أن أغلب مؤلفاته وكتبه تزخر بعناوين غربية كثيرة ومصطلحات أجنبية عديدة، وكذا بقراءات نقدية لنظريات غربية في المجالات الإنسانية والاجتماعية والنفسية.

المطلب الثالث: المؤثرات الفكرية.

هي جملة من المذاهب الفلسفية والتيارات الفكرية التي طبعت فكر "مالك بن نبي" وأكسبته خصوصية، ودفعت به إلى توجهات محددة أبرزها التيار الإصلاحية_الذي سبق لنا الحديث عنه_ والتيار البراغماتي بزعامة الفيلسوف "جون ديوي John Dewey" الذي أُعجب "مالك بن نبي" بكتابه (كيف نفكر؟).

كما تأثر بالتيار أو الاتجاه الماركسي الذي كان له دور كبير في تشكيل ثقافته الاجتماعية وتطبيعها.

هذا، وتأثر بالفلسفة الغربية وبكبار الفلاسفة والمفكرين الغربيين الذين تركوا بصماتهم واضحة في الثقافة الإنسانية، وخلفوا رصيذا تراثيا لا يزال التاريخ يحفظه ولا تزال مكتبات العالم تزخر به، ومن بين هؤلاء "نيتشه" الذي أُعجب "مالك بن نبي" بكتابه (هكذا تكلم زرادشت) وتأثر به، كما تأثر بـ "سينوزا" و"كانط" في فكرة الواجب والحق التي أصبحت فيما بعد قاعدته الأساسية في الفلسفة الاجتماعية والتربوية.⁽²⁾

(1) المصدر نفسه، ص 309.

(2) ينظر جويده جاري: المشكلة الفلسفية والإيديولوجية في فكر مالك بن نبي. (رسالة ماجستير)، جامعة الجزائر، معهد الفلسفة، 1997/1996م، ص (95/94).

المبحث الثالث: مؤلفات "مالك بن نبي".

صحيح أننا فقدنا "مالكا بن نبي" شخصا، لكن فكره لا يزال _وسيقى_ حيا نابضا في قلب كل من عرف قدره، راسخا في ذاكرة كل من تشبع بثقافته وتشرب من نبع أفكاره، ما دام قد خلف إنتاجا أدبيا غزيرا يتسم بالدقة والمنهجية والجدلية في الطرح، وتراثا فكريا طالما عدّ فريدا ومتميزا في مجال تصوير مشكلات العالم الحضارية وتحسيد العراقيين التي تعوق المجتمع الإسلامي المعاصر وتحول دون إقلاعه الحضاري، من خلال السعي إلى رسم خطة علمية ووضع أسس وقواعد يتكئ عليها العالم الثالث ليتمكن من الخروج من التخلف ويحاول الالتحاق بركب الأمم المتحضرة، وهنا

نبي"

يكمن السر وراء اختيار "مالك بن نبي" لـ (مشكلات الحضارة) كعنوان جامع يحتوي جلّ أعماله -أو يضمّها- التي دارت حول مواضيع رئيسة وهي: مشكلة الثقافة، مشكلة الإيديولوجيا، مشكلة التغيير (النهضة، الإصلاح والثورة)، مشكلة الأفكار والصراع الفكري والتنمية الاقتصادية ووحدة العالم الإسلامي ودور المسلم في العالم⁽¹⁾، فضلا عن مشكلة (الحضارة) التي شغلت باله و تفكيره طوال مسيرة عطائه الفكري، و هذا ما أكدّه الدكتور "عمار طالبي" بقوله: «ولم يُؤرق المغفور له "مالك بن نبي" معنى من المعاني ولا أضناه مشكل من المشاكل، ولا شدَّ عقله معقول من المعقولات أو ظاهرة من الظواهر، مثلما جذبته إليها مشكلة الحضارة وضّمّه إليه معنى التاريخ ودلالته الإنسانية».⁽²⁾

من جهته، أشار الدكتور "محمد العبدّة" إلى ذلك بقوله: «ظهرت أكثر كتب "ابن نبي" تحت عنوان (مشكلات الحضارة)؛ ذلك أنه يعتبر أن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يحل مشكلته ما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارة أو تهدمها، والمسلم اليوم لا يعيش حالة حضارة وإنما هو من بقايا حضارة، فالمجتمع الإسلامي ظل خارج التاريخ دهرًا طويلاً، وهو الآن ينشد النهضة، ولكنه مصاب بأمراض اجتماعية وفكرية، ومضى أكثر من نصف قرن والأطباء يعالجون أعراض المرض وليس المرض».⁽³⁾

لقد كانت بداية حوض "مالك بن نبي" غمار الكتابة والتأليف - كما سبق وأشرنا - باللغة الفرنسية، وبين أسوار السجون الألمانية التي خطّ بين جدرانها قصاصات كتابه (الظاهرة القرآنية) الذي يعدّ أول مؤلفاته وباكورة أعماله التي أبصرت النور عام 1946م بـ (فرنسا)، ليزيد بعدها شغفه بالكتابة ونهمه للتأليف بعد أن توسعت مداركه وتنوّعت مشاريعه الثقافية والعلمية، وبعد أن زاد

⁽¹⁾ ينظر محمد عبادة: نصوص مختارة من مؤلفات مالك بن نبي. مؤسسة عالم الأفكار للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الحمديّة (الجزائر)، 2007، ص 5.

⁽²⁾ عمار طالبي: "مالك بن نبي". المجلة الثقافية، وزارة الثقافة والإعلام، ع 18، جانفي 1973، ص (10/9).

⁽³⁾ محمد العبدّة: مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاح، ص 101.

نبي"

احتكاكه بمشكلات العالم الإسلامي، وبعد أن كثُر تعاطيه مع (الحضارة الغربية) التي تركت بصماتها واضحة على طريقة تفكيره.

وإذا ما أمعنا النظر في تراث "مالك بن نبي"، لوجدناه يتوزع بين كتب ومقالات وبين محاضرات ودفاتر، منها المقروءة المخطوطة ومنها السمعية البصرية، منها ما كُتِب في حياته ومنها ما صدر بعد وفاته، منها ما بقي مفقودا لحد الساعة ومنها ما لم يترجم بعد.

صدرت بعض كتبه باللغة العربية، وصدر بعضها الآخر بالفرنسية حيث تولّى المتأثرون بفكره وطلبته من بعده ترجمتها إلى العربية بناء على طلب "مالك بن نبي" نفسه، فقد ترك وصية للدكتور "عمر كامل مسقاوي" يحمله فيها المسؤولية الكاملة لترجمة كتبه الصادرة بالفرنسية إلى العربية، ولطبع الكتب الصادرة بالعربية والتي لم يتسنّ له طبعا في حياته.

أما الدفاتر، فقد صدرت بعد إذن من أسرة "مالك بن نبي" وتكلفت "نور الدين بوكروح" بطبعها، وكثير من المقالات الصحفية والمحاضرات تولّى "عمر بن عيسى" و"عبد الرحمن بن عمارة" جمعها ونشرها، أما الأشرطة السمعية فأغلبها محفوظة لدى الأستاذ "عبد القادر حميتو".⁽¹⁾

وسنحاول في سطورنا الموالية تقديم تعريف بسيط بمؤلفات "مالك بن نبي".

المطلب الأول: المؤلفات الصادرة بـ(فرنسا).

1 / الظاهرة القرآنية Le phénomène Coranique:

يُعَدّ هذا الكتاب باكورة نتاج "مالك بن نبي"، ويذكر دائما في مقدمة مؤلفاته التي صدرت بالفرنسية أثناء إقامته بـ (فرنسا) عام 1946م مباشرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.⁽¹⁾

⁽¹⁾ ينظر محمد سعيد مولاي: "محطات في حياة مالك بن نبي". موقع "ابن نبي" الإلكتروني، تمّ تصفح الموقع بتاريخ 2014/06/15م. www.malek bennabi.com.

نبي"

تولّى ترجمته إلى العربية "عبد الصبور شاهين"، في حين وضع مقدمته كل من "محمود محمد شاكر" و"عبد الله درّاز".

الكتاب من الحجم الصغير، يتكون من ثلاثة أبواب تربعت على 382 صفحة⁽²⁾، عالج فيها المؤلف قضايا جوهرية تتعلق بموضوع إعجاز القرآن، الذي سعى من خلاله إلى تبيان أهمية الظاهرة القرآنية وإلى توضيح الفرق بين المذهب المادي وبين المذهب الغيبي، كما سعى إلى بيان الخصائص العامة للقرآن الكريم من الناحية التاريخية والعلمية والغيبية التي تجاوزت طاقة البشر والتي أثبتت معجزة القرآن وألوهية مصدره⁽³⁾؛ فهو وحي منزل من السماء على قلب الرسول (صلى الله عليه وسلم)، والحديث هنا عن الرسول يقودنا عفويا إلى الحديث عن مفهوم النبوة وأصول الإسلام، وكذا عن ظاهرة الوحي التي أفرد لها "مالك بن نبي" فصولا من كتابه.

ختم المؤلف كتابه بباب (مواقف قرآنية)، الذي وضّح فيه كيف استطاع القرآن بمنطق التدرج أن يجرّم أم الخبائث، في حين فشلت (الولايات المتحدة الأمريكية) في الثلاثينيات من القرن العشرين من منعه على الرغم من الوسائل المعتمدة لتحقيق غرضها هذا.⁽⁴⁾

2/ رواية لبّيك Lebbik:

(1) ينظر الطيب بن إبراهيم: مواقف وأفكار مشتركة بين مالك بن نبي وابن خلدون، ص 39.
(2) ينظر مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية. تر (عبد الصبور شاهين)، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط4، 1987م.
(3) ينظر محمد البشير مغلي: "السنة الإلهية في تحليلية مالك بن نبي ومنهجية المفسرين". مجلة رؤى (دراسات مالك بن نبي والمشروع الحضاري)، ع 20، 2003م، ص 32.
(4) ينظر محمد البشير مغلي: "السنة الإلهية في تحليلية مالك بن نبي ومنهجية المفسرين". ص 32.

يتلو هذه الباكورة في تاريخ الصدور تجربته الروائية الوحيدة (لبيك) التي صدرت سنة 1947م باللغة الفرنسية، وهي عبارة عن تجربة روحية أشبه ما تكون بمناجاة صوفية، تتحدث عن سكير مسلم يتوب ويذهب إلى الحجّ.

3/ شروط النهضة *Les conditions de renaissance*:

أبصر هذا الكتاب الموسوم بحجر الزاوية ضمن مؤلفات "مالك بن نبي" النور لأول مرة سنة 1948 باللغة الفرنسية، وتكفل بترجمته إلى العربية كلٌّ من "عمر كامل مسقاوي" و"عبد الصبور شاهين"، وصدرت طبعته الأولى بالعربية سنة 1957م بـ (القاهرة).⁽¹⁾

يشتمل الكتاب على 156 صفحة ضمت مقدمة وباين خصصهما صاحبهما للحديث عن التاريخ و(الحضارة) وحركتهما وما يتصل بهما من مركبات كالدين والأخلاق و(الثقافة)، وتحليل (الحضارة) إلى عناصرها الأساسية وهي: (الإنسان)، (التراب)، (الزمن)، لدى تحليله للعنصر الأوّل تحدث عن فكرة التوجيه (توجيه الثقافة، التوجيه الأخلاقي والجمالي، توجيه العمل ورأس المال)، وعند تحليله للعنصر الثاني بيّن أنّ نقطة الانطلاق في كل إصلاح اجتماعي هي توفير القوت والملبس، وتحدث عن محاربة زحف الصحراء، وعند تحليله للعنصر الأخير بيّن أنّنا في حاجة ملحّة إلى توقيت دقيق وخطوات واسعة نعوض بها تأخرنا.⁽²⁾

4/ وجهة العالم الإسلامي *Vocation de L'islam*

⁽¹⁾ ينظر محمد سيد بركة: "مالك بن نبي". مجلة الوعي الإسلامي، ع 278، الكويت، أكتوبر 1987م، ص 104.

⁽²⁾ ينظر: مالك بن نبي: شروط النهضة.

نبي"

يلي كتاب (شروط النهضة) من حيث الأهمية في المنظومة الفكرية، كتاب (وجهة العالم الإسلامي) الصادر بـ (باريس) سنة اندلاع الثورة التحريرية 1954م، نقله إلى العربية "عبد الصبور شاهين"، والكتاب يحتوي على ستة فصول توسطت مقدمة خطها الدكتور "محمد المبارك" وخاتمة.⁽¹⁾

حاول المؤلف من خلال فصول كتابه، وعلى مدار مائتي صفحة، تناول قضية فوضى العالم الإسلامي والبحث في أزماته ومشكلاته منذ ظهور الإسلام، كما تطرق إلى الإشارة إلى المراحل التي مرّ بها المجتمع الإسلامي والتي جعلها ثلاث مراحل، فأما أولها، فهي مرحلة الإسلام الأولى في دفعته الإيمانية الحيّة والتي تعدّ أقوى المراحل في حيويتها وقوتها الدافعة وخصبها، وأما ثانيها، فهي مرحلة المدنية الإسلامية التي تعتبر مرحلة التفكير والازدهار الحضاري الذي ينتهي بسقوط دولة الموحدين، وأما ثالثها، فهي مرحلة الجمود والانحطاط التي يُعنيها "مالك بن نبي" عناية كبيرة؛ كونها المرحلة التي لا نزال ولا يزال العالم الإسلامي ـ نعيش تحت رواسبها وآثارها والمرحلة التي تمثل في نظره (القابلية للاستعمار).⁽²⁾

المطلب الثاني: المؤلفات الصادرة بـ (مصر):

من أهم كتب "مالك بن نبي" التي أصدرها وهو مقيم بـ (مصر):

1/ الفكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ: صدر سنة 1956م، ترجمه إلى العربية "عبد الصبور شاهين".

يعتبر هذا الكتاب صدى لمؤتمر (باندونغ) المنعقد سنة 1955م، الذي جمع فعاليات العالم

⁽¹⁾ ينظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي. تر (هبد الصبور شاهين)، دار الفكر المعاصر، دط، بيروت، لبنان، 1981م.

⁽²⁾ المصدر نفسه.

الثالث في محاولة لرسم طريق جديد خارج كتلتنا الشرقية والغربية، والذي يعدّ مرآة عاكسة لقصة كتلة الشعوب المتحضرة الساكنة لـ (أوروبا) و(أمريكا) وكتلة الشعوب المستعمرة التي تسكن (إفريقيا) و(آسيا).

والكتاب في حقيقة أمره يقع في 272 صفحة ضمت ثلاثة أجزاء وفصول هي: (الرجل الأفروآسيوي في عالم الكبار)، يتطرق فيه إلى أبناء المستعمرات وإلى التعايش وإلى مشكلة الرجل الأفروآسيوي، (بناء الفكرة الأفروآسيوية)، يتطرق فيه إلى (الحضارة) و(الثقافة) والاقتصاد الأفروآسيوي وإلى الكتلة العربية الآسيوية، (رسالة الفكرة الأفروآسيوية)، يتطرق فيه إلى فكرة التعايش والعالمية.⁽¹⁾

2/ مشكلة الثقافة: يعتبر كتابه (مشكلة الثقافة) الصادر سنة 1957م تكملة وتوسيعا لما جاء في كتاب (شروط النهضة) من تحليل لـ (الثقافة) بصفاتها أسلوب الحياة في مجتمع معين من جهة، والسلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع من جهة أخرى.

والكتاب يتضمن خمسة فصول موزعة على 152 صفحة استأثرت كلها بموضوع (الثقافة) من حيث: تحليلها النفسي، تركيبها النفسي، تعايشها، عالميتها، ما ضد (الثقافة).⁽²⁾

3/ النجدة: الشعب الجزائري يباد: وهو عبارة عن كتيب صغير، صدر سنة 1957م، ووجه إلى الرأي العام العالمي، حاول من خلاله "مالك بن نبي" الجهر بآرائه لإنقاذ الشعب الجزائري ولكشف جرائم الإبادة التي سُلطت عليه من طرف المستعمر الغاشم.

4/ حديث في البناء الجديد: صدر سنة 1960م، وهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات ألقاها

⁽¹⁾ ينظر مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر بانديونغ. تر (عبد الصبور شاهين)، دار الفكر، ط3، دمشق، 2001م.

⁽²⁾ ينظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة. تر (عبد الصبور شاهين)، دار الوعي للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013م.

نبي"

في (سوريا) و(لبنان)، وأعاد إلقاءها في (مصر).⁽¹⁾

5/ الاستعمار يلجأ إلى الاغتيال بوسائل العلم: صدر سنة 1960م.

6/ الصعوبات كعلامات نمو في المجتمع العربي: صدر سنة 1960م.⁽²⁾

7/ الصراع الفكري في البلاد المستعمرة: صدر سنة 1960م، وهو أول محاولة للمؤلف للكتابة باللغة العربية.

والكتاب يشتمل على 152 صفحة حوت ستة فصول كانت خير شاهد على الصراع الذي تجرّع "مالك بن نبي" مرارته طيلة حياته، حاول من خلالها صاحبها إزاحة الستار عن صور السيطرة والغزو المنتهك من طرف البلدان الاستعمارية ضد البلدان المستعمرة التي تبقى تابعة لها فكريا وثقافيا واقتصاديا.

هذا، وقد اعتمد "مالك بن نبي" في طرحه لقضية (الاستعمار) على المنهج النفسي التحليلي، وما كان ذلك إلا ليتمكن من التعمق في دراسة نفسية هذا المستعمر، وليقدم دراسة تشريحية لسلوكياته، وليصف تأثيره على الإنسان المستعمر ومن ثم على البلاد المستعمرة.

كما أفرد صفحات من كتابه للحديث عن حياة الأفكار وقيمتها الرياضية؛ حيث وضح كيفية تأثير المحيط على الفكرة وعلى أشكال الصراع الفكري ودرجة قوّته.⁽³⁾

7/ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي: صدر سنة 1960م، نقله إلى العربية كل من الدكتورين

"بسام بركة" و"أحمد شعبو".

(1) ينظر عبد اللطيف عبادة: نصوص مختارة من مؤلفات مالك بن نبي، ص 10.

(2) المصدر نفسه، ص 10.

(3) ينظر مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. دار الفكر، دط، دمشق، 1985م.

نبي"

يشتمل الكتاب على سبعة عشر فصلا موزعا على 182 صفحة، ويدور حول فكرة محورية مفادها أنّ مشكلة العالم الإسلامي إنّما هي مشكلة أفكار: (الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعية، جدلية العالم الثقافي، جدلية الفكرة والشيء وصراع الفكرة، الوثن وأصالة الأفكار وفعاليتها، علاقة الأفكار بحركية المجتمع والاطّراد الثوري والسياسة وازدواجية اللغة، الأفكار الميتة والأفكار المميّنة، انتقام الأفكار المخدولة).⁽¹⁾

8/ فكرة كنمويلث إسلامي: صدر سنة 1958م، وأعيد طبعه سنة 1971 م ب (الجزائر).

هو كتيب صغير يقع في 94 صفحة ويتضمن مقدمة وثلاثة فصول: (مشروع دراسة شاملة، قيمة الفكرة في المجتمع الإسلامي، وظيفة كنمويلث إسلامي)، هذه الفصول تدور حول فكرة مفادها أنّ الكنمويلث الإسلامي ضرورة تاريخية تدعو الشعوب الإسلامية للعودة إلى حلبة التاريخ في صورة (حضارة) لا إمبراطورية، ويدعو إلى ضرورة خلق نظام أخلاقي وإشعاع روعي لمواجهة الأزمة الاجتماعية داخل العالم الإسلامي.⁽²⁾

9/ تأملات: صدر هذا الكتاب على مرحلتين وفي قسمين: القسم الأول سنة 1960 تحت عنوان (حديث في البناء الجديد)، والقسم الثاني سنة 1961م تحت عنوان (تأملات في المجتمع العربي) ليعمد من بعد ذلك صاحبه إلى جمع القسمين في كتاب واحد يضم 239 صفحة ويحمل عنوان (تأملات)، ذلك أنّ "مالك بن نبي" أراد أن يعطي تأملاته شمولاً يتلاءم مع نطاقها؛ فهو إذا تحدّث عن المجتمع العربي، فإنما يسعى إلى عرض ما يعيش تحت وطأته هذا المجتمع - ومعه مجتمعات العالم المتخلف كلها - من عوائق وصعوبات نفسية يعمد إلى تسميتها بـ (أمراض المجتمع)، مثل

عقدة النقص وإلقاء المسؤولية على الغير، علاوة على الخلل في عالم الأفكار الناتج عن سوء تحديد

⁽¹⁾ ينظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي الحديث. دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دم، 1969م.

⁽²⁾ ينظر مالك بن نبي: فكرة كنمويلث إسلامي. دار الفكر، دط، دمشق، 1990م.

نبي"

المفاهيم أو عن عدم ربط هذه الأفكار بالطرق الصحيحة.

وإذا ما تحدّث عن البناء الجديد، فإنما يبرّر الحاجة إلى (حضارة) تُخْرِج العالم المتخلف من قوقعة الأمراض النفسية التي قبع فيها طويلاً، وتدفع به إلى النمو والنهوض والحركة و المشاركة في مسيرة العالم التي يدخل في نطاقها المجتمع العربي والإسلامي.⁽¹⁾

10/ ميلاد مجتمع: صدر عام 1960م، ترجمه إلى العربية "عبد الصبور شاهين"، وهو كتاب صغير يقع في 95 صفحة حاول من خلالها "مالك بن نبي" تقديم دراسة تشمل المفاهيم النظرية التي ترجع إليها العناصر التاريخية الخاصة بـ (ميلاد مجتمع ما).⁽²⁾

11/ في مهب المعركة: عبارة عن 26مقالة كتبها "مالك بن نبي" في (باريس) نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات، وبعد لجوئه إلى (القاهرة) بدا له أن يترجمها وينشرها باللغة العربية، فاختار لها اسم (في مهب المعركة) باعتبارها إرهاباً للثورة الجزائرية وتسويغاً لدوافعها.

و الكتاب يتكون من أربعة فصول شغلت 172 صفحة وهي: (الاستعمار تحت المجهر) (في وحل السياسة)، (في الحقل الاجتماعي)، (في حديقة الثقافة).

في كتابه، فرّق "مالك بن نبي" بين (مركب التبعية) وبين (القابلية للاستعمار) لدى شعب معين، وشرح الفوضى الاستعمارية التي تتجلى في تعامل المستعمر مع المستعمر القاصر - باعتبارها حامياً له- وفي استهدافه للمفاهيم القانونية والقيم الأخلاقية التي تقوم عليها علاقات الشعوب والأفراد بخلفية دينية حاكمة على الإسلام.

من جهة أخرى، دلّت محاضرات ومقالات "مالك بن نبي" هذه على بعد نظره في مجال

⁽¹⁾ ينظر مالك بن نبي: تأملات. دار الفكر، دط، دمشق، 2002م.

⁽²⁾ ينظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع. تر (عبد الصبور شاهين)، دار الفكر، دط، دمشق، 1985م.

نبي"

الإصلاحات الضرورية في تعمير الأرض وإعادة الكرامة للمرأة المسلمة، مُنّبها إلى الفارق بين التهور وبين التطور.⁽¹⁾

المطلب الثالث: المؤلفات الصادرة بـ (الجزائر).

1/ آفاق جزائرية: صدر سنة 1964م، وهو عبارة عن ثلاث محاضرات ألقاها صاحبها في (الجزائر) و(قسنطينة) وجمعها تحت عنوان (آفاق جزائرية)، والمحاضرات هي: مشكلة الحضارة، مشكلة الثقافة، مشكلة المفهومية (الإيديولوجيا)، والواقع أنّ المحاضرتين الأولى والثانية تكملان ما جاء في كتابي (شروط النهضة) و(مشكلة الثقافة) من أفكار وتطبيقاته على الواقع الجزائري المعيش، أما المحاضرة الأخيرة، فهي تكملة وتوسعة للأفكار المتعلقة بالإيديولوجيا والواردة في كتاب (تأملات) ومحاولة لتطبيقها على المجتمع الجزائري.

2/ مذكرات شاهد القرن: وهو كتاب يتكون من 454 صفحة ويشتمل على جزئين: الجزء الأول عنوانه "مالك بن نبي" بـ (الطفل)، صدر سنة 1965م وتولى مهمة ترجمته إلى اللغة العربية الدكتور "مروان القنواني"، أما الجزء الآخر فعنوانه بـ (الطالب)، صدر سنة 1970م وترجمه إلى العربية "مالك بن نبي" نفسه.

والكتاب في حقيقة أمره، عبارة عن مذكرات خطّ فيها "مالك بن نبي" يوميات حياته بكل تفاصيلها، بدءا من يوم ميلاده ووصولاً على حياته الدراسية والعلمية وعودته إلى أرض (الجزائر) بعد استرجاع السيادة، حيث عرضها بطريقة مشوقة وبأسلوب راق يشد القارئ ويدفعه إلى اكتشاف أسرار وخبايا شخصية فذة مثل "مالك بن نبي".⁽²⁾

⁽¹⁾ ينظر مالك بن نبي: في مهب المعركة. دار الفكر، ط3، دمشق، 1981م.

⁽²⁾ ينظر مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن.

ول (مذكرات) شاهد القرن جزء آخر عُنون بـ (الأستاذ)، إلا أن قصاصاته لم تُجمع مع باقي الكتاب ولا تزال مفقودة لحدّ الساعة.

3/ إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث: صدر سنة 1967م، والكتيب في أصله عبارة عن محاضرة ألقاها "رشيد بن عيسى" في (ألمانيا) نيابة عن "مالك بن نبي" في مؤتمر الطلبة المسلمين في (أوروبا) سنة 1966م، وخصصها للحديث عن موضوع واحد وهو الكتاب المستشرقون وعلاقتهم بالفكر الإسلامي وبالحضارة الإسلامية وتأثيرهم على الإنسان المسلم المعاصر.⁽¹⁾

4/ المسلم في عالم الاقتصاد: صدر سنة 1972م، وضعه "مالك بن نبي" في الفترة الأخيرة من حياته بعد عودته إلى أرض (الجزائر) واستقراره بها، وهو عبارة عن عصارة رأيه حول معضلة من معضلات البشرية.

والهدف من كتابه هذا، ليس وضع وتقديم نظرية متكاملة حول الاقتصاد الإسلامي فحسب، وإنما محاولة لتخليص الفكر الإسلامي من العقد التي تستولي على اجتهاداته في مجال الاقتصاد، وفكّ للقيود التي وضعتها أفكار أجنبية على اجتهادات المسلمين في هذا المجال، ودعوة إلى ضرورة التحرّر من التبعية المذهبية في إطار الاقتصاد للغرب، سواء من النظرية الاشتراكية أو النظرية الرأسمالية، ليس من منطلق تعصبي أم مذهبي و إنما من منظور علمي اجتماعي خالص؛ فأبي نظرية اقتصادية تأخذ العامل الاجتماعي بعين الاعتبار.⁽²⁾

⁽¹⁾ ينظر مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث. دار الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دم، 1969م.

⁽²⁾ ينظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد. دار الفكر، ط3، دمشق، 1987م.

نبي"

5/ دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين: صدر سنة 1977م، يتضمن هذا الكتاب محاضرتين ألقاهما "مالك بن نبي" باللغة العربية في (دمشق) برابطة الحقوقيين سنة 1972 م، المحاضرة الأولى عنونها بـ (دور المسلم)، والثانية حملت عنوان (رسالة مسلم)، تحدّث فيهما عن ضرورة ارتقاء المسلم إلى الحضارة وإلى مستوى الإسلام، وعن ضرورة اقتناعه به وإقناع الآخرين بتجسيده.⁽¹⁾

6/ بين الرشاد والتهيه: صدر سنة 1978م، وهو مجموعة من المقالات (26 مقالا)، نشر "مالك بن نبي" بعضها في جريدة الثورة الإفريقية- اللسان المركزي لحزب جبهة التحرير الوطني- ونشر بعضها الآخر في جريدة المجاهد.

الكتاب في حقيقة أمره، يعدّ مرآة عاكسة لأحداث الستينات في (الجزائر)- كما في العالم العربي والإسلامي- ولمشاكل العالم الثالث بعد الاستقلال السياسي، لذلك سلّط عليها "ابن نبي" أضواء كاشفة تبرز أبعادها وتنبير طريق الكفاح من أجل القضاء على هذه المشاكل.⁽²⁾

7/ مجالس دمشق: هو حصيلة مجموعة من المحاضرات ألقاها في (دمشق) بالعربية بعد زيارته لها رفقة عائلته سنة 1972م، حاول من خلالها الإجابة على بعض التساؤلات والأفكار المتعلقة بـ: الحضارة ودورها، الثقافة، الثورة والقابلية للاستعمار، دور الشباب في العودة بالأمة إلى استئناف دورها الحضاري.⁽³⁾

⁽¹⁾ ينظر مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين. تر (عمر كامل مسقاوي)، عالم الفكر، ط1، دمشق، دس.

⁽²⁾ ينظر مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه. دار الفكر، ط2، دمشق، 1998م.

⁽³⁾ ينظر مالك بن نبي: مجالس دمشق. دار الفكر، ط1، دمشق، 2006.

8/ القضايا الكبرى: صدر هذا الكتاب بادئ ذي بدءٍ باللغة الفرنسية تحت عنوان (les grandes thèmes)، صدرت طبعته الأولى باللغة الفرنسية سنة 1976 على أيدي بعض تلاميذ "مالك بن نبي" ب (الجزائر)، و قد احتوى على خمس محاضرات، ثلاثٌ منها صدرت في كتاب مستقل وباللغة الفرنسية (آفاق جزائرية: للحضارة، للثقافة، للمفهومية)، حيث قام "الطيب شريف" بترجمته إلى اللغة العربية، أمّا المحاضرتان الأخرى فإن، فقد صدرت أولاهما بعنوان (الديمقراطية في الإسلام) ضمن كتاب (تأملات)، وصدرت ثانيهما ككتاب مستقل تحت

عنوان (إنتاج المستشرقين و أثره في الفكر الإسلامي الحديث).⁽¹⁾

المطلب الرابع: الآثار غير المطبوعة، المخطوطات، التسجيلات.

ل "مالك بن نبي" كتب أخرى غير منشورة، منها ما هو مخطوط بيده ومنها ما هو مسجل ومنها ما يزال مفقودا، نذكر منها:⁽²⁾

- خطاب مفتوح لخروتشوف وإيزنهاور.
- دولة مجتمع إسلامي.
- مذكرات شاهد القرن _ الجزء الثالث _ (الأستاذ).
- نموذج لمنهج ثوري.
- العلاقات الاجتماعية وأثر الدين فيها.
- المشكلة اليهودية.
- العفن.

(1) ينظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى. دار الفكر، ط1، دمشق، 1991م.

(2) ينظر زكي الميلاد: "مالك بن نبي ومشكلات الحضارة". مجلة الفيصل، ع 196، دار الفيصل الثقافية، أفريل 1993، ص

نبي"

- اليهودية أم النصرانية.
- دراسة حول النصرانية.
- مجالس الفكر (محاضرات كان يلقيها بمنزله غداة الاستقلال، منها ما سجل بالعربية ومنها ما كان بالفرنسية).

هذا فضلا عن العديد من الرسائل والكتابات التي لم تنشر، والتي تغطّي جزءا كبيرا من مداخلاته في الكثير من الندوات والملتقيات العربية والإسلامية والأوروبية.

تعقيب:

- بعد هذا العرض الموجز لأبرز مؤلفات المفكر "مالك بن نبي"، يتضح لنا جلياّ مستواه الثقافي، ويتجلى عطاؤه الفكري العميق، وتبدو لنا حقائق أمكننا إجمالها في النقاط التالية:
- اهتمام المفكر في كتاباته يركز على قضية جوهرية وهي إشكالية (الحضارة) والطرح الفكري المتجدد للعالم العربي والإسلامي.
 - نحوه إلى الثقافة الموسوعية المتعددة المشارب والاتجاهات.
 - مما يؤخذ على كتبه ومؤلفاته، بعض التكرار الملموس في المضامين وإن اختلفت العناوين والمفردات.

مع هذا، فكتبه تلك تمثل مشروعاً فكرياً وحضارياً ضخماً للإحاطة بـ (الثقافة) وتأصيلها وأسلمتها، والعمل على تعميمها، والحرص على بسط مقوماتها لتمسّ جل الحضارات، لا بل كلّها؛ كتب جعلت صاحبها يعتلي عرش الإبداع والتمكن، وجعلت اسمه يخط بحروف من ذهب، وجعلت ذكره راسخة للأبد؛ كتب كانت غرامتها جهداً كبيراً وسنواتٍ مريرةً ووقتها نفيساً قضاه

نبي"

صاحبه متنقلا ما بين البلدان التي كانت شاهدة على رحلة إبداعه، مبحرا بين ثنايا وصفحات أمهات الكتب التي كانت ملهمه ومرجعه.

أما أفكاره تلك، فتتسم بالسيرورة والامتداد عبر الأزمنة، وإن دلّ ذلك على شيء، فإنما يدلّ على معايشة الرجل لوقائع الحياة وسننها، وعلى نظرتة الثاقبة المشرفة على المستقبل والمتطلعة إليه، والواعية لجوانب صعود الحضارات الإنسانية وسقوطها.

وعلى ضوء هذه الدراسة، نستطيع أن نكشف عن أهداف تلك الحقائق المترامية في كتبه ومؤلفاته، ويمكن أن نقول أن الأستاذ "مالك بن نبي" كان يخطط لمشروع كبير يمثل بديلا حضاريا عن أطروحات الحضارة الغربية، ويقوم مشروعه هذا على:

- دراسة (الحضارتين العربية والغربية) والسعي إلى محاولة الفهم الدقيق لروحيهما واستيعاب أسسهما الفكرية، ولعلّ قرب "مالك بن نبي" منهما، هو ما مكّنه من الصّمود في وجه (الحضارة الغربية)، فلم يجرفه تيارها الذي جرف كثيرا من مثقفي العالم الإسلامي.
- الحثّ على ضرورة الاطلاع على تاريخ الغرب الديني والسياسي والاقتصادي والثقافي، لأنّ دراسة أصول الفكر الديني في الغرب تعود بفوائد كثيرة على الفكر الإسلامي.
- العمل على نقل المجتمع المسلم من حالة الخمول والضعف والغفلة إلى اليقظة الفكرية.
- إبراز الخصوصية التي يتمتّع بها الإسلام في نظمه ومفاهيمه وفي نظرتة للكون والإنسان.

المبحث الرابع: "مالك بن نبي" وفاته، وأقوال العلماء فيه. المطلب الأول: وفاته.

انتقل إلى جوار ربه المفكر "مالك بن نبي"، في يوم الأربعاء الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر، سنة ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف للميلاد (1973م)، الموافق للربيع شوال من عام ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف للهجرة (1393هـ)، عن عمر يناهز الثامنة والستين، خلفا وراءه تراثا فكريا هائلا بدأ يدخل الجامعات الإسلامية والغربية ليُدْرَسَ ويحلَّلَ ويرسم نسقا في تفكير الإنسانية.⁽¹⁾

أولا: ظروف الوفاة.

كان رحمه الله وغفر له _ مصابا بمرض سرطان البروستاتا، وقد اشتد عليه المرض أثناء رحلته الأخيرة إلى مدينة (الأغواط) أين ألقى بعض المحاضرات، ومن بينها محاضراته الموسومة

⁽¹⁾ ينظر قاسم أحمد الشيخ بلحاج: النظرية الحضارية عند المفكر مالك بن نبي. دار الجاحظية، دم، دط، 1998م، ص 13.

نبي"

ب (دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين) التي سبق له أن ألقاها في (دمشق)، والتي كانت آخر ما باح به هذا المفكر الفذ الذي أبي أن يغادر الحياة قبل أن يبلغ رسالته الأخيرة للجيل الذي أراد له أن يبقى على شعلة الإسلام والفكر الإسلامي _ التي أنارها طويلاً _ مضاءً، وقيل أن يحمل الأمانة ويؤديها لبقاع العالم كلها.⁽¹⁾

ثانياً: الدفن.

بعد اشتداد المرض عليه، سافر "مالك بن نبي" إلى (فرنسا) طلباً للعلاج، وهناك أُجريت له عملية جراحية لم يكتب لها النجاح، ولأنه أبي ألا يفترش إلا أرض (الجزائر) وألاً يتلحف إلا ترابها، فقد أصرّ على العودة إلى وطنه، ليتوقّاه الله بعدها بحوالي ثمانية أيام بعد أن عجزت نفسه وروحه الكبيرة عن احتواء جسمه الهزيل الضعيف الذي نخرته العلل ولم تُبق فيه شيئاً، فدُفن بمقبرة (سيدي محمد) ب(بيلكور)، وهكذا يكون قد ودّع الحياة وفارقها للأبد.

وبوداعه، نكون _ وتكون لأمة الإسلامية جمعاء _ قد طوينا صفحة حياة مفكر مبدع وعلم بارز وعبقريّة فذة وشخصية مرموقة؛ شخصية سارت على خطى الأوائل في الدعوة إلى الإسلام والمسلمين ووهبت حياتها للدفاع عن وعيها المستنير وقلمها المسترسل وفكرها الثاقب الذي تجاوز حدود الوطنية إلى مصاف العالمية، في وقت كانت تسعى فيه الجهات المنافية إلى ردعه وصدّه بشتى السبل والوسائل.

لقد كان _ بحق _ موسوعة فكرية وشعلة مضيئة ومنازة من منارات هذه الأمة التي تهتدي بها البشرية جمعاء.

المطلب الثاني: آراء المفكرين والعلماء فيه.

⁽¹⁾ ينظر محمد العبدية: مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي، ص 44.

نبي"

بعد مسيرة طويلة من العطاء، سكن ذلك القلب الذي طالما كان حب الدين يسري في شرايينه وجفّ حبر ذلك اليراع الذي استمات في سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين، صممت تلك الشفاه التي طالما جهرت بكلمة الحق وخفتت تلك النفس التي تشرّبت بروح (الثقافة الإسلامية).

لذا، فإنه لمن الواجب أن يستحقّ منّا "مالك بن نبي" أكثر من وقفة وأزيد من التفاتة، وإنّه لمن باب العرفان بالجميل أن تظل ذكره راسخة في قلب كل من عرف قدره، عالقة في ذاكرة كل من تتلمذ على كتبه أو نهل من نبع أفكاره أو آمن بقضيته.

لقد سال حبر الكثير من الأقلام و جهرت أصوات العديد من العلماء والمفكرين والمتقنين ممن عاصروا "مالك بن نبي" أو جاؤوا بعده، من بعد اطلاعهم على آرائه ومواقفه وأفكاره الواسعة.

مما قيل في ذكرى وفاته، ما أورده الدكتور "محمد صلاح الدين المستاوي" في مقاله المنشور بموقع (شخصيات ومؤلفات) الإلكتروني: «انطفأت روح "مالك بن نبي"، ذلك الخادم العنود لقضية الشعوب الإسلامية، لقد مات بعد أن جعل من الفعالية تصورا محوريا لتفكيره، ولا ننكت له العهد اليوم بالبكاء على فقدانه، إن الطريقة المثلى لإحياء ذكره هي نشر أفكاره»⁽¹⁾.

قال فيه الدكتور "يوسف بلمهدي": « (...) أحد رادة النهضة وراضة الفكر وساسة القلم، هذا العلم الفدّ المغمور في بلده، المشهور في غيره، الذي إذا كتب سُمع لصبره أقلامه دويّ في عالم الفكر، وإذا أقام ندوة غلّقت أفكاره عقدا على جيد الحضارة الفاتنة، وإذا وُضعت مؤلفاته في ميزان البحث البشري رُجّحت كما ترجّح الجبال الوزينة، وإذا طاف بمخيلته في آفاق الفكر الإنساني

⁽¹⁾ ينظر محمد صلاح الدين المستاوي: "بمناسبة مرور أربعين سنة على وفاته: مالك بن نبي رجل الرسالة". موقع شخصيات ومؤلفات الإلكتروني، 21 نوفمبر 2013م، تمّ تصفح الموقع يوم 2015/02/15.

نبي"

طاف تطواف السحب الثقال الوزينة (...)، فكان حقا في سماء الخلد نجما وعلى الأرض بهجة وزينة». (1)

أما الأستاذ "فوزي الحسن" الذي جمعتة علاقة وطيدة بـ "مالك بن نبي" استمرت لسنوات عديدة فقد أفاد بقوله: « كان ذا ثقافة واسعة، يجيد الحوار والرّد على رسائله بشكل مقنع شاف، حتى أنه يستطيع تحديد اختصاص السائل العلمي لمجرد توجيه الأسئلة حول أيّ موضوع، كان ينشر كتبه لغرض إيصال فكره، ولذلك فهي تباع بسعر زهيد مما يوقعه بعجز يسدّه من جيبه». (2)

أورد الشيخ "محمد عبد الله درّاز": «لسنا هنا أمام مجموعة مواعظ ترمي إلى حشو الذاكرات ولكننا أمام نموذج حيّ لنقاش جدلي، تكمن أهميته الحيوية في حفز الطاقة الفكرية لكلّ قارئ قادر على التفكير المنهجي، حتى يطرح كل واحد بدوره مشكلة حقيقية و يبحث بمفرده عن الموقف الذي يقفه من هذا النقاش». (3)

وصرّح الدكتور "مصطفى السباعي" بقوله: «الأستاذ "مالك" جزائري الأصل، مجاهد في سبيل القضية الجزائرية بقلمه ولسانه جهادا يعرف له فضلّه فيه زعماء حركة التحرير الجزائرية منذ نشوئها، ويتميز الأستاذ "مالك بن نبي" في جميع مؤلفاته بعمق التفكير ومنطقيته وواقعيته وقوة أسلوبه في الدفاع عن الأفكار التي يتبناها (...). وقد استطاع "مالك" بأسلوبه الذي تفرّد به وثقافته

(1) ينظر يوسف بلمهدي: "في ذكرى وفاة مالك بن نبي رحمه الله _دعوة على قبر مالك_". جريدة الحوار الجزائري، 2011/02/07م، (الأنترنيت).

(2) ينظر بشير ضيف الله: فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي. منشورات المجلس الأعلى، ط1، الجزائر، 2005م، ص 5.

(3) ينظر عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة في فكر مالك بن نبي. دار الشهاب، ط1، باتنة، 1984، ص 37.

نبي"

العربية الواسعة مع ثقافته العربية الإسلامية، أن يُوجّه إليه أنظار جيل من شبابنا المثقف الذي يتوق إلى الإصلاح مع احتفاظه بقوة العقيدة وسلامة التفكير»⁽¹⁾.

لقد كان الدكتور "أنور الجندي" من أشدّ المعجبين بأفكار "مالك بن نبي" ومن أكثر المتأثرين بوفاته، فله عدّة مقولات نوّه فيها بفكره الموسوعي وبطريقته المبتكرة في عرض القضايا الإسلامية والفكرية وتحليلها، فضلا عن الكلمات التأبينية التي كان يقولها _والحزن يعتصر قلبه_ في كل ذكرى وفاة لـ "مالك بن نبي"، وكمثال عما قاله: «لبي نداء ربه العلامة الجليل "مالك بن نبي" في أوائل شهر (شوال 1393 هـ / نوفمبر 1973 م)، عن عمر لم يتجاوز الستين إلا قليلا، بعد أن ترك ثروة وافرة من الفكر المتجدد الذي نشره باللغة الفرنسية ثم تُرجم إلى اللغة العربية، وقد أتيح له في السنوات الأخيرة أن يكتب بلغة الضاد وأن يُلقى بها أبحاثه في مؤتمرات القاهرة ومكة وطرابلس الغرب والجزائر (...)، ومثل "مالك بن نبي" بين مفكري العالم الإسلامي قليل؛ فهو الرجل الذي وردَ موردَ الغرب وجاءنا منه نقيا صافيا، وقد حفظ الله له أصالته، وأفاد مّا وجد نصاعةً فكرٍ وُبعدَ نظرٍ وعمقٍ فهمٍ وقدرةً على كشف تلك التحديات والشبهات والأوضاع التي عمد التغريب والغزو الثقافي على نصب شباكها لتدمير الفكر الإسلامي وإثارة

أجواء الاضطراب والتخلخل بين جوانبه»⁽²⁾.

وقال فيه أيضا: «"مالك بن نبي" يختلف كثيرا عن الدعاة والمفكرين والكُتّاب؛ فهو فيلسوف أصيل له طابع العالم الاجتماعي الدقيق، الذي أتاحت له ثقافته العربية والفرنسية أن يجمع بين علم

(1) ينظر بشير ضيف الله: فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، ص 26.

(2) ينظر أنور الجندي: "فقد الإسلام العلامة مالك بن نبي". مجلة الوعي الإسلامي (مجلة إسلامية ثقافية شهرية)، ع 108، الكويت، ديسمبر 1973، ص 72.

نبي"

العرب وفكرهم المستمدّ من القرآن والسنة والفلسفة والتراث العربي الإسلامي الضخم وبين علم الغرب وفكرهم المستمد من تراث اليونان والرومان والمسيحية».⁽¹⁾

أما "محمد الميلي"، فقد نوّه بالقيمة التي حظيت بها كتابات "مالك بن نبي" وإشعاعات فكره وخلاصات تجاربه ذات البعد الحضاري الإصلاحي في أوضاع معيشية صعبة تتسم بالاستعمار والهوان والذل: « (...) يستخلص "مالك بن نبي" في كتاباته أنّ خلاص العالم الإسلامي يتمثل في تطويع الغرب لروح الإسلام، فقد كان فكر "مالك بن نبي" مدعوا لأن يلعب دورا معتبرا بعد الاستقلال، لكن هذا الدور كان محدودا بفعل عاملين، الأوّل هو نظريته عن قابلية الاستعمار التي استغلها أعداؤه ضده عندما جعلوها نوعا من التبرير، والثاني هو الظرف الخاص الذي عرفته الجزائر بعد عام 1962م، والذي قبلت فيه إجراءات التجديد وكذلك إجراءات التقليد للغرب وأنماطه الحياتية، مما صرف النظر عن هضم عصارة الحضارة الغربية والاستفادة منها إلى أقصى حد».⁽²⁾

هذا، وقد عبّر الدكتور "محمد المبارك" عن إعجابه بشخصية هذا المفكر الفذّ الكبير رمز

المرحلة الجديدة _مرحلة التحرر من التبعية الفكرية للاستعمار- بقوله في المقدمة التي خطّها لكتاب (وجهة العالم الإسلامي) لـ "مالك بن نبي": « (...) مفكر كبير احتل بسرعة فائقة مكانه اللائق

في طليعة العالم العربي والعالم الإسلامي وبرز بسلسلة من المؤلفات جعلته رمزا لهذه المرحلة الجديدة التي بدأها- مرحلة التحرر الفكري و التحرر من الاستعمار والنفوذ الفكري- (...)، إنّ "مالكا" يبدو لا مفكرا كبيرا وصاحب نظرة فلسفية في الحضارة فحسب، بل داعيا مؤمنا يجمع بين نظرية الفيلسوف المفكر وحماسة الداعية المؤمن وقوة شعوره، وقلّ ما استطاع كاتب مفكر أن يجمع _ كما

⁽¹⁾ ينظر بشير ضيف الله: فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، ص 28.

⁽²⁾ المرجع نفسه، ص 28.

نبي"

جمع_ بين عمق النظر والبحث وقوة الإحساس والشعور، وأنا لا أقول "ابن نبي" ولكنني أقول أنه ينهل من نفحات النبوة وينابيع الحقيقة الخالدة».⁽¹⁾

ويضيف قائلاً: «إنّه عربي مسلم (...)، كان تعمقه في الثقافة الأوروبية سبباً في تحرره من نفوذها ومعرفته لمصادرها ولدوافعها الخفية وبواعثها العميقة، ولا سيما أنّه جمع إلى جانب الثقافة العلمية ثقافة فلسفية واجتماعية واسعة الأرجاء عميقة الأغوار كما تدل عليه آثاره ومؤلفاته العديدة التي قرأناها (...). لقد تجمّعت في قلبه ونفسه، في عاطفته وشعوره، في عقله وتفكيره، مآسي أولئك الملايين من البشر الذين يعيشون على أرض الجزائر ضحايا لمدينة القرن العشرين (...). لقد كان "مالك" رغم غربته الدائمة خليفة حقيقية لما يعيشه الجزائريّ والجزائر -الوطن الأم- باعتبارها جزءاً من أمة كاملة تعاني ما تعاني، وبالتالي فإن ارتباطه بها ارتباط قوي، عبّر عنه كل الذين عرفوه وأبرزوا شعور هذا المفكر الفذ اتجاه وطنه».⁽²⁾

أما زميله الدكتور "عبد العزيز الخالدي" الذي كان أعرف الناس به وبدقة نقده وصرامة منطقته، فقد أتاحت له الفرصة _من خلال المقدمة التي وضعها لكتاب (شروط النهضة)_ لإبراز جوانب من شخصيته وفكره، هذه الجوانب قد تخفى على كل من لم يسعفه الحظ في الاقتراب من "مالك بن نبي" والاحتكاك به والاستفادة من آرائه والأخذ من موسوعة فكره: «و"ابن نبي" في الواقع ليس كاتباً محترفاً أو عاملاً في مكتب مكبّاً على أشياء خامدة من الورق والكلمات، ولكنه رجل شعر في حياته الخاصة بمعنى الإنسان في صورته الخلقية والاجتماعية، وتلك هي المأساة التي شعر بها "ابن نبي" بكل ما فيها من شدة وبكل ما صادف في تجاربه الشخصية النادرة من قساوة

⁽¹⁾ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 13.

⁽²⁾ ينظر بشير ضيف الله: فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، ص 28.

نبي"

(...)، وكونه مهندساً قد ساعده دون شك في التصوير الفني للأشياء، ولكن ثقافته المزدوجة تسمح له بأن يصل هذا التصور بالخطة الإنسانية⁽¹⁾.

إذا ما عرجنا إلى مقدمة كتاب (في مهب المعركة) لـ "مالك بن نبي"، فإننا نجد الأستاذ الكبير "محمود محمد شاكر" يعبرُ بكل صدق وموضوعية عن رأيه في (ثقافة) "مالك بن نبي" وفكره: «لعلّي لا أبالغ إذا ما قلت: إنّ هذه المجموعة من مقالات أخي الأستاذ "مالك بن نبي" هي عندي أنفس ما كتب، لأنها تكشف لنا عن ذكر رجل خبير في فكر الأمور ساعة بعد ساعة، فإذا نحن نرى أنفسنا في ضوء ما كتب قديماً كأننا نتقدم خطوة في فهم البلاء الذي ينزل بنا، ولا يزال ينزل، فهذا المفكر الخبير يفتح عيوننا على الخيوط التي تنسج منها حياتنا تحت ظلام دامس قد أطلقه المستعمر ليخفي عنّا مكره وخداعه لنا»⁽²⁾.

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص (8_10).

⁽²⁾ مالك بن نبي: في مهب المعركة، ص (11/10).

استنتاجات:

تطرقنا في هذا الفصل إلى نقاط رئيسية تمحورت حول الأطر العامة والظروف التي أحاطت بحياة "مالك بن نبي"، والتي كان لها تأثير كبير في صياغة وبلورة أفكاره.

ولما كانت دراسة أي شخصية منفردة دون التلقت إلى الواقع الذي عاشت فيه وإلى الشخصيات الفكرية والدعوية التي كان ارتباطه بها وثيقا ضربا من المستحيل، فقد شكلت الوقائع الاجتماعية والأسرية والثقافية والسياسية محاور كبرى في مسيرة "مالك بن نبي".

فالمحطات الاجتماعية التي عايشها في (الجزائر)، والظروف السياسية التي أحاطت به، وعلاقاته مع المجتمع الفرنسي، واتصالاته بأصدقائه ومعلميه وأساتذته عربا وغربيين، وإطلاعه على أمهات الكتب في العديد من العلوم والفنون، والفضاءات الإعلامية المتاحة أمامه، ورحلاته المتعددة، أسهمت بشكل فعال في بناء فكره واهتماماته وتوجهاته التي نتج عنها تأليفه وإصداره لكتب وإصدارات تجاوزت الخمسة عشر كتابا، فضلا عن محاوراته ولقاءاته ومقالاته ومحاضراته التي تعتبر بلا منازع إضافة قيّمة لرفوف مكتبات الفكر والأدب.

الفصل الأول:

"مالك بن نبي" وفكرة الثقافة.

تمهيد.

المبحث الأول: تعريف الثقافة.

تمهيد.

المطلب الأول: المدلول اللغوي للثقافة.

أولاً: في الفكر الغربي.

ثانياً: في الفكر العربي.

المطلب الثاني: المدلول الاصطلاحي للثقافة.

أولاً: في الفكر الغربي.

ثانياً: في الفكر العربي.

المبحث الثاني: تعريف الثقافة عند "مالك بن نبي".

المطلب الأول: منهج "مالك بن نبي" في طرح مشكلة الثقافة.

المطلب الثاني: مفهوم الثقافة عند "مالك بن نبي".

المبحث الثالث: الأسس الثقافية عند "مالك بن نبي".

المطلب الأول: التوجيه الأخلاقي.

المطلب الثاني: التوجيه الجمالي.

المطلب الثالث: المنطق العملي.

المطلب الرابع: الصناعة الفنية (الفن التطبيقي).

استنتاجات.

كثيرة هي المصطلحات المعاصرة التي أصبحت جزءًا من لغتنا اليومية بمختلف طبقاتنا العلمية، ومع ذلك قلّ من تجده يحمل للمصطلح الذي يعبر به دلالة واضحة تحدّده وتميّز مدلوله عن سواه من المصطلحات التي باتت تكتسح الساحة الأدبية والثقافية بفيض من المفاهيم والدلالات التي كثيرا ما تتداخل مع بعضها البعض، ومن أبرز الأمثلة على هذا، مصطلح (الثقافة) الذي كثيرا ما يتداخل مع مصطلحات أخرى كـ (الحضارة)، حتى أضحيّ جلّ الباحثين والدارسين والمهتمين باللغة يخلطون بينها ويستعملونها في نطاق واحد وكدلالة واحدة، جهلا منهم بمعانيها العميقة ودون مراعاة لمنطق اللغة.

هذا التداخل بين المفاهيم والمصطلحات هو ما دفع بنا إلى ضرورة الوقوف عندها، لتحديد ماهيتها ولوضع محددات استعمالها وللإحاطة بأطرها العامة، خصوصا مع التطورات والتغيرات التي يشهدها العالم في ظل القرن الذي نعيشه — ويهمنّا العالم العربي الإسلامي على وجه الخصوص — والتي طالت جلّ الميادين على رأسها اللغة العربية التي عرفت هي الأخرى تطورات مسّت مصطلحاتها ومفاهيمها.

في ظل هذا وفي خضمّ حديثنا عن (الثقافة)، باتت أسئلة كثيرة تفرض نفسها بقوة على الفكر العربي الإسلامي منها:

ما المقصود بـ (الثقافة) على وجه العموم؟ ماذا يعني "مالك بن نبي" بـ (الثقافة) على وجه الخصوص باعتباره أهم المنظرين لها؟ ما هي الأسس والخطوط العريضة التي توفق عندها "مالك بن نبي" في معالجته لموضوع (الثقافة)؟ وما السبيل لبناء نظرية في (الثقافة)؟.

هذه التساؤلات كلّها سنحاول معالجتها على مدار هذا الفصل.

المبحث الأول: مفهوم الثقافة عند "مالك بن نبي".

لما كان "مالك بن نبي" ينطلق في مناقشته لمختلف القضايا والمواضيع التي تعوق تفكيره من تحديد المفاهيم؛ إذ بوضوحها ينجلي ويزول الكثير من الغموض واللبس والخلط الذي يمكن أن يعتري الباحث، فإننا سنحاول اتباع الطريقة نفسها التي اتبعها "مالك بن نبي"، فإذا كان علينا أن نستعرض مفهومه لـ (الثقافة)، فإنه حريّ بنا أن نتوقف قبل ذلك عند مفهومها عموماً.

لما كان الحديث عن (الثقافة) ودورها في النهوض بالمجتمع قد كثر، ولما كانت سبل ومناهج الاهتمام بها قد تعددت، فإن الضرورة تحتم علينا استعراض مفهومها عند الغرب.

لكن، وانطلاقاً من كون الكتابة عند "مالك بن نبي" في الموضوع تتصل بالبيئة العربية الاجتماعية بالدرجة الأولى—أو لنقل نظراً لكون ثقافته قد زاوجت بين البيئتين العربية والغربية— فإن مفهومها في لغته وتراثه العربي يأخذ أهميته، كونه يقربنا من فهم أي تحديد يقدمه "مالك بن نبي" لهذا المفهوم.

المطلب الأول: المدلول اللغوي لـ "الثقافة".

أولاً: في الفكر الغربي.

تعددت دلالات كلمة (الثقافة) في اللغة اللاتينية واللغات المنحدرة عنها كالإنجليزية والألمانية والفرنسية.. إلخ، وخلاصة مفهومها:

استخدم لفظ (culture) للدلالة على معنى (الثقافة)، وهي مأخوذة عن اللاتينية (cultura) من الفعل (colere) بمعنى (حراث) أو (نمى)، أي بمعنى: العناية الموكولة للحقل

والماشية، وذلك للإشارة إلى قسمة الأرض المحروثة⁽¹⁾، وقد كانت دلالة الأصل اللاتيني طول العصور القديمة والوسطى مقصورة على تنمية الأرض ومحصولاتها، تلك الدلالة التي نعثر عليها في المصطلح (Agriculture) المأخوذ من اللسان الفرنسي، هذا الأخير الذي استحدث للفظه مدلولاً آخر وهو: (الطقوس الدينية) نسبة إلى الجذر اللغوي (cult) الذي يعني (العبادة والدين) وهذه الدلالة نفسها نعثر عليها في الأدب اللاتيني المسيحي بمعنى (التهذيب الرباني) أي (culturadei).⁽²⁾

في أوائل العصور الحديثة بدأت كلمة (culture) تتحرّر من قيود الدلالات المجازية لتدخل مضمار المدلولات العقلية، فعمد الفلاسفة إلى تطبيق المناهج العلمية في دراسة المسائل الإنسانية، وأفردوا حقلاً خاصاً للعمليات المتعلقة بالثقافة ومفهومها الذي استُخدم للدلالة على تنمية العقل وغرسه بالذوق والفهم، كما استُخدم فيما يبذله الإنسان من عمل لغاية تطويرية سواء أكانت مادية أو معنوية؛ أي ما يمكن الاصطلاح عليه بـ (فلاحة الإنسان).⁽³⁾

في أواخر (القرن 17م) تطور مدلول اللفظة في اللسانين الفرنسي والانجليزي بإضافة متمّمات لمصطلح (culture) للدلالة على الشيء المراد تنميته، مثل (La culture de blé) ومثلها في الإنجليزية (culture Arts).⁽⁴⁾

لَمَّا كان (القرن 18م)، أخذ الكُتّاب الفرنسيون كـ "فولتير" وأقرانه يطلقون اللفظة

⁽¹⁾ ينظر دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية. تر (منير السعيداني)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2007، ص 17.

⁽²⁾ ينظر لويس دوللو: الثقافة الفردية وثقافة الجمهور. تر (عادل العواد)، سلسلة زدي علماء، دار عويدات للنشر، دط، بيروت، 1982، ص 21.

⁽³⁾ ينظر عبد الله عيسى لحيلح: محاضرة بعنوان (مفهوم الثقافة الشعبية). مقياس الثقافة الشعبية، السنة الأولى ماجستير، تخصص (نقد ودراسات ثقافية)، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة جيجل، 2013/01/17م.

⁽⁴⁾ ينظر دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ص 18.

إجمالاً دون إضافة أية متمامات، وانتهت إلى استعمالها منفردة للدلالة على تكوين الفكر وتربيته، وانتقلت حصيلة هذه العملية إلى المكاسب العقلية والأدبية والذوقية التي نعبر عنها في العربية بلفظ (الثقافة).⁽¹⁾

في أواخر القرن 18م انتقلت اللفظة من الفرنسية إلى الألمانية بشكل (cultur) ثم (kultur)، وانتقل معها معناها الأخير؛ أي الإنماء العقلي والأدبي.

بجمل القول: كلمة (culture) في اللغات الأجنبية تخرج للدلالة على معنيين: تنمية الأرض، تنمية الفكر.

ثانياً: في الفكر العربي.

وردت لفظة (ثقافة) في التراث العربي في عدّة مواضع واستعملت بعدّة دلالات، ومن معانيها:

أ/ المهارة والحدق:

ورد في (لسان العرب) لـ "ابن منظور": « تَقَفَ الشَّيْءُ تَقْفًا وَتَقَافًا وَتُقُوفَةً: حَدَقَهُ وَرَجَلَ تَقْفًا وَتَقْفًا وَتَقْفًا: حَادِقٌ وَفَهْمٌ »⁽²⁾.

وأورد "الراغب الأصفهاني" في (معجم مفردات ألفاظ القرآن): « التَّقْفُ: الحدقُ في إدراك الشيء وفعله، ويقال: تَقَفْتِ كَذَا إِذَا أَدْرَكْتَهُ بِبَصْرِكَ لِحَدَقِ فِي النَّظْرِ ».⁽³⁾

ب/ الفطنة والذكاء وسرعة التعلم:

⁽¹⁾ ينظر قسطنطين زريق: في معركة الحضارة _دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها في الواقع الحضاري_. دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1981م، ص 33.

⁽²⁾ ابن منظور: لسان العرب. المجلد التاسع، دار صادر، ط1، بيروت، 1995، مادة (تقف)

⁽³⁾ الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم. تح (نديم مرعشلي)، دار الكتاب العربي، دط، دم، 1972، مادة(تقف).

جاء في (لسان العرب): « تَقَفُ الشيء هو سُرْعَةُ التَّعَلُّمِ، غلامٌ لَقِينٌ تَقِفٌ ذو فِطْنَةٍ ودِكاءٍ، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يُحتاجُ إليه». (1)

وجاء في (العين) للـ "الخليل بن أحمد الفراهيدي": « الثَّقَفُ مصدرُ الثَّقَافَةِ، وفعله (تَقَفَ) إذا لَزِمَ، وتَقَفْتُ الشيءَ، وهو سرعة التعلُّمِ». (2)

ولعل هاتين الدالتين تقودنا إلى القول بدور (الثقافة) في تنمية القدرات الذهنية كالتعلم والإدراك، للارتقاء بالفكر وتطويره ودفعه إلى تنمية القدرات السلوكية كالتمييز والاختيار، وهذا لا يتأتى إلا بالفطنة والذكاء والحدق والمهارة التي تُعدّ أساس التعلّات كلّها.

ج/ التهذيب وتقويم الاعوجاج:

جاء في (الوسيط) لمجمع اللغة العربية: «أقام المعوّج منه وسوّاهُ، وتَقَفَ الإنسان: أدبته وهذّبه وعلمه». (3)

وفي (تاج العروس) للـ "الزبيدي": « الثَّقَفُ ما تسوّى به الرِّمَّاحُ، وهي حديدة تكون مع القوّاس، والرِّمَّاحُ يُتَوَمُّ بها الشيء المعوّج»، وقال "أبو حنيفة": « الثَّقَافُ خشبة قوية قدر الذراع، في طرفها خرقٌ يتسع للقوس، وتُدخل فيه على شحوبتها، ويغمزُ منها حيث يبتغى أن يغمز». (4)

ولعل هذا المعنى يعدّ أقوى الدلالات وأصدق المعاني في التعبير عن (الثقافة) ومدلولها؛ ذلك أنّها (الثقافة) وقبل إصلاحها للفكر تهدف إلى تهذيبها للنفس، وإذا كانت (الثقافة) في شقّها المادي

(1) ابن منظور: لسان العرب، مادة (تقف).

(2) الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين. مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 2004، مادة (تقف).

(3) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط. ج2، إشراف (حسن علي عطية وآخرون)، مطابع دار المعارف، ط2، مصر، 1973م، مادة (تقف).

(4) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس. ج 23، تح (عبد الفتاح الحلوي)، مطبعة حكومة الكويت، دط، دم، 1986م، مادة (تقف).

تقويم لاعوجاج الرمح، فهي في شقها المعنوي تقويم لاعوجاج النفس، وتحرير لها من الغرائز والأهواء والشهوات التي تقودها إلى الفجور والطغيان والتي تعوق تنمية الملكات الفطرية والمواهب والطاقات الجوانية، وهذا ما نستشفه من قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)﴾ (الشمس الآيات 7_10).

لفظة الثقافة في القرآن الكريم:

جاءت على ضوء آي القرآن الكريم في معرض الحديث عن الحرب والقتال، وتحدت بمعنى الإدراك والظفر، والمقصود بالإدراك هنا هو الوصول إلى الشيء بالمعنى الحسي والوجودي وليس بالمعنى الذهني.⁽¹⁾

ومن المواضع التي وردت فيها كلمة (الثقافة) في القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة، الآية 191)، وقوله كذلك: ﴿فَإِذَا تَثَقَفْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ (الأنفال، الآية 57) وقوله أيضا: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأُولَئِكَمُ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (النساء، الآية 91)، ﴿إِنْ يَثَقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمُ بِالْأَسْوَى وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ (المتحنة، الآية 2)، ﴿ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَ مَا تُقْفُوا إِلَّا جَبَلٍ مِنَ اللَّهِ وَجَبَلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران، الآية 112)، ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَّلُوا تَقْتِيلًا﴾ (الأحزاب، الآية 61).

يشير "سيد قطب" في معرض تفسيره للآيات الكريمة _ كلٌّ في موضعها _ أنّ معنى (ثقفتموهم) هو (تجدوهم).⁽²⁾

⁽¹⁾ ينظر زكي الميلاد: المسألة الثقافية _ من أجل بناء نظرية في الثقافة _ دار الشاطبية للنشر والتوزيع، ط3، المحمدية (الجزائر)، 2012م، ص 21.

⁽²⁾ ينظر سيد قطب: في ظلال القرآن. المجلد الأول، دار الشروق، دط، دم، 1982م، ص 179.

ولعل أول ما يستوقفنا في هذه الآيات هو الاقتران الحاصل بين دلالة الجذر اللغوي (ث.ق.ف) وبين ميدان الحرب والقتال، هذا الاقتران يمكن تفسيره على ضوء دالتين:

فأما الدلالة الأولى (الذهنية): فهي أن الكلمات والألفاظ المستعملة في مجال الحرب والقتال غالبا ما يراد منها إعطاء معاني مضاعفة الجهد وبذل أقصى الطاقة، وهذا يتناسب ومقتضيات الحرب والقتال، ولما كانت كلمة (الثقافة) في اللغة تخرج إلى معنى الحذق في إدراك الشيء، فإنها على ضوء الآيات الكريمة تخرج إلى معنى الحذق في مضاعفة الجهد والانتباه في إدراك العدو.

وأما الدلالة الثانية (الحسيّة): فهي أنّ (الثّقاف) و(الثّقافة) بكسر الثاء يعني العمل بالسيف، وهو حديدة أو أداة من خشب تُثقف بها الرماح لتستوي وتعتدل.⁽¹⁾

المطلب الثاني: المدلول الاصطلاحي للثقافة.

أولا: في الفكر الغربي.

⁽¹⁾ ينظر زكي الميلاذ: المسألة الثقافية، ص 22.

إذا كان مصطلح (الثقافة) من أكثر المصطلحات تداولاً في عصرنا الحالي، فإن أهم ما يميزه هو تطور مفهومه تطوراً واسعاً ومطرداً، واختلاف التعاريف الموضوعية له والتي تربو على (250) تعريفاً، دون الوصول إلى قول فاصل فيها.

ولهذا سنسلك طريقاً مرسوماً في تعريف (الثقافة)، ساعين من ورائه إلى الوقوف عند آراء بعض المفكرين والعلماء الغربيين _ على اختلاف توجهاتهم _ حول موضوع (الثقافة) ومحاولين نقدها وتقديم الرأي الخاص حولها.

تعريف "إدوارد تايلور" (Edward Burnett Tylor):

عرّفها بقوله: «كلّ مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانيات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في مجتمع».⁽¹⁾

تعريف "كوينسي رايت" (QUINCY WRIGHT):

عرّفها بقوله: « الثقافة هي النمو التراكمي للتقنيات والعادات والمعتقدات لشعب من الشعوب يعيش في حالة الاتصال المستمر بين أفرادها، وينتقل عن طريق الآباء وعبر العمليات التربوية».⁽²⁾

تعريف "ماتيو أرنولد" (MATHEW ARNOLD):

عرّفها بقوله: « الثقافة هي محاولتنا الوصول إلى طريق العلم بأحسن ما في الفكر الإنساني، مما يؤدي إلى رقي البشرية».⁽¹⁾

⁽¹⁾ ينظر مجموعة من الكتاب: نظرية الثقافة. تر (سيد الصاوي)، عالم المعرفة، دط، الكويت، 1997، ص 9.

⁽²⁾ ينظر إبراهيم محمد جواد: "نظرات في الثقافة والمثقف". مجلة البصائر، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، ع 47، ص 57.

تعريف "رالف لنتون" (R.Linton):

عرفها بقوله: «تنظيم للسلوك المكتسب ولنتائج ذلك السلوك، يشترك في مكوناتها الجزئية أفراد مجتمع معين وينتقل عن طريق هؤلاء الأفراد».⁽²⁾

تعريف "منظمة اليونيسكو":

عرفتها في مؤتمرها الخاص بالثقافة بقولها: «الثقافة بمعناها الواسع يمكن أن يُنظر إليها على أنها جميع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تُميّز مجتمعا بعينه أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات».⁽³⁾

تعريف "جون ديوي" (John Dewey):

عرفها بقوله: «الثقافة هي ثمرة التفاعل بين الإنسان وبيئته».⁽⁴⁾

إنّ هذا العرض الموجز والمركّز الذي قدّمناه لبعض التعاريف الغربية للثقافة، رَمينا من ورائه إلى إظهار الاختلاف والائتلاف في المفهوم والتفسير الذي قدمه كل دارس لمفهوم الثقافة انطلاقا من توجهه ورؤيته لهذه الأخيرة، ومن تمّ نحاول استنباط رؤية ومفهوم شامل وجامع لشتات ما قيل حول (الثقافة).

⁽¹⁾ ينظر حبيب مؤنس: الحضارة _دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها_. عالم الفكر، ط2، دم، 1998م، ص 325.

⁽²⁾ R. Linton : le Fondement culturel de la personnalité, paris, 1959, p 33.

⁽³⁾ ينظر صباح محمود جاسم: "مفهوم الثقافة الإسلامية وتحدياتها". مجلة ديالي، كلية العلوم الإسلامية، العراق، ع 44، 2010م، ص 679.

⁽⁴⁾ ينظر حبيب مؤنس: الحضارة، ص 325.

لعل أول ملاحظة نسوقها حول أغلب هذه التعريفات، هو أنها تصب في قالب واحد وتدور دلالة واحدة (مجموع العقائد والأفكار والقيم التي يؤمن بها الفرد، والتي تحدد سلوكه وتتحكم في سير حياته).

وحتى إذا كنا نتفق مع مقولة أن (الثقافة) هي كل ما يجعل الإنسان إنسانا وكل ما يميز فردا عن غيره وشعبا عن سواه، وعلى الرغم من حق الجماعات البشرية في الحفاظ على كيانها والتمسك بأصالتها المستمدة من العادات والتقاليد والمعتقدات وكل ما اصطلاح عليه ب (الثقافة) عند علماء الغرب، فإننا إذا سلّمنا بهذه الفكرة وآمنّا بهذا المبدأ سنصف (الثقافة) بالعمومية ونبعدها عن الحركة والديناميكية ونوقع بها في ضباية الجمود، وهذا ما أغفلته التعريفات المسوقة ل (الثقافة).

و حسب رأينا، فإن التعريف الأخير أقرب إلى التعبير عن (الثقافة) والإحاطة بها؛ ذلك أنه يركز على العلاقة بين (الثقافة) وبين المجتمع من جهة، وبينها وبين البيئة أو المحيط الذي تنمو وتتطور فيه تلك (الثقافة) _ بفعل الإنسان _ من جهة أخرى، وبينها وبين الحركة والنماء والتطور من جهة ثالثة؛ أي أنها تركز على دور تفاعل البيئة بكل تغيراتها في صنع حاضر الإنسان، وكذا التطلع إلى مستقبله، وعلى هذا ينبغي علينا النظر إلى (الثقافة) على أنها قدرة خلاقة وإلى الإنسان على أنه مستمر في الإبداع والزيادة على ما وصل إليه، لا مستهلك لتراثه الثقافي الذي ورثه عن أجداده فحسب.

ثانيا: في الفكر العربي.

رغم أنّ (الثقافة) كلمة عربية أصيلة معروفة عن العرب في عصر ما قبل الإسلام وما بعده ومتداولة في اللسان العربي، إلا أننا نلاحظ وجود مفارقة بين اهتمام الأوروبيين بفكرة (الثقافة) منذ

قرون خلت وبين إنجاز العديد من الكتابات والدراسات الفاعلة للاستفادة من حكمتها وبصيرتها، كما نلاحظ أن هذا الاهتمام ما يزال قائما ومتجددا كما لو أنها من مسائل اليوم الحديثة، أما في مجالنا العربي فإننا نشهد ضعفا وجمودا ومحدودية في مستويات النظر في هذا الشأن.

لذلك دفعت بنا الضرورة إلى حتمية الوقوف على (الثقافة) في نسقها العربي محاولة منا لاستقراء مقومات هذه الأخيرة واستنباط أسسها، وصولا إلى جهود "مالك بن نبي" في النهوض بها والبناء عليها.

وسنعمد هنا إلى إتباع المنهج ذاته المعتمد في مقام حديثنا عن (الثقافة) عند الغرب، على أن نحاول استخلاص حوصلة أو تعريف شامل أقرب إلى الإحاطة بموضوع (الثقافة).

تعريف "زكي نجيب محمود":

يعرفها بقوله: «مجموعة القيم التي توجه الإنسان وتسيّره وتقدّم له المعايير التي يوازن بها بين الأشياء والمواقف ليختار، أو لنفهمها على أنها مجموعة العلوم والمعارف وأحكام العرف والتقليد».⁽¹⁾

تعريف "إبراهيم خورشيد":

يعرفها بقوله: «هي أسلوب الحياة في مجتمع ما بكلّ ما يشمله هذا الأسلوب من تفصيلات لا تحصى من السلوك الإنساني؛ حيث أن الثقافة هي المعبرة عن روح الشعوب وهمومها وتطلعاتها، فهي ليست ترفا فكريا، هي وسيلة وغاية معا، الثقافة الملتزمة بمحوم الوطن والأمة هي ثقافة مبدعة ومتفاعلة مع الثقافات الأخرى في عملية تغيير الواقع المتخلف المفروض على شعبنا الذي يمتلك إرثا ثقافيا غائرا في أعماق التاريخ، موسوما بإرث الحضارة العربية الإسلامية».⁽²⁾

تعريف المجمع اللغوي ب (القاهرة):

⁽¹⁾ زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي. دار الشروق، ط9، دم، 1993م، ص 69.

⁽²⁾ إبراهيم خورشيد: "مفهوم الثقافة". مجلة الفيصل السعودية، ع 20، 1979م، ص 30.

في دراسة قام بها أعضاء المجمع اللغوي العربي، توصلت إلى أنّ (الثقافة) هي: « طريقة حياة تميز كل مجموعة بشرية عن مجموعة أخرى، والثقافة يتم تعليمها ونقلها من جيل إلى آخر، ويُقصد بذلك مجموعة من الأشياء المرتبطة بنخبة ذلك المجتمع أو المتأصلة بين أفراد ذلك المجتمع، ومن ذلك: الموسيقى، الفنون الشعبية، التقاليد المحببة، بحيث تصبح قيما تتوارثها الأجيال، ومثال ذلك الكرم عند العرب والدقة عند الأوروبيين أو رقصات أو مظاهر سلوكية»⁽¹⁾.

من خلال دراستنا وتحليلنا للتعريفات المسوقة لـ (الثقافة) توصلنا إلى تسجيل الملاحظات التالية:

-التعريف الأول: يجمع بين الجانبين المادي والمعنوي لـ (الثقافة).

-التعريف الثاني: يرى أنّ (الثقافة) هي روح الأمة و عنوان هويتها، وأنها الركيزة الأساسية في بناء الأمم والنهوض بها؛ فلكلّ أمة ثقافتها التي تستمد منها عناصرها ومقوماتها وخصائصها، ولكلّ مجتمع ثقافته التي يتسم بها، وهذا فيه صواب.

-التعريف الثالث: يركز على تبيان مميزات وخصائص (الثقافة)، ويربط مفهومها بمفهوم (الثقافة الشعبية).

ولنا ملحوظة حول التعريفات السابقة، وهي أنها جاءت طويلة مفتقدة للاختصار، ومن شروط التعريف الإيجاز.

التعريف المختار للثقافة:

⁽¹⁾ ينظر مجموعة من الدراسيين: "مفهوم الثقافة". موقع Aou-Tnasamples الإلكتروني: www.Aou-Tnasamples.blogspot.com، تم تصفح الموقع يوم: 2014/07/12.

لربما أمكننا على ضوء دراستنا هذه القول _ بعد طول تأمل وتفكير وتدبر _ أن (الثقافة) هي: عصاره النظرة الشمولية للكون والحياة، وهي أساس الوجود الإنساني للفرد والمجتمع الذي يتأثر به ويؤثر فيه.

المبحث الثاني: تعريف الثقافة عند "مالك بن نبي":

المطلب الأول: منهج "مالك بن نبي" في طرح مشكلة الثقافة.

تهدف دراستنا هذه إلى بيان منهج "مالك بن نبي" في تناوله لمشكلات العالم الإسلامي عموماً وفي دراسته لمشكلة (الثقافة) ونظريتها خصوصاً، هذه الأخيرة التي تطرّق إلى عوامل قيامها ووقف على أسسها من وجهة نظره الخاصة.

وسنحاول إجمال أهم مُميّزات وخصائص منهجه على شكل نقاط رئيسية:

أول ملاحظة نسوقها عن فكر "مالك بن نبي" هي تفرّده وتميز منهجه عن جلّ الدارسين والمفكرين في دراستهم لموضوع (الثقافة)، وفي هذا الصدد يقول: « إن المؤلف قد تناول القضية من زاوية جديدة، لأنه كان أثناء دراسته منقاداً بشعور من يبحث عن ضالته، بينما عالم الاجتماع في الغرب - أو حتى في الشرق الأوروبي - يتناول الموضوع وهو ممتلئ بشعوره، وفي الترابط الواضح بين المجموعة والفرد»⁽¹⁾.

فإذا كان غيره يصف واقعا يتمثل فيما كان وفيما هو كائن، (أي فيما يزخر به المحيط

الاجتماعي من وقائع وأحداث كما سبق وتوصلنا في مقام حديثنا عن الثقافة)، ف "مالك بن نبي" يدرس القضية لا كما هي، بل كما يجب أن تكون، أي أنه يتخذ من الواقع اليومي الذي يعيشه منطلقاً لتعريف (الثقافة) والبحث عن أسسها، فيغوص في أعماقها ويبحث في سبل إصلاحها،

(1) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 11.

معتمداً في ذلك على المنهج العقلي التأملي، حيث يقارن بين الشرائح الاجتماعية التي لديها ثقافة متجسدة في سلوكيات أفرادها وبين الفئات المتدنية التي تتجسد ثقافتها في السلوكيات المغايرة لسلوكيات النمط الأول، إنه يعتمد في دراسته على ثنائية (التحليل والتركيب)؛ ذلك أنه يتبع منهجاً تحليلياً يهدف إلى الكشف عن العناصر المكونة لـ (الثقافة) كلاً من أجل فهمها، ثم ينتقل إلى مرحلة البناء الإبداعية من خلال إعادة تركيب هذه العناصر ليصل إلى هدفه المنشود.

وبعبارة أخرى: إن "مالك بن نبي" في دراسته لـ (الثقافة) يسعى إلى الإجابة عن سؤالين: كيف نفهم (الثقافة)؟ وكيف نطبّق (الثقافة)؟⁽¹⁾

كثيراً ما يستفيد "مالك بن نبي" في دراسته من استخدام العرض الجدلي في تحليل الآراء بشكل شمولي، فهو يعرض رأياً ونقيضه ثمّ يقدم رأيه الشخصي، فعلى سبيل المثال، نجد في معرض حديثه عن (الثقافة) يعرّج إلى التطرق لمفهومها عند المدرسة الغربية (الثقافة هي ثمرة الفكر، أي ثمرة الإنسان)⁽²⁾، وعند المدرسة الماركسية (ثمرة المجتمع)⁽³⁾، بعدها ينتقل إلى تحليل المفهومين و البحث عن خط وصل بينهما، فيعرّف (الثقافة) تعريفاً توفيقياً على أنّها: «ثمرة الفرد والمجتمع معا»⁽⁴⁾.

يحظى طرح السؤال في "فكر مالك بن نبي" باهتمام كبير، نظراً لكونه أورده بشكل مكثف ومتكرر أثناء معالجته ومناقشته للقضايا الأساسية في مقالاته؛ إذ لم يكن قصده من استعمال هذا الأسلوب إخبار القارئ بمعلومات جديدة، بقدر ما كان هدفه تنشيط حاسة النقد لديه وقلب صفحة تفكيره على الوجه الآخر، فهو لم يكن مقتنعاً بنمط التفكير الذي يزاوله الإنسان المسلم آنذاك، مما جعله يعيد النظر في كيفية التوجه إليه ومخاطبته، ولعلّ الضرورة القصوى التي دفعته إلى

⁽¹⁾ ينظر زكي الميلاد: المسألة الثقافية، ص 57.

⁽²⁾ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 29.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص 29.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ص 29.

التفكير في بناء مجتمع أفضل، هي التي جعلته يبتكر صيغا تعبيرية ذات قدرة تحليلية وتفسيرية من شأنها إثارة اهتمام القارئ بشكل يلفت الانتباه إلى ما هو ثاو وراء السطور ووراء السؤال.⁽¹⁾

فعلى سبيل المثال، نجده في معرض بحثه عن مسألة (الثقافة) يطرح السؤال التالي: ما هي (الثقافة)؟ لكنه يبادر إلى تقديمه بصيغة يراها أدق وأوضح فيقول: «ليس في مقدورنا اليوم أن نعالج موضوعا كهذا دون أن نجد أنفسنا في حالة التطور الراهنة في العالم العربي— أمام مشكلة لغوية وتاريخية، فمن أين جاءت كلمة (الثقافة)؟ ومتى استخدمت في اللغة العربية؟».⁽²⁾

فهو يعتمد في تحليله لمختلف القضايا والظواهر على تقليد المنهج العلمي الرياضي، ذلك أن لا فرق في نظره بين المركبات القيمة وبين المركبات الكمية، ومن ذلك:

$$\begin{aligned} \text{الحضارة} &= \text{الإنسان} + \text{التراب} + \text{الوقت} \\ \text{المجتمع} &= \text{عالم الأفكار} + \text{عالم الأشخاص} + \text{عالم الأشياء} \end{aligned}$$

لقد كان "مالك بن نبي" قارئاً ذكياً للكثير من العلوم المتوفرة في عصره منها: علم النفس الاستومولوجيا، الفيزياء، الرياضيات، الفلك، علم الأديان، الفلسفة، التاريخ والحضارات، نشوء الأمم والمجتمعات... إلخ، ليتمكن من قراءة الحضارتين العربية والمسيحية.⁽³⁾

⁽¹⁾ ينظر مهدية العياشي أمنوح: "منهج مالك بن نبي" في دراسة الغرب". نقلا عن نور الدين خنديوي، مالك بن نبي العائد، عالم الأفكار للطباعة والنشر، دط، الجزائر، 2008م، ص 239.

⁽²⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 49.

⁽³⁾ ينظر محمد البنيادي: أسئلة الفكر والمنهج والفعالية في تراث "مالك بن نبي" بمناسبة الذكرى المئوية لميلاده. سلسلة كتب النبراس، جمعية النبراس الثقافية، دط، دم، 2005م، ص 42.

وهذا الذي مكّنه من أن يكون على قدرة معتبرة من القدرة والتفكير.

المطلب الثاني: مفهوم الثقافة عند "مالك بن نبي".

بعد استعراضنا لمفهوم (الثقافة) في الفكرين الغربي والعربي الإسلامي، وبعد تعرّفنا على الخلفية التي يستند إليها كل فكر في صياغته لهذا المفهوم، نعرض إلى تحديد مفهوم (الثقافة) عند "مالك بن نبي".

ينطلق في تحديده لمفهوم (الثقافة) من جانبين: أطلق على الأول تسمية "التحليل النفسي" وسمّى الثاني بـ "التركيب النفسي"، فأما بخصوص الجانب الأول، فقد حاول "مالك بن نبي" من خلاله تتبّع الأصول اللغوية للكلمة والوقوف على الملامح العامة التي ساهمت في تكوين فكرة (الثقافة)، أي أنه تناول القضية هاهنا من زاويتين: لغوية وتاريخية، معتمداً في ذلك على منهجية طرح السؤال والإجابة عليه (كما سبق وأشرنا في حديثنا عن منهج "مالك بن نبي").

وسنحاول هنا تتبع مفهوم كلمة (الثقافة) ودلالاتها عند "مالك بن نبي"، معتمدين على المنهج التحليلي وساعين إلى التقيد بالموضوعية العلمية قدر الإمكان.

ينطلق "مالك بن نبي" من طرحه لسؤال جوهري هو: ما هي الثقافة؟ ثم يجيب قائلاً: «ليس في مقدورنا اليوم أن نعالج موضوعاً كهذا دون أن نجد أنفسنا في حالة التطور الراهنة في العالم العربي أمام مشكلة لغوية وتاريخية، فمن أين جاءت كلمة (ثقافة)، ومنذ متى استخدمت في اللغة العربية؟»⁽¹⁾.

وليجيب عن تساؤله هذا، نجدّه يستقصي ويبحث في جذور كلمة (ثقافة) ويبحث في معناها في أمهات قواميس اللغة العربية قديمها وحديثها، عاقداً مقارنة بينها ومحاولاً الوصول إلى كلمة فصل في ماهيتها، ليخلص إلى أن تلك المفاهيم لا تعدو أن تكون مجرد نقل عن بعضها وعاجزة عن تحديد

⁽¹⁾ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 19.

الفصل في معنى كلمة (الثقافة)، حيث يقول: «أول فكرة تخطر لنا للإجابة عن سؤال كهذا هي أن نستشير قاموسا، ولكن القواميس الموجودة بين أيدينا لا تذكر هذه الكلمة إلا إماما سواء في ذلك القديمة أو الحديثة (...)، وفي هذه النصوص من التشابه ما يدعونا إلى أن نعدّها نسخا مكررة نُقل بعضها عن بعض».⁽¹⁾

فضلا عن قواميس اللغة، يعرّج "مالك بن نبي" في بحثه عن دلالة الكلمة إلى أمهات الكتب العربية القديمة، ليتوقف عند (مقدمة ابن خلدون)، باحثا عن دلالتها عنده كظاهرة وكمقولة اجتماعية- باعتباره المؤسس الأول لعلم الاجتماع- دون أن يصل إلى النتيجة المرجوة.

بعد تجوّل "مالك بن نبي" في رحاب (المقدمة) وبعد بحثه المستفيض فيها، يعرج إلى التراث القديم وإلى الحضارات الغابرة (الرومانية والإغريقية) وإلى العصور القديمة (الأموي، العباسي..) في سبيل البحث عن أثر لها، وهنا أيضا لم يخرج إلى أية نتيجة: «ولو زدنا في رجوعنا (...) لم نجد الكلمة مستعملة في العصر الأموي والعباسي، إذ لا أثر لها في اللغة الأدبية أو في اللغة الرسمية والإدارية لذلك العصر، فتاريخ هذه الحقبة لم يرو وجود لائحة إدارية خاصة بمنظمة معينة أو عمل من الأعمال يتصل بالثقافة».⁽²⁾

ويستطرد قائلا: «ذلك واقع اجتماعي عام حتى في المجتمعات البدائية، ولكنه واقع ظل زمننا طويلا دون تحديد؛ أي أنه ظل مجرد شيء حاضر عار عن التسمية، وبذلك لم يتح له أن يصبح فكرة، فروما كانت لها ثقافة (إمبراطورية) كما كان لـ (أثينا) ثقافة حضارة، ولكن لا العبقريّة الرومانية ولا العبقريّة الإغريقية ابتكرت لفظا أطلقتته عنوانا على ثقافتها».⁽³⁾

⁽¹⁾ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 19.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 20.

⁽³⁾ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 24.

وحسب رأينا، فإنه هنا يبدو وكأنه يتراجع عن حكمه ويلتمس العذر لغياب لفظة (الثقافة) في العصور الأموية والعباسية، وحجته في ذلك أن كثيرا من الثقافات كانت تمارس بصورة بديهية عفوية دون أن تسمى بأسمائها ودون أن يعبر عنها كظاهرة اجتماعية، وهذا الصواب عينه؛ ذلك أن (الثقافة) في عمومها ما هي إلا (الحياة اليومية بكل تماثلاتها)، وهنا يصرح "مالك بن نبي" بقدم واقع (الثقافة) كمفهوم ومحدثاتها كمصطلح: «...» لأن فكرة (الثقافة) حديثة جاءتنا من أوروبا⁽¹⁾.

بعدها يعلق على تأثر المثقفين العرب في العصور الحديثة بواقع (الثقافة الغربية) وبتياراتها التي صارت تجذبهم من كل صوب فيقول: «ثم إننا نجد فيما كُتب حديثا عن الموضوع في البلاد العربية، أنّ الكتاب يقرنون دائما كلمة (ثقافة) بكلمة (culture) مكتوبة بحروف لاتينية، كأنما يتغنون بهذا أن يقولوا إنّ كلمة (ثقافة) لا تكتب إلا بهذا الوضع⁽²⁾»، ويلتمس لهم العذر: «وهؤلاء المؤلفون يعلمون دون ريب ما يفعلون حين يقرنون الكلمة العربية بنظيرتها الأجنبية، فإن معنى هذا أنهم يدركون أن الكلمة لم تكتسب بعد قوة التحديد الضرورية لتصبح علما على مفهوم معين، وهذا ما يفسر لنا أنها بحاجة دائمة إلى كلمة أجنبية تقرن بها لتحديد ما يراد منها في الكتب

التي تتصدى لهذا الموضوع، أو بعبارة أخرى، إنها كلمة لا تزال في اللغة العربية تحتاج إلى عكاز أجنبي مثل كلمة (culture) كي تنتشر⁽³⁾.

بعدها يتتبع استخدام مفهوم كلمة (ثقافة) في (أوروبا) والدلالة التي يحملها، فيرى بأنها:

« ثمرة من ثمار عصر النهضة، عندما شهدت (أوروبا) في القرن السادس عشر انبثاق مجموعة من الأعمال الأدبية الجليلية في الفن وفي الأدب وفي الفكر⁽⁴⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 24.

(2) المصدر نفسه، ص 24.

(3) المصدر نفسه، ص 24.

(4) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 25.

ويوضح كيف أنّ مدلولها انتقل من معناه المجازي إلى معناه الاصطلاحي بحمولته المعرفية كلّها.

تحت عنوان (الثقافة وعلم الاجتماع)، يعرّف "مالك بن نبي" إلى تحديد مدلول كلمة (ثقافة) في حقل الدراسات الاجتماعية؛ المدلول الذي أُعطي لها بعد ظهور علم الاجتماع، وفي ظل التطورات التي شهدتها القرن التاسع عشر الذي عدّه (قرن التشريح والتحليلي الكيماوي) و (قرن الوقائع داخل المعمل)، أكثر من اتجاهه إلى دراستها في حجرة الدراسة أو في بطون الكتب أو في آثار التاريخ، وبهذا بات من الضروري السعي إلى وضع وتحديد تعريف جديد لـ (الثقافة).

وهنا يطرح السؤال نفسه الذي شغل باله على طول صفحات من كتابه (مشكلة الثقافة) وعلى مدار فصول من كتابيه (شروط النهضة) و(آفاق جزائرية)، وهو: ما هي الثقافة؟ لكنه هنا يوجّه على سؤاله منظارا آخر ويسلّط عليه آراء ووجهات نظر أخرى تضم بين طياتها واقعا اجتماعيا رحبا يتخطى حدود (أوروبا) ويحمل طابع العبقريّة الإنسانيّة فيقول: « وهكذا وصل الفكر إلى سؤال: ما هي (الثقافة)؟ ولكن عن طرق مختلفة ومناهج متخالفة، فجاءت وجهات النظر أيضا مختلفة لاختلاف النزعات، مترجمة أحيانا عن اتجاهات سياسية، فمن أجل هذا كله اختلفت تعريف (الثقافة) باختلاف الزاوية التي يُنظر منها إلى الموضوع».⁽¹⁾

ويستشهد في حديثه عن اختلاف تعريفات (الثقافة) - وفقا لاختلاف زوايا النظر إليها - بآراء كلّ من المدرستين الغربية والماركسية، عاقدا مقارنة بينهما ومستدلا بأمثلة عن كلّ منهما.

فأما المدرسة الغربية التي ظلت وفية لتقاليد عصر النهضة والتي ترى أنّ: « الثقافة ثمرة الفكر، أي ثمرة الإنسان».⁽²⁾، فقد استدلت لها برأي "رالف لنتون" الذي عرّف (الثقافة) على أنها: «كلّ

⁽¹⁾ المصدر نفسه، ص 29.

⁽²⁾ ينظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 29.

تتداخل أجزاءه تداخلا وثيقا، ولكن من الممكن أن نتعرف فيه على شكل بنائي معين، أي نتعرف فيه على عناصر مختلفة هي التي تكوّن الكل»⁽¹⁾.

إنّ "رالف لنتون" هنا يعرّف (الثقافة) انطلاقا من مستويين اثنين: المستوى الأول أو الكل الأول: سمّاه (بمجال العموميات)، ويقصد به العادات والتقاليد والعرف... إلخ التي يتشبهت بها الفرد ويستمد جذورها من المجتمع أو البيئة التي ينشأ فيها، أما المستوى الثاني أو الكل الثاني: سمّاه (بمجال الأفكار)، ويقصد به فعل الإنسان وفكره الذي يؤثر به في مجتمعه، وهذا لا يتأتى إلا من خلال المخترعات والمكتشفات والمذاهب الجديدة.

هذا، ويستدل في سياق حديثه عن واقع (الثقافة) في المدرسة الغربية برأي "وليام أوجبرن" الذي فرّق بين مجالين من مجالات (الثقافة): الثقافة المادية (Material Culture)، ويقصد بها (مجموع الأشياء وأدوات العمل والثمرات التي تخلقها)، والثقافة المتكيفة (Adoptive culture)، ويقصد بها (العادات والعقائد والتقاليد والأفكار واللغة والتعليم)⁽²⁾.

ولربما استمد "وليام أوجبرن" رأيه هذا في نجاعة الأشياء، من كونه عايش في (الو.م.أ) واقعا وجده مليئا بأشياء وأدوات اعتقد بمدى فعاليتها دون سواها.

وفي تحليل "مالك بن نبي" لواقع الثقافتين ولفحواهما، نجدته تقريبا يعيد الكلام نفسه و يخلص إلى النتيجة ذاتها التي خلص إليها في دراسته للثقافة عند "رالف لنتون" حيث يقول: «إن طريقة التعريف في كلتي الحالتين واحدة صادرة عن فكر واحد هو الفكر الإحصائي الذي يتم لدى "لنتون" في عالم الأفكار، ولدى "أوجبرن" في عالم الأشياء يحوطه بجو من الأفكار»⁽³⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 30.

(2) المصدر نفسه ، ص (31/30).

(3) ينظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 35.

من خلال تحليلنا نحن للمفهومين، خلصنا إلى أنّ الثقافة المتكيفة عند "وليام أوجبرن" توافق المستوى الأول عند "رالف لنتون"، والثقافة المادية عند "أوجبرن" توافق المستوى الثاني عند "رالف لنتون" مضاف إليها عنصر (الأشياء)، وعليه أمكننا القول مبدئياً أنّ (الثقافة) ما هي إلاّ نتاج للأشياء والأفكار و التراث، و بعبارة أخرى:

$$\begin{array}{rcc}
 \text{الثقافة} = & \text{أشياء} & + & \text{أفكار} & + & \text{تراث} \\
 & \underbrace{\hspace{1cm}} & & \underbrace{\hspace{1cm}} & & \underbrace{\hspace{1cm}} \\
 & \text{جانب} & & \text{جانب} & & \text{عادات} \\
 & \text{مادي} & & \text{علمي عقلي} & & \text{تقاليد}
 \end{array}$$

ومن الحديث عن المدرسة الغربية، يعرّج إلى الحديث عن (المدرسة الماركسية) التي تنظر إلى (الثقافة) باعتبارها «ثمرة المجتمع»⁽¹⁾. متبعا المنهجية ذاتها ومستدلا برأي كل من "كونستانيتنوف" و"ماوتسي تونغ".

يعلق "مالك بن نبي" بداية على رأي "كونستا نيتنوف" حول (الثقافة) التي يقول فيها: «إن حياة المجتمع المادية هي واقع موضوعي ومستقل عن إرادة الناس، أما حياة المجتمع العقلية (culture)، أي مجموعة الأفكار الاجتماعية والنظريات والأديان ونظريات علم الجمال والمذاهب

(1) المصدر نفسه، ص 29.

الفلسفية، فهي كلها انعكاس هذا الواقع الموضوعي»⁽¹⁾، فيرى بأنه لا يقيم وزنا واعتبارا لدور الأفكار في تحديد (الثقافة) وتطويرها.

بعدها ينتقل ليسلط نقده على رأي "ماوتسي تونج" حول (الثقافة)، والذي يرى أن: «مشكلة الثقافة تتجلى في جوانب معينة_ولكن ما يثير اهتمامنا لديه خاصة هو أنه يصف لنا كيف أن هذه الفكرة تمثل لفكره باعتباره ماركسيا فيقول-^(*): إن كل ثقافة معينة هي انعكاس من حيث شكل مفهومها لمجتمع معين»⁽²⁾.

وهنا نجد يعلّق على التعريف ويراها انعكاسا للفكر الماركسي فيقول: «نجد فيه دون ريب جوهر ما يدور حوله فكر ماركسي، أعني بذلك العلاقة التكوينية التي يريد إقرارها بين أشكال المادية التي تُعنى بها الحياة في مجتمع معين وبين أفكار هذا المجتمع (...). أما التعاريف الماركسية للثقافة التي تذهب إلى أنها انعكاس للمجتمع، فهي سليمة دون أن تكون أكثر إقناعا في وطن تقتضي المشكلة فيه حلا أساسيا، أي حيث لا تكون المشكلة مشكلة فهم وتفسير لواقع اجتماعي معين، بقدر ما هي مشكلة خلق لهذا الواقع الاجتماعي»⁽³⁾.

بعد هذه المفاهيم والتعاريف التي أوردها "مالك بن نبي" للثقافة، وبعد النظرة الثاقبة التي سلّطها عليها، وبعد تقويمه لكلّ منها، نخلص معه إلى حقيقة مفادها أنّ كلّ مفهوم للثقافة وكلّ رأي حولها ينبع من ظروفٍ ومن متطلباتٍ ومن واقع المجتمع الذي عاينه صاحبه، والذي حاول أن يصبّه على دراسته للموضوع، ومن ثمّ يؤكد أنّ: «كلّ مجتمع بحاجة إلى تكوين فهم مستقل وخاص لطبيعة مشكلته الثقافية أو لفكرته عن (الثقافة) بصورة عامة، وذلك بحسب مرحلته التاريخية، الثقافة تتصل

⁽¹⁾ ينظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 32.

^(*) الكلام بين عارضتين "مالك بن نبي" وليس لـ "ماوتسي تونج".

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 33.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص (33_39).

بفهم واقع اجتماعي معين موجود بالفعل في نطاق تاريخي معين أو موجود في حيز القوة في نطاق فكري معين أيضا». (1)

وعلى هذا الأساس، يحاول "مالك بن نبي" نفض الغبار عما قيل، ويسعى إلى خلق واقع ثقافي جديد يوصله إلى وضع الخطوط العريضة التي تمكنه من إيجاد حل للفوضى التي تحيط بمفهوم (الثقافة) ومن الوصول إلى تعريف مضبوط لها، نظرا للتعارض القائم بين التعاريف المسوقة وبين واقع العالم العربي والإسلامي، فيقول: «أما إذا وُضع هذا السؤال في العالم العربي والإسلامي، فإنه يأخذ معنى آخر مختلفا تمام الاختلاف، إذ هو يتصل بخلق واقع اجتماعي معين لم يوجد بعد (...)، فلا يمكن تطبيق تعريف المدرسة الغربية ولا الماركسية». (2)

وبهذا يدعو إلى النظر إلى (الثقافة) من المنظور العلمي التربوي _ سيكون محورا لحديثنا في المبحث الموالي _ ووفق منهج جديد يسميه ب (المنهج المعقد) الذي يقصد به السعي إلى تحديد المفاهيم والأشياء الغامضة التي تحيط به، ثم تقديمها في صور وأشكال متعددة حتى يتسنى له إدراكها، فيقول: «فهذه اعتبارات تجب مراعاتها والاعتماد عليها في المشكلة التي نحن بصددنا، فالثقافة فكرة ذات وجوه كثيرة ينبغي أن نطبّق في تعريفها منهج الشيء المعقد الذي لا يمكن أن يُدرك في صورة واحدة، فليس يكفي أن تكون صورتها لدينا مجموعة من الأفكار أو مجموعة من الأفكار والأشياء على الطريقة الأمريكية، كما لا يكفي أن تكون انعكاسا للمجتمع على الطريقة الماركسية، إنما الواجب أولاً قبل كل شيء أن نحدّد السرّ في تعدد وجوهها، ومن أجل هذا ينبغي أن نحدّد الأسباب الذاتية الخاصة التي تدفعنا _ نحن العرب والمسلمون _ في الظروف الزمنية التي نعيشها إلى أن نضع السؤال التالي: ما هي الثقافة؟». (3)

(1) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 38.

(2) المصدر نفسه، ص (38-40).

(3) المصدر نفسه، ص 41.

هذا بخصوص الجانب النفسي لـ (الثقافة) عنده، والذي أجاب فيه عن الأسئلة التي شغلت باله طويلاً: ما هي (الثقافة)؟ وكيف نفهم (الثقافة)؟.

وما يمكننا قوله هنا، هو أن "مالكا بن نبي"، الذي توصل إلى فكرة أننا لا نزال تابعين تحت وطأة (الثقافة الغربية) ولا نزال نستعير لسانها الأوروبي (culture) للدلالة على أي فعل أو ممارسة ثقافية، رفض الخضوع لهذا الواقع وجتد فكره لمجاهة (الثقافة الغربية) _ التي لا ننكر إعجابه وتأثره بها، إلا أنه يرفض الخضوع لها تماماً _ وكان هدفه من خلال ذلك أن نستقل في فهمنا لـ (الثقافة) وفي تحليلنا للمشكلة الثقافية.

بعد (التحليل النفسي للثقافة)، يعرّج إلى عنصر (التركيب النفسي للثقافة) في سبيل ضبط مفهوميها والبحث عن سبل تطبيقها، أي حاول الإجابة عن السؤال: كيف نطبق (الثقافة)؟ لكنه هذه المرة لم ينظر إليها على مستوى القواميس أو المعاجم اللغوية أو الأدبية أو الفلسفية، وإنما نظر إليها على مستوى الواقع.

هذا ما نوه به صراحة في كتابه (حديث في البناء الجديد) الملحق بكتابه (تأملات) عندما حاول الإجابة عن السؤال: ما هي (الثقافة)؟ انطلاقاً من تجاربه الخاصة ومن الوقائع الاجتماعية التي كان يعايشها باستمرار، حيث يقول: « ما هي الثقافة؟ إنني حينما أضع أمام عيني هذا السؤال، فإن كثيراً من التجارب التي مرت بي والذكريات التي سجلتها في حياتي تمر بخاطري، ذلك أن هذه الخواطر الذاتية هي التي تحدد موقفني أمام هذا السؤال، ولعلي في هذا الاعتراف أبدو وكأنني أقف من المشكلة موقفاً غير موضوعي، ولكنني في الواقع أرى أن موقفني سوف يكون أقل موضوعية حينما أحدهه بأشياء خارجة عن نطاق حياتي وعن مجال تجرّبي الشخصية».⁽¹⁾

⁽¹⁾ مالك بن نبي: تأملات، ص 141.

إنه يستهل حديثه عن واقعة بالإشارة إلى الواقع الثقافي السائد آنذاك، والمتمثل في ضالة ونقص الاهتمام بـ (الثقافة) وشؤونها، وما كان ليتوصل إلى هذه الحقيقة المؤلمة لولا تعرضه لموقفين أو حادثتين يجدر بنا _ لأهميتهما _ ذكرهما:

الحادثة الأولى:

تتمثل في الصعوبات والعوائق التي واجهت طريقه عند عقده العزم على ترجمة كتابه (الظاهرة القرآنية) وتوجيهه للشباب العربي الذي كان يضعه في أولويات اهتماماته، غير أنه يصدم هنا بالواقع المرير؛ ذلك أنه لم يجد دار نشر تتبنى الكتاب على الرغم من تنازله عن حقوقه كلها كمؤلف، حيث يقول: «لقد بعثني هذا كله إلى أن أقدم كتابي إلى بعض الشخصيات في العالم العربي الإسلامي (...)، فأرسلت نسخة من الكتاب مع التفاصيل اللازمة إلى ملك عربي (...)، وزدت على ذلك أنني سلّمت عددا لا بأس به من المبتج إلى بعض السفارات الإسلامية والعربية في باريس (...)، وانتظرت وطال الانتظار أكثر من عشر سنوات، لكن دون أن يأتيني ردّ من تلك الأطراف المالية ولا من تلك السفارات».⁽¹⁾

فما السبب يا ترى من النفور من ترجمة كتاب يحوي الكثير من أفكار وآراء القرآن الكريم _ التي عجز صاحبها عن التعبير عنها باللغة العربية كونه لم يكن يجيد الكتابة بها ولا التعبير بها بداية_؟! أليس هذا دليلا على افتقارنا لأهمّ مقومات أصالتنا وهويتنا؟! أليس دليلا على افتقارنا لشخصيتنا ولواقعنا الثقافي ولشبكة العلاقات الثقافية التي لم تتحدد بعد في عالمنا العربي الإسلامي؟! يقول "مالك بن نبي": «فالتجربة هذه قد عشتها بفكري مرات، لأني كلما وضعت مشكلة الثقافة أمام عيني، عادت تفاصيلها إلى ذهني (...)، فهي تعبّر عن اختلال واضح في الحياة الثقافية، أي البلاد الإسلامية العربية، تعبّر عن افتقارنا لبعض الشروط الأولية البسيطة افتقارا لا يوجد معه في هذا المجتمع شبكة للعلاقات الثقافية اللازمة تحيا فيها الأفكار، كما لا يوجد فيها الدفء الإنساني الذي

⁽¹⁾ مالك بن نبي: تأملات، ص (142/141).

يشعر به الكاتب حينما يأتيه على الأقل جواب شكر يشجعه على المثابرة، في حين أن هذين الشرطين أساسيان للحياة الثقافية في أي بلد»⁽¹⁾.

الحادثة الثانية:

تتمثل في ظاهرة الأمية وكيفية التصدي لها على ضوء الثنائية (مجتمع عربي مسلم/فئة يهودية)، وعلى وجه التحديد على ضوء الثنائية (مجتمع جزائري/يهود الجزائر)، فإذا كان المجتمع المسلم الجزائري قد وقف عاجزا أمام مجابهة مشكلة الأمية وجعل نفسه خاضعا للمستعمر الذي تفتن في تشويهه وطمس هويته كما شاء- على الرغم من الجهود الفاعلة التي قام بها جمع من السياسيين المشغولين بقضية (الجزائر) والمنتقدين، عن طريق المقالات، لسياسة التجهيل التي يمارسها المستعمر في حق الجزائريين- فإن الفئة اليهودية قد وجدت لنفسها المخرج والسبيل الذي يحررها من كل دنس يمس هويتها ويشكك في أصالتها _ونعتذر عن استعمال مصطلح الدنس- حتى وإن كان كلامنا هذا فيه بعض المبالغة ولا يصدق إلا على القلة القليلة من اليهود، وحتى وإن كان هذا الدنس هو (فرنسا) ذاتها التي فتحت لها أحضانها وأوفدتها إلى (الجزائر) لاعتبارات لا داعي للخوض فيها.

يقول "مالك بن نبي": « أصدرت الحكومة الفرنسية قوانين استثنائية قاسية في تنظيم التعليم في مختلف مراحلها بالنسبة للطائفة اليهودية. وهكذا شعرت هذه الطائفة بأن أطفالها قد أصبحوا مهددين بالأمية، غير أنها لم تكتب مقالة واحدة تستنكر هذا الإجراء، ولم يُلقَ واحد منها محاضرة عن هذا الأمر (...). وإنما اجتمعت النخبة فيها ودرست المشكلة لكي تحدد موقفها منها، ولقد حددت فعلا موقفها بأن يتطوع كل ذي علم بقدر ما عنده من العلم، فيقوم بحصته من التعليم الابتدائي أو الثانوي أو العالي. وهكذا أصبح كل بيت من بيوت المعلمين مدرسة في ساعات مهنية، ولمّا وضعت الحرب أوزارها وأسفرت عن نتيجتها المعلومة وارتفعت القوانين الاستثنائية التي صاغتها

⁽¹⁾ مالك بن نبي: تأملات، ص 142.

حكومة (المرشال) ضد الأطفال اليهود، ارتفعت دون أن تحقق أغراضها في المجتمع اليهودي لأنه عرف كيف يتحصّن ضدها». (1)

ثم يعود "مالك بن نبي" ليقدم عصارة رأيه حول التجريبتين اللتين عاش وقائعهما: «فالصورة الأولى التي ذكرتها تدلنا عن على المجتمع الإسلامي يفقد شبكة الاتصالات الثقافية، فالشخصيات التي يمكنها المساهمة ماديا في القيام بمشروع كهذا لا تشعر بأهميته، بل إنها تتقدم لشراء سيارة على مشروع ثقافي، أما الصورة الثانية فإنها تكشف لنا عن ضعف الطبقة نفسها في البلاد العربية والإسلامية، أو في بعضها على الأقل، وإن هذا يعني - إذا قسنا بالمقياس الذي نجد في مواقف طبقة أخرى مثل يهود الجزائر - أنّ التعليم والعلم شيء والثقافة شيء آخر، فنحن نرى الطبيب الجزائري يتساوى مع زميله اليهودي أو يفوقه أحيانا فيما يتصل بالجانب المهني، لكن الطبيب اليهودي يقف أمام مشكلة اجتماعية معينة غير الموقف الذي يقفه منها الأول، وهذا يعني بالتالي أنهما يتساويان في العلم ويختلفان في الثقافة». (2)

والواقع أن المسألة - كما يتصورها - ليست مسألة تعليم فحسب، ولا مسألة صلات ثقافية فقط، بل هي أعمق من ذلك بكثير؛ ذلك أنها مسألة فعالية متعلقة بالفرد المنتمي إلى مجتمع معين، والذي بيده ربط خيوط الشبكة الثقافية، كما بيده النهوض بواقع التعليم، ولا يكون هذا إلا عن طريق الموقف الإيجابي والفاعل الذي يتخذه هذا الفرد إزاء مشكلة معينة، وعن طريق القدرة على التأقلم مع المحيط الذي يتواجد فيه، وعلى خلق الجو الذي يضمن له البقاء والاستمرار.

من هنا، تتضح أمامه النظرة العامة حول موضوع (الثقافة)، و يضع نصب عينيه الخطوط العريضة التي تمكنه من ضبط مفهومها وتحديد ماهيتها، و يؤكد الفكرة القائلة بأن (الثقافة) إذا ما تكونت في مجتمع نشأت فيه تلقائيا شبكة الصلات الثقافية وتحددت فيه فعالية الفرد.

(1) مالك بن نبي: تأملات، ص 145.

(2) المصدر نفسه، ص 146.

ويتوصل إلى طرح سؤاله الجوهرى بصيغة أخرى: ما هي الثقافة التي تنشئ الصلات الثقافية وتخلق الفرد الفعال؟.

يشرح "مالك بن نبي" في تعريفه للثقافة تعريفاً يستشقه من تمييزه بين (الثقافة) وبين (العلم) فيقول: « فلما كانت المدرسة الغربية قد قرنت مفهوم الثقافة بعنصر الأفكار الذي يدخلها في دائرة العلمية المحضة، ف "مالك بن نبي" يربطها بالسلوك أكثر من ربطها بالمعرفة»⁽¹⁾، ويستدل لتأكيد فكرته هذه بالتمثيل بفردين يختلفان في الوظيفة و ينتميان لمجتمع واحد، كطبيب انجليزي وراع انجليزي مثلاً، وبفردين يتحدان في العمل و ينتميان لمجتمعين مختلفين، كطبيب جزائري وطبيب انجليزي مثلاً، نجد الأولين (الطبيب والرّاعي الانجليزيان) يتميز سلوكهما إزاء مشكلات الحياة بتمثال معين في الرأي يتجلى فيما يسمى (الثقافة الانجليزية)، بينما يختلف سلوك الآخرين (الطبيبان الجزائري والانجليزي) اختلافاً عجبياً يدلّ على طابع (الثقافة) الذي يميز كليهما عن صاحبه، لأنه يميز المجتمع الذي ينتمي إليه.

هذا التماثل في السلوك في الحالة الأولى، والاختلاف فيه في الحالة الثانية، يجعلنا نتأكد بأنّ هذا التماثل وذاك الاختلاف ناتج عن (الثقافة) وليس عن (التعليم).

النتيجة نفسها خلص إليها كتابه (تأملات)، وهذا ما نستشفه من خلال قوله: « لا شك أننا لاحظنا أنّ الثقافة ليست مجرد علم يتعلمه الإنسان في المدارس ويطالعه في الكتب، فإن الصورة الثانية التي أوردناها (ثنائية المجتمع العربي المسلم/الفئة اليهودية)^(*) أظهرت اختلافاً في السلوك لا في المعرفة (...)، والملاحظة تفرض علينا هنا أن نقدّر هذا السلوك بوصفه نتيجة للوسط الذي تتكون فيه شخصية الفرد، ومن الطبيعي أنّ الوسط اليهودي في الجزائر يختلف عن الوسط العربي في هذا البلد؛ يختلف عنه بعباداته وأذواقه وأوضاعه النفسية والخلقية الخاصة به، ونحن إذا عددنا هذه العوامل

⁽¹⁾ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص (74/73).

^(*) العبارة ما بين القوسين من إضافتنا وليست من قول "مالك بن نبي".

هي التي تؤثر في تكوين الشخصية لأنها تكوّن الجو العام الذي يحدد دوافع الفرد وانفعالاته وصلاته بالناس والأشياء، فإننا نكون بهذا قد عرّفنا الثقافة على أنها ذلك الجو المتكون من عادات وتقاليد وأذواق، وإذا نحن قد حللنا شيئاً ما هذه الكلمات، فإننا -مع اعتبارنا لكل ما يطبع الشخصية في ظاهرها وباطنها- نقول بالتالي: إنّ الثقافة هي الجو المشتمل على أشياء ظاهرة مثل الأوزان والألوان والحركات، وعلى أشياء باطنة كالأذواق والعادات والتقاليد، بمعنى أنها الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين، وسلوك الفرد فيه، بطابع خاص يختلف عن الطابع الذي نجد في حياة مجتمع آخر»⁽¹⁾.

يوصلنا هذا إلى القول أنّ (الثقافة): «تتضمن على إطار حياة يجمع بين راعي الغنم وبين العالم جمعاً توحد معه بينهما مقتضيات مشتركة، وهي تهتم في معناها بكل طبقة من طبقات المجتمع فيما يناسبها من وظيفة تقوم بها وما لهذه الوظيفة من شروط خاصة، وعلى ذلك فإن الثقافة تتدخل في شؤون الفرد وفي بناء المجتمع، وتعالج مشكلة القيادة كما تعالج مشكلة الجماهير»⁽²⁾.

مبدئياً، ومن خلال ما قاله "مالك بن نبي"، نخلص إلى أنّ: الثقافة = سلوك، لكن إذا ما وضعنا هذه المعادلة ومعها آراء "مالك بن نبي" حول (الثقافة) تحت منظار النقد، فلنا فيها كلام كثير.

ننطلق من التعريف الذي أورده في كتابه (تأملات): قد يبدو لنا من الوهلة الأولى أنّ هذا المفهوم يصبّ في قالب نفسه، ويدور حوله المعنى ذاته الذي حدّده علماء الأنثروبولوجيا (الثقافة)، والذي يتمحور حول فكرة النظر إلى الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع له (ثقافة) معينة، و على هذا الإنسان أن يمارس سلوكاً يتوافق وسلوك الأفراد في المجتمع المحيط به، يتحلى

⁽¹⁾ مالك بن نبي: تأملات، ص 147.

⁽²⁾ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 78.

بقيمه وعاداته، يدين بنظامه، يتحدث بلغة قومه، وهذه الفكرة هي نفسها التي نادى بها "إدوارد تايلور" - كما سبق القول-.

لكن، إذا ما أمعنا النظر في التعريف و أعملنا فكرنا في جوهره، وجدنا أنه يطابق فكرة الأنثروبولوجيين في جانب منه، و هذا دليل على أنه لم يتخلص من تأثيره بالغرب على الرغم من مناداته بإعلان القطيعة عنهم ومحاولة الاستقلال بمفهوم عربي إسلامي ل (الثقافة)، لكن في الجانب الآخر _وحسب رأينا واستنتاجنا الخاص_ فهو يقصد بالأشياء الظاهرة (الألوان والحركات): القدرة الخلاقة التي تدفعه إلى النهوض والحركة لخلق واقع ثقافي جديد يحاول من خلاله النهوض بالواقع الاجتماعي الذي يعيشه، ويسعى عبره إلى معالجة جميع السلبيات التي تعوق واقعه هذا.

فحق لنا أن نقول: إنّ (الثقافة) _من خلال تحليلنا لرأي "مالك بن نبي" _ جو عام ومحيط معين ووقائع محددة يعيشها الإنسان ويتحرك في نطاق حدودها عن طريق العادات والتقاليد والأذواق الراسخة في عمق محيطه، فتتشبع بها روحه ويتغذى إلهامه وتتسع آفاق نظرتة وموقفه، فيخلق بذلك اتجاهها وأسلوبا خاصا يقوي تصوره ويلهم عبقريته ويطور واقعه، وبعبارة أخرى، فالثقافة ترتبط بوجود الإنسان وتؤمن غذاءه الحيوي أولا والعقلي ثانيا.

والواقع أننا وجدنا أنفسنا هنا حائرين بين إنصاف "مالك بن نبي" عندما أنقص من قدر وقيمة (العلم) على حساب المحيط الاجتماعي العام والسلوك الذي يطبعه، وبين التشكيك في مدى صحة الفكرة.

فإذا نحن شككنا في صحتها، فحجتنا في ذلك أنه كان حري به الجمع بين السلوك وبين العلم، لما لهذا الأخير من دور في ضبط السلوك الإنساني، فلا يمكن لسلوك الراعي أن يتوافق مع سلوك الطبيب، حتى ولو خرجنا من رحم بيئة واحدة ونشأ في مجتمع واحد؛ فالعلم هو الذي يعطي

الفرد المعرفة، وهو الذي يهبه اللبابة والمهارة التي تمكّنه من خلق واقع ثقافي جديد، ومن خلق صورة أكثر دقة وفعالية من تلك التي يخلقها زميله الجماهيري، وعليه أمكننا القول بأن:

الثقافة = سلوك على أساس المعرفة

وإذا نحن أنصفنا "مالكا بن نبي" فيما ذهب إليه، فحجته في ذلك أنّ الحاجة أمّ الاختراع؛ فالواقع الذي يعيشه الفرد، والظروف التي يحياها، والمشكلات التي تعوقه و تصادفه، تشكّل لديه تصورا موحدا حول هدفه المنشود (الوقوف والنهوض بالثقافة)، بغضّ النظر عن مستواه الثقافي والفكري.

وهنا أمكننا القول بأنّ (الثقافة) : « وجود وإيجاد، أي أنّها توجد الإنسان الضائع المتلاشي في حدود بشريته وتسمو به إلى كمالات إنسانيته، من أجل تقويم رؤية، تصور، طريقة تفكير، فكرة.. إلخ، ولغاية تحقيق رسالة، وفي سبيل إعطائه شخصية وهوية».⁽¹⁾

هذا التناقض الذي وصلنا إليه يؤكد لنا حقيقة الغموض الذي يعتري مفهوم (الثقافة).

ولمّا كان "مالك بن نبي" ينطلق في ضبطه لمفهوم (الثقافة) من تجاربه الذاتية ومن الوقائع التي عاشها، فطبيعي أن يكون لتجربته في (الجزائر) الدور الكبير والإسهام الفاعل في تشكيل رؤيته حول (الثقافة).

ينطلق "مالك بن نبي" في كتابه (آفاق جزائرية) الملحق بكتاب (القضايا الكبرى) من الإشارة إلى أنّ مشكلة (الثقافة): «لا تُطرح أمامنا في دائرة المجرّدات (المسرح أو السينما أو مكتب عمل أحد الروائيين أو في أسلوب إحدى الرقصات الفولكلورية)، وإنما تُطرح في العالم العيني الملموس لعملانا اليومي، في إحدى حظائر البناء أو في حقل نقوم بزراعته أو في المدرسة حيث تُرسل أطفالنا لتلقّي المعرفة، وفي الطرقات التي نعبّر بها والقاطرات التي ننتقل بواسطتها، وأخيرا في كلّ مكان يوجد فيه

⁽¹⁾ عبد الله عيسى لحيلج: مفهوم الثقافة الشعبية، (مرجع سبق ذكره).

شكل من أشكال حياتنا»⁽¹⁾، أي أنه يرى بأن مشكلة (الثقافة): «تتعلق بالإطار الاجتماعي ككله، حيث تدور حياتنا وتتساقق نشاطاتنا وتتشكل المشكلات العديدة التي تستحوذ على أفكارنا تحت اسم التخلف»⁽²⁾.

وهو حين يتحدث عن (الثقافة) هنا، إنما يهدف إلى تبيان غرضه من حديثه عنها فيقول : «وهكذا فنحن لا نجد فكرنا حراً، ولكننا نراه محاطاً بكل تلك المشاكل، ومعلوم أنّ هذا السؤال ليس له نفس المعنى عندما يتعلق الأمر بمجرد الوثائق أو الناحية العلمية، وعندما يتعلق غرضه بمصلحة اجتماعية أساسية، ففي الحالة الأولى نواجه مجرد تصور لواقع اجتماعي قائم، وفي الحالة الثانية تتمثل المسألة في موقف يُطلب منا اتخاذه لمواجهة فراغ اجتماعي معين»⁽³⁾.

ويضيف "مالك بن نبي" في سياق حديثه عن الغاية التي يبحث من أجلها في موضوع (الثقافة) كفرد جزائري أولاً وكمفكر جزائري ثانياً: «فنحن عندما نطرح بالجزائر هذا السؤال: ما هي (الثقافة)؟ لا نفكر بالدرجة الأولى في ضروب التسلية التي يمكن أن تقدمها لنا الفنون الفولكلورية والمسرح والشعر، ولكننا نفكر أولاً في الحقائق المحسوسة للتخلف، في البطالة والامية ونقص التغذية»⁽⁴⁾.

إنه هنا يؤكد لنا الفكرة التي يدعو إليها، وهي خلق واقع ثقافي جديد لمواجهة الفراغ الثقافي والاجتماعي الذي نعيشه، مع حرصه على ربط مشكلة الثقافة بثنائية (النمو/التخلف) وإقرانها بفكرة (الفعالية/اللافعالية).

يعمد "مالك بن نبي" بعد تحديد مجال اهتمامه، إلى الحديث عن واجب الثورة الجزائرية التي

⁽¹⁾ مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 68.

⁽²⁾ مالك بن نبي: المرجع نفسه، ص 68.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص 69.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ص 69.

حققت لـ (الجزائر) استقلالها السياسي وتسعى إلى الاستقلال الثقافي، فبيّن واجبها الثقافي قائلا: « فالمسألة تقوم بالنسبة إلى الجيل الذي حقق الثورة الجزائرية في الاضطلاع بمشروع (ثقافة) يكون في مستوى مهام الثورة حسب ما ينصّ عليها برنامج (طرابلس)، مع أخذه بعين الاعتبار المشاكل النوعية الخاصة بالتخلف واللافعالية، فقد علّمتنا تجربتنا بالجزائر أن الثقافة لا تُستورد بنقلها من مكان إلى آخر، بل يتمّ خلقها في نفس المكان، لأن البيئة ليست إحدى لوحات الرسم التي نفكّكها من مسمار الجدار الذي علّقت عليه لكي نقلها إلى منزلنا». (1)

وما يدعو إليه "مالك بن نبي" كـ (ثقافة جزائرية)، هي تلك التي تستجيب للمطالب الروحية للمجتمع الجزائري، وتجعل منه مجتمعا متماسكا يسير بخطى ثابتة ويجد الحلول المناسبة للمشاكل المطروحة بكل منطق وموضوعية.

بعد هذه الرحلة الطويلة التي قضاها في الدراسة والبحث والتمحيص والتنقيب لمختلف الأفكار والتصورات حول (الثقافة)، يتوصل إلى صياغة مفهوم وتعريف لها، فـ (الثقافة) عنده: « مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه». (2)

وفّق هذا التعريف، تغذو (الثقافة) حسب تقدير "مالك بن نبي" بمثابة: « المحيط الذي يعكس حضارة معينة* ويتحرك في نطاقه الإنسان المتحضّر، وهذا يعني أن الثقافة تضمّ مقومات الفرد ومقومات الجماعة». (3)

(1) مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 83.

(2) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 74.

(*) نشير هنا إلى أن "مالكا بن نبي" لم يفصل في العلاقة بين الثقافة وبين الحضارة بالقدر الذي أولى فيه عناية كبيرة للعلاقة بين الثقافة وبين العلم، وحسبه فالثقافة مفتاح الحضارة والحضارة محور الثقافة، وبعبارة أخرى، فالنهوض الذي يسعى الفرد لتحقيقه إنما هو تطلع للحضارة.

(3) المصدر نفسه، ص 74.

ف (الثقافة) إذن: محيط معين يتحرك في نطاقه الإنسان ويقيد به عوامل محددة، فيغذي إلهامه ويكيّف مدى صلاحيته للتأثير، وهي الكتلة التي تضمّ كلاً من العادات والتقاليد والأعراف والأشكال والحركات التي تطبع حياة الإنسان بطابع خاص، وتكسبه أسلوباً في الحياة ومنهاجا في السلوك ومنهجية في العمل التّوّاق إلى البناء والمواجهة الفاعلة، إنّها الرّباط القوي الذي يحوط الإنسان والإطار الذي يتواجد فيه، وهي الأرضية التي تتحقق على بساط واقعها ثنائية (التأثير والتأثر).

دلالات وأبعاد التعريف:

إذا وضعنا تعريف "مالك بن نبي" هذا تحت منظار التحليل، أمكننا أن نقول فيه ما يلي:

– ينطلق "مالك بن نبي" في تعريفه ل (الثقافة) من الصفات الخلقية التي يُعنيها عناية كبيرة ويضعها في سقف اهتماماته، وحسب رأيه الفرد يجد نفسه خاضعا لفلسفة أخلاقية تُعدّ أولى المقوّمات في الخطة التربوية التي رسمها ل (الثقافة) التي ينشدها.

– أما بخصوص حديثه عن القيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، فمعنى هذا أنّ (الثقافة) لا يمكن أن تُؤتي أكلها والفرد – أو عالم الأشخاص كما يسميه "مالك بن نبي" – لا يمكن أن يكون ذا نشاط اجتماعي فاعل، إلا إذا تضافرت أفرادها وانحلت في جو العادات والتقاليد التي تُعدّ الشرارة التي بواسطتها نستقبل (الثقافة) ونغمس داخلها، ولعل حجته في ذلك أنّ الفرد المنعزل بذاته عن محيطه لا يمكنه استقبال (الثقافة) ولا المشاركة في النشاط الاجتماعي الفاعل.

– أما قوله: «فتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي وُلد فيه»، فنفهم منه النظام الاجتماعي العامّ الذي يفرض نمطا سلوكيا وأسلوبا في الحياة الاجتماعية.

والواقع أن هذا التعريف يُعدّ من التعريفات المعتمدة التي لا بدّ من الرجوع إليها إلى جانب التعريفات الأخرى التي تُداول في معترك الساحة الثقافية الأدبية، لكن في الوقت نفسه لا يمكننا اعتباره متفوقاً عليها إلى حد كبير، وإنما قد يوازيها ويسير معها جنباً إلى جنب.

ولمّا كان هدف "مالك بن نبي" من صياغته لمفهوم (الثقافة) ليس مجرد المعرفة لمفهوم من المفاهيم، بقدر ما كان هدفه السعي إلى إمكان تحقيق تلك (الثقافة) على أرض الواقع في مجتمعنا، باعتبار كلّ عملية تركيبية ضرورية لفهم الأشياء، فقد وضع في إطار مشروعه التربوي لـ (للثقافة) محاور كبرى إذا ما استوفيت أتت أكلها في خلق إنسان فعّال توّاق إلى النهوض وبناء مجتمع قادر على العطاء وخوض معترك التدافع الحضاري بضمانات أكيدة في النجاح والتألق.

المبحث الثالث: الأسس الثقافية عند "مالك بن نبي".

تقوم فكرة (الثقافة) في جانبها التركيبي عند "مالك بن نبي" على أربعة عناصر هي:

أ/ التوجيه الأخلاقي لتكوين الصلات الاجتماعية.

ب/ التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام.

ج/ المنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام.

د/ الفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع، أو الصناعة حسب تعبير "ابن خلدون".⁽¹⁾

المطلب الأول: التوجيه الأخلاقي.

يحتل المبدأ الأخلاقي مركزا وبعدا جوهريين في مشروع "مالك بن نبي" الثقافي، لذلك يجعله في أولويات اهتمامه ويعتبره اللبنة الأساس في بناء صرح (الثقافة) والتأسيس لها؛ ذلك أنه يرى بأن العناصر المادية وغير المادية لا تكفي وحدها لصناعة (الثقافة)، وإنما لا بد لها من عنصر أخلاقي يربط بينها ويزيد من تفاعلها.

والحقيقة التي تتبادر إلى أذهاننا هي أنّ: « الثقافة لا تستطيع أن تُكوّن أسلوب الحياة في مجتمع معين، إلا إذا اشتملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبطا بهذا الأسلوب فلا يحدث فيه نشوزا بسلوكه الخاص، وهذا العنصر لا بد له من أن يكون خُلُقيا، فإذا تقرر وجود هذا العنصر كضرورة اجتماعية، فإننا نكون بهذا قد وضعنا فصلا مهما من فصول (الثقافة) وحقّقنا شرطا أساسيا من شروطها وهو المبدأ الأخلاقي». ⁽²⁾

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ "مالكا بن نبي" لا ينظر إلى عنصر الأخلاق من الزاوية الفلسفية، وإنما يتطلع إليه وفق المنظور الاجتماعي، الذي يهدف إلى ربط خيوط الصلات الثقافية من خلال ربط أفراد المجتمع الواحد بعضهم ببعض بأواصر المحبة والتعايش المستمد من قوله سبحانه و تعالى في

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 93.

⁽²⁾ مالك بن نبي: تأملات، ص 148.

محكم تنزيهه : ﴿ وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال، الآية 63)، وإن دلّ هذا على شيء، فإنما يدل على خضوعنا للرسالة المنزلة من الخالق- أو لنقل من السماء- من جهة، وعلى خضوعنا للمبدأ الأخلاقي من جهة أخرى.

يقول "مالك بن نبي" لتأكيد هذه الفكرة: « لسنا هنا نهتم بالأخلاق من الزاوية الفلسفية، ولكن من الناحية الاجتماعية، وليس المقصود هنا تشريح مبادئ خُلقيّة، بل أن نحدّد قوة التماسك الضرورية للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، هذه القوة مرتبطة في أصلها بغريزة الحياة في جماعة عند الفرد، والتي تتيح له تكوين القبيلة والعشيرة والمدنية والأمة، وتستعمل القبائل الموغلة في البداوة هذه الغريزة لكي تتجمع، والمجتمع الذي يجتمع لتكوين حضارة يستخدم الغريزة نفسها، ولكنه يهذبها ويوظفها بروح خلقي سام، هذا الروح الخُلقيّ منحة من السماء إلى الأرض، يأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات». (1)

ومعنى قوله هذا، أن المبدأ الأخلاقي يطبق على أرض الواقع وينطلق من الأفراد المنتمين إلى المجتمع والفاعلين فيه، وهذا يؤكد لنا العلاقة الطردية بين الاثنين، فمن جهة المجتمع يعتبر ضرورة ملحّة لحياة الأفراد الذين تربطهم صلات اجتماعية ببعضهم البعض وتجمع بينهم قوّة تجعلهم متماسكين مُتّحدين يُنشدون أهدافاً مشتركة، ومن جهة أخرى فتلك الأهداف المشتركة إنّما تسعى إلى النهوض بالمجتمع والقيام بنهضته وحضارته، وتلك الصلات الاجتماعية إنّما الهدف منها خلق واقع ثقافي جديد يتماشى مع هذا المجتمع.

ونحن هنا بربطنا ل (الثقافة) بالجانب الأخلاقي لا نستثني المجتمعات الغربية، على اعتبار أنّ كلمة (الأخلاق) تقود بنا إلى الإسلام؛ فالحضارات كلّها لها ديانتها و الديانات كلّها تدعو إلى خلق روابط المحبة وأواصر التعاون بين أفرادها، سواء أتوافقت تلك الأهداف التي تدعو إليها مع ديننا

(1) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 79.

الإسلامي وحضارتنا الإسلامية أم لا، فالمهم أنها تسعى إلى تحديد سلوكيات أفرادها وتطمح إلى تحقيق غايتها المنشودة.

وبعبارة أخرى، فأثّر العنصر الأخلاقي بارز في (الثقافات) كلّها، مهما كان الشكل الذي يبدو فيه هذا العنصر ومهما كانت الصيغ التي تعبّر عنه.

لتوضيح فكرته هذه، يسوق لنا "مالك بن نبي" المثال التالي: « لو أننا تناولنا بالدراسة مشروعاً اجتماعياً كجمعية حضانة الأطفال في (فرنسا)، لبدا لنا من أول وهلة أنها جمعية تقوم على شؤونها دولة مدنية، ونحكم بأحكامها مؤسسة نشأت في بادئ أمرها على أسس مدنية لا دينية، بينما لو درسنا تاريخها ورجعنا إلى أصول فكرتها الأولى لوجدناها ذات أصل مسيحي، فهي تدين بالفضل للقديس "فانسان دي بول" الذي أنشأ مشروع الأطفال المشردين خلال النصف الأول من القرن السابع عشر».⁽¹⁾

وعلى هذا، فللمبدأ الأخلاقي أثر في نشأة المؤسسات الاجتماعية أو في تكوين شبكة الصلات الاجتماعية- وإن تأتي لنا في صور وأشكال يصعب تبيانها وتمييزها- يقول "ابن نبي": «لو اتخذنا هذا المبدأ مقياساً يوضح لنا بعض الظواهر الاجتماعية التي تعترضنا أحياناً في صورة ألغاز لا ندرك معناها، فسوف نجد مثلاً أنّ العلاقات الشخصية لا تقوم في أيّ مجتمع على غير أساس أخلاقي».⁽²⁾

لقد كان لذلك التلاحم بين الأفراد، ولذلك التداخل بين خيوط شبكة علاقاتهم الاجتماعية، دور كبير وأثر بالغ في بزوغ الحضارة الإسلامية وفي إشراق شمس الحضارة الغربية. فإذا ما تحدثنا عن الحضارة الإسلامية، نذكر الرسالة المحمدية التي كانت في جوهرها رسالة أخلاقية، ونشير إلى المجتمع الإسلامي الذي يمجّد روح التماسك والتعاون بين أفرادها لإعلاء كلمة

⁽¹⁾ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 80.

⁽²⁾ مالك بن نبي: تأملات، ص 148.

الحق و الجهر بها.

هذا الرأي نفسه نجده عند "مالك بن نبي" من خلال قوله: « إنَّ روح الإسلام هي التي خلقت^(١) من عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين أوّل مجتمع إسلامي، حتى كان الرجل في المجتمع الجديد يعرض على أخيه أن يُنكح من يختار من أزواجه بعد أن يطلقها له، لكي يبي بذلك أسرة». (1)

والسبيل إلى عودة (الحضارة الإسلامية) لحلبة التاريخ هو المبدأ الأخلاقي، يقول "مالك بن نبي": «وقوّة التماسك هذه جديدة بأن تُؤلف لنا حضارتنا المنشودة وفي يدها _ضمانا لذلك_ تجربة عمرها ألف عام وحضارةٌ وُلدت على أرض قاحلة وسط البدو ورجال الفطرة والصحراء». (2)

وإذا ما تحدثنا عن (الحضارة الغربية)، نشير إلى أثر القيم الاجتماعية في إنتاجها وبنائها، يقول "مالك بن نبي": « أكبر مصادر خطئنا في تقدير المدنيّة الغربية أننا ننظر إلى منتجاتها وكأنها نتيجة علوم وفنون وصناعات، وننسى أنّ هذه العلوم والفنون والصناعات ما كان لها أن توجد لولا صلات اجتماعية خاصة، ولا تُتصوّر هذه الصناعات والفنون بدونها، فهي الأساس الخُلقي الذي قام عليه صرح المدنيّة الغربية في علومه وفنونه، بحيث لو ألغينا ذلك الأساس لَسَرى الإلغاء في جميع ما نشاهده اليوم من علوم وفنون». (3)

لتأكيد صحة رأيه هذا في نجاعة أهمية العنصر الأخلاقي ودوره في بناء صرح (الحضارة الغربية)، يسوق "مالك بن نبي" المثال التالي: «فلو تناولنا جهاز الراديو مثلا، لرأينا فيه مجهودات

(١) وردت في كتاب (مشكلة الثقافة): هو الذي خلق، ص 81.

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 96.

(2) المصدر نفسه، ص 96.

(3) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 80.

علمية وفنية مختلفة، دون أن يخطر ببالنا أثر القيم المسيحية في بنائه، بينما هو في الواقع أثر من آثار تلك العلاقات الاجتماعية التي وحدت جهودا مختلفة لـ "هرتز Hertz" الألماني و"بوبوف Popov" الروسي و"برانلي Branly" الفرنسي و"ماركوني Marconi" الإيطالي و"فليمنج Fleming" الأمريكي، فكان الراديو نتيجة هذه الجهود جميعا»⁽¹⁾.

تلك العلاقات الاجتماعية، ما هي إلا نتاج للرابطة المسيحية الإنسانية التي كان هدفها لم تشمل المسيحيين كلهم والابتعاد عن التعصب العرقي.

من هنا نتوصل إلى أن المبدأ الأخلاقي يقوم ببناء (عالم الأشخاص) الذي لا يمكن تصوّر (عالم المفاهيم) ولا (عالم الأشياء) بدونها، ومن هنا يجد "مالك بن نبي" ضالته ويصل إلى توضيح الفرق الذي يصفه بالجوهرى بين (الثقافة) التي تتضمن -بوصفها شرطا أوليا- تحديد الصلات بين الأفراد وبين العلم الذي لا يهتم إلا بالصلوات الخاصة بالمفاهيم والأشياء»⁽²⁾، وحثه في ذلك أن: «الرجل العالم قد يكون عنده إلمام بالمشكلة كفكرة، غير أنه لا يجد في نفسه الدوافع التي تجعله يتصورها عملا، في حين أنّ الرجل المثقف يرى نفسه مدفوعا بالمبدأ الأخلاقي - الذي يكون أساس ثقافته - إلى عمليتين: عملية هي مجرد علم، وعملية أخرى فيها تنفيذ وعمل»⁽³⁾.

والحديث عن المبدأ الأخلاقي لا يتوقف حسبه في حدود (عالم الأشخاص) ولا في حدود العلاقات بين الأفراد، بل يتجاوز ذلك إلى حد العلاقة التي تربط بين الإنسان وبين الحيوان، والتي تقوم هي الأخرى على أساس أخلاقي، يقول "مالك بن نبي": «غير أنّ المبدأ الأخلاقي في (الثقافة) لا يحدد الصلات داخل عالم الأشخاص فقط، حيث يغذي نزعة الإنسانية، بل نراه يبعث بإشعاعه إلى الخارج، لتشمل نزعة الإنسانية عالم الحيوان الذي يعيش مع الإنسان؛ فنجد في المجتمع المثقف

(1) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص (81/80).

(2) مالك بن نبي: تأملات، ص (149/148).

(3) المصدر نفسه، ص 149.

شعرا رقيقا يعبر عن عواطف الإنسان إزاء رفيقه غير الناطق، كما نجد فثا يحاول أن يترجم بالنحن أو بالريشة عن عواطف الحيوان، كما يحدث في أحيان أخرى مبالغات في هذا الاتجاه حينما نرى مطاعم للكلاب وحمامات ومقابر، وهذه المبالغات تعبر في الواقع عن انحراف يحدث في المبدأ الأخلاقي⁽¹⁾.

وخلاصة ما قلناه عن المبدأ الأخلاقي:

— (الثقافة) عاجزة عن تحديد معالم الطريق الصحيح للحياة الاجتماعية الفعالة إن لم تلتزم بالمبدأ الأخلاقي ولم تضعه في أولويات اعتباراتها.

— تكوين العلاقات الاجتماعية يقود إلى تشكيل شبكة الصلات الثقافية بين الأفراد والأشخاص، يقول "مالك بن نبي": «العلاقات الشخصية لا تقوم في أي مجتمع على غير أساس أخلاقي، ولما كانت شبكة الصلات الثقافية عبارة عن تعبير عن العلاقات الشخصية في مستوى معين، فإن هذه الشبكة لا يمكنها أن تتكون دون مبدأ أخلاقي»⁽²⁾.

— بفضل المبدأ الأخلاقي تتوحد الأفكار من أجل الوصول إلى الغايات وإن اختلفت الوسائل والسبل.

— المبدأ الأخلاقي، أو لنقل (الثقافة) في ظل المبدأ الأخلاقي، يصنع الفرد الخلاق المنسجم مع المجتمع المتناسك بعضه ببعض كتناسك البنيان المرصوص، عملا بقول الرسول الكريم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا»، فإذا ما أمتن هؤلاء الأفراد ربط خيوط وثاقهم ضمنوا وحدة مجتمعهم وسيورته ووظيفته واعتلت ثقافتهم صرحها وبلغت غايتها، وإذا ما أفلتوه تفكك مجتمعهم وتفككت - لا بل وزالت - معه ثقافتهم.

المطلب الثاني: التوجيه الجمالي.

⁽¹⁾ مالك بن نبي: تأملات، ص 148.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 148.

لا يكتفي بناء (الثقافة) بالقيم الأخلاقية التي أدرجناها فيما يسمى بـ (المبدأ الأخلاقي) بل يتعدّها إلى قيم جمالية تُعدّ الأساس الثاني من أساسات الثقافة عند "مالك بن نبي".

هنا تقودنا الضرورة إلى طرح الأسئلة التالية: ما المقصود بالذوق الجمالي؟ كيف يتدخل في بناء (الثقافة)؟ وهل من صلة تربط بينه وبين المبدأ الأخلاقي؟.

ينطلق "مالك بن نبي" في تحديده لمبدأ الذوق الجمالي من طبيعة العلاقة التي تربط بين الرجل وبين المرأة؛ تلك العلاقة التي تقوم على أسس جمالية، والتي يسعى عبرها كل طرف إلى الظهور بمظهر لائق أمام الآخر، إنّ على مستوى الدلالات اللغوية والصور الرمزية بالنسبة للمرأة، أو على مستوى القوة البدنية والعضلية بالنسبة للرجل.

تلك العلاقة بين الرجل وبين المرأة، وتلك الصور والدلالات، وتلك القوة العضلية، تصبّ في قالب الذوق الجمالي وتُعدّ مصدرا من مصادره وتعبّر عنه في أبسط صوره ومظاهره، يقول "مالك بن نبي": « وإنّ هذا المظهر من قبيل المرأة وتلك المحاولة من طرف الرجل ليعبّر عن ذوق الجمال في أبسط صوره؛ فكل علاقة تنشأ بين المرأة والرجل - مهما تكن درجة البساطة في المجتمع الذي يعيشان فيه - تقع بطبيعتها وبحكم الغريزة تحت قانون ذوق الجمال». (1)

إنّ الطقوس والممارسات التي تقوم بها المرأة لدوافع جمالية تخضع - حتما - لقانون المجتمع وتقع تحت وطأة حكمه ببساطته أو بتعقيده، الأمر الذي جعل التعبير عن قانون ذوق الجمال يتأتى في أشكال متعددة: « فالمرأة من قبائل الكونجو حينما تعمد إلى شقّ شفيتها لتركب فيهما قرطين من النحاس إنما تقوم بعملية جمالية مطابقة لتطوّر وسطها، والمرأة الصينية التي تضع في طفولتها قدميها في قالب من حديد حتى لا يزيد طولها عن قدر معين إنما تقوم بذلك لدوافع جمالية». (2)

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 106.

(2) المصدر نفسه، ص (107/106).

من هنا نتوصل إلى أنّ المجتمع _ مهما تكن درجة تطوّره _ يمدنا بقيم جمالية تُضاف إلى تلك القيم الأخلاقية التي سبق لنا الحديث عنها، ويقدر ما تكون (الثقافة) متطورة تقترب القيم الجمالية ومعها الأخلاقية من درجة الكمال.

إنّ (الثقافة) في ظل مبدأ الذوق الجمالي تسعى إلى تحميل الأشياء وتحسينها وتحاول تقديمها بمظهر لائق، لهذا يعدّ الجمال من أهم العناصر الديناميكية المحركة لـ (الثقافة) و المفعل لها، وهو يتجلى في شتى أنحاء الحياة على بساطتها وبدقائقها كلّها، يقول "مالك بن نبي": «الثقافة تمنحنا قيما جمالية، أي تمدّنا بالذوق الجمالي وتنمّيه في داخلنا، ذلك أنّ المجتمع الذي تأسّس وتكوّنت وحدته على أساس أخلاقي _ على ما نسميه بالمبدأ الأخلاقي _ يتطلب صورة ومظهرا، يتطلب تنظيمه الشكلي من حيث ملبسه ومعاشه وترتيب أشياء بيئته، الأشياء التي تتصل بالقيم الجمالية»⁽¹⁾، وبعبارة أخرى، الذوق الجمالي: «بضفي على الأشياء الصورة التي تتفق مع الحساسية والذوق العام ألوانا وأشكالا، فإذا كان المبدأ الأخلاقي يقرر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الدوافع والغايات، فإن ذوق الجمال هو الذي يصوغ صورته».⁽²⁾

وقولنا بالذوق الجمالي هنا لا ينحصر في الجانب الإيجابي كما توحيه الدلالة اللغوية لكلمة (الجمال) و إنّما يتعدّاه إلى جوانب سلبية، و صلة الربط بين هذا و ذاك، أي بين الجانبين الإيجابي والسلبي لذوق الجمال، هو الإطار العام الذي يتحرك ضمنه الفرد والمجتمع الذي تتجسد على بساط أرضيته التصرفات والسلوكيات والممارسات والمظاهر وكلّ ما يحوط الفرد من ألوان وصور وأشكال ... إلخ، هذا الجمال حسب تقدير "مالك بن نبي" إنّما: «يؤدي للإنسان بأفكاره ويطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل أو السّماجة القبيحة».⁽³⁾

(1) مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص 110.

(2) مالك بن نبي: تأملات، ص 149.

(3) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 98.

إذن: العنصر الجمالي يتجلى من المحيط العام، أي في البيئة الثقافية بكل عناصرها الأصيلة والوافدة، ويظهر في شكل إيجابي حين يسرّ المتأملين أو العكس حين يجعلهم يشمئزون منه، وفي هذه الحالة يبدو في صورة سلبية.

وعلى الرغم من أهمية العنصر الجمالي، نلمس تحليا عنه في بعض الحالات، والدليل على ذلك وجود بعض المشكلات الجزئية التي تعوق طريقنا وطريق (الثقافة)، والتي يتطلب حلّها تدخّل عنصر الذوق الجمالي، يقول "مالك بن نبي": «ولعل من الواضح لكل إنسان أننا أصبحنا اليوم نفقد ذوق الجمال، ولو أنه كان موجودا في ثقافتنا إذن لسخرناه لحل مشكلات جزئية تكوّن في مجموعها جانبا من حياة الإنسان».⁽¹⁾

ولتأكيد فكرته هذه يسوق لنا "مالك بن نبي" المثال التالي: «يكفينا للتدليل على ذلك ما نراه مثلا من شأن ذلك الطفل الذي يلبس الأسمال البالية القذرة التي إن شئنا وصفها لقلنا إنها ثياب حيكت من قاذورات و جراثيم، مثل هذا الطفل الذي يعيش جسمه وسط القاذورات والمرقعات غير المناسبة، يحمل في المجتمع صورة القبح والتعاسة معا، بينما هو جزء من ملايين السواعد والعقول التي تحرّك التاريخ ولكنه لا يحرك شيئا لأن نفسه قد دفنت في أوساخه، ولن تكفيها عشرات من الخطب السياسية لتغيير ما به من القبح وما يسوده من الضعة النفسية والبؤس الشنيع».⁽²⁾

ويضيف قائلا: «ولنستخدم أبسط معنى للجمال، ولننظر من قريب إلى أسمال هذا الطفل، فهي على كونها أسمالا تحمل معنى القبح وتحمل أكثر من ذلك جراثيم تقتله ماديا وأديا، فليست هذه الأسمال جرابا للوسخ فقط، ولكنها سجن لنفس الطفل أيضا».⁽³⁾

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 98.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 98.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص 99.

يوصلنا المثال إلى أنّ الملابس لها تأثير كبير على الذوق الجمالي؛ أي يمكن أن تؤدي إلى تهذيبه وجعله ذوقا متميزا في ثقافته، كما يمكن لها أن تجعله ذوقا منحطًا، معبّرة بذلك عن انحطاط جانب من جوانب (الثقافة) التي ينتمي إليها، و في هذا الصدد يقول "مالك بن نبي": «فإذا لاحظنا أنّ مرقعات طفلنا قد أصبحت بما تحمل من الأوساخ لا تقيه من البرد أو الحر، وجدنا أيضا أنّها لا تستدر في الإنسان عطفًا، بل تبعث فيه اشمئزازًا، وذلك بتأثير الصورة الشنيعة والرائحة الكريهة والألوان المتنافرة»⁽¹⁾.

لكن، هل فعلا تعكس لنا الثياب الصورة الحقيقية لصاحبها؟ إننا هنا نوجه نقدا لـ"مالك بن نبي"؛ ذلك أننا كثيرا ما نصادف أشخاصا يعكس مظهرهم الأنيق هيبتهم ووقارهم، إلا أنّهم في واقع الأمر عكس ذلك تماما بتصرفاتهم الشنيعة، وفي الوقت نفسه، قد نصادف أشخاصا ننفر من مظهرهم غير اللائق وملابسهم غير المناسبة، إلا أنّ وقارهم وهيبتهم الحقيقية تتجلى في تصرفاتهم.

هذا، وبيّن "مالك بن نبي" إمكانية تحويل الذوق الجمالي من الصورة السلبية إلى الإيجابية أو العكس: «إن دستور الجمال في النفس الإنسانية ليعبر عن هذه المأساة كلها بكلمة واحدة: إنه لمنظر قبيح!!، إلا أنه لا يقف عند هذا الحد، بل يوحى بالحل والمعالجة الممكنة، ومن المؤكد أننا لا نأتي له بثوب آخر، فنحن نريد أن نخلصه من قبحة في سرعة ويسر، وإذن فنحن نأخذ بيد هذا الطفل إلى الماء فننزع عنه مرقعاته ونأمره بأن يقوم بغسل واحدة منها ذات لون أقرب إلى الذوق، قطعة تكفي لستر عورته، يغسلها ثم يرتديها بعد أن يغتسل هو أيضا مما به من وسخ، ثم نأخذه إلى حلاق يخلق رأسه، ونتركه بعد ذلك يسير في حاله بعد أن نعلّمه كيف يقصد في مشيه وكيف لا يطأطئ رأسه، فبهذا لا يظل كومة متحركة من الأوساخ، بل يصبح طفلا فقيرا يسعى لقوته، نجد فيه صورة للفقر والكرامة لا القبح والمهانة»⁽²⁾.

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 99.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 99.

إنّ "مالك بن نبي" يجمع هنا بين المبدأين الجمالي والأخلاقي؛ ذلك أنه يقصد بتنظيفه للطفل: تخليص بدنه وثوبه مما عليهما من دنس، وتخليص روحه مما يعترىها من سلوكات تتنافى مع الدين الإسلامي و ينصّ عليها المبدأ الأخلاقي، وهذا ما نستشفه من قوله تعالى: ﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك﴾ (لقمان، الآية 19).

وحتى لا نذهب بتفكيرنا إلى اعتقاد أنّ وظيفة الذوق الجمالي في (الثقافة) تنحصر في حلّ مشاكل المساكين، بل الأمر يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير، يضيف: «ولا يظنّ ظانّ أننا بضرنا هذا المثل نرى أنّ ذوق الجمال يسعى لحل مشكلات المساكين فحسب، بل أردنا التذليل على تأثيره في المجتمع باختيار نموذج من صميم أوضاعنا الاجتماعية. أما تأثيره فعامّ يمسّ كل دقيقة من دقائق الحياة، كذوقنا في الموسيقى وفي الملابس والعادات وأساليب الضحك والعطاس وطريقة تنظيم بيوتنا وتمشيط أولادنا ومسح أحذيتنا وتنظيف أرجلنا».⁽¹⁾

طريقة أخرى تمكّنا من تغيير الذوق الجمالي من الصورة السلبية وتجعله يسلك الوجهة الإيجابية وضّحها "مالك بن نبي" من خلال القول التالي: «(...) صدرت أخيرا بعض الأوامر في مدينة (موسكو) نقلتها إلينا الصحافة (...)، تُلزم سكانها بأن يراعوا نظافة مدينتهم، فهم مهددون بفرض غرامة تبدأ من خمسة وعشرين روبلا إلى مئة روبل على كل من ييصق في الشارع أو يلقي بأعقاب السجائر على الرصيف أو يعلّق ملابسه في الشباك المطل على الشارع أو يلصق إعلانات على الحوائط، وأيضا كلّ من يركب السيارات العامة بملابس العمل المتسخة».⁽²⁾

من خلال المقولة، يتّضح لنا جليا أنّ الذوق الجمالي لا ينغرس في نفوس الأفراد بالفطرة ولا يتأصل في داخلهم فحسب، بل هناك قيود تسعى إلى جعله يسلك وجهة محددة- تكون إيجابية بطبيعة الحال.

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 100.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 100.

من جهة أخرى، إذا ما عمّقنا النظر في القول لوجدنا أنه أيضا يجمع بين المبدئين الجمالي والأخلاقي، لا بل هو يصدق على المبدأ الأخلاقي أكثر من الجمالي إذا ما أسقطناه على (الثقافة العربية) وعلى المجتمع الإسلامي؛ فإذا كان البصق في الشارع _ونعتذر على استخدام اللفظ_ وإلقاء السجائر على الرصيف (ونقصد به الأذى)، وتعليق ملصقات إعلانية قد تحوي صورا فاضحة مسألة جمال عند متبني (الثقافة الغربية)، فهي مسألة أخلاق _بالدرجة الأولى_ عند معتنقي الدين الإسلامي وعند رواد (الثقافة العربية).

من هنا يتوصل "مالك بن نبي" إلى النتيجة التالية التي تعبّر عن وجهة نظره حول عنصر الجمال: «والإطار الحضاري بكل محتوياته متّصل بذوق الجمال، بل إنّ الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة، فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا وأن نتمثّل في شوارعنا وبيوتنا ومقاهينا مسحة الجمال نفسها التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي، يجب أن يثيرنا أقل نشاز في الأصوات والروائح والألوان كما يثيرنا منظر مسرحي سيء الأداء».⁽¹⁾

ولمّا كانت العلاقة بين المبدأ الأخلاقي وبين الذوق الجمالي أمرا واقعا، فإنه حري بنا أن نتوقف عند الخطوط العريضة التي تحدد معالم هذه العلاقة، يقول "مالك بن نبي": «إن هناك على الخصوص صلة بين المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال، تكون في الواقع علاقة عضوية ذات أهمية اجتماعية كبيرة؛ إذ أنّها تحدد طابع الثقافة كله واتجاه الحضارة حينما تضع هذا الطابع الخاص على أسلوب الحياة في المجتمع وعلى سلوك الأفراد فيه».⁽²⁾

ويعلل بقوله: «فالحياة في مجتمع معين قبل أن تتأثر بالفنون والصناعات، أي بالجانب المادي والاقتصادي من الحضارة، تتخذ لها اتجاهها عاما ولونا شاملا يجعلان جميع تفاصيلها مرتبطة بالمبدأ الأخلاقي وبذوق الجمال الشائعين في هذا المجتمع، وبعبارة أدق: إنّها تكون مرتبطة بالعلاقة الخاصة

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص (100 / 101).

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 108.

القائمة بينهما، ونتيجة هذه العلاقة تأتي أولاً في ترتيب خاص يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على ذوق الجمال في سلم القيم الثقافية حتى يتكون نموذج معين من المجتمع بسبب هذا الترتيب». (1)

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أنّ أمر التقديم والتأخير بين المبدأين الجمالي والأخلاقي في سلم

القيم الثقافية يخضع لاعتبارات معينة، هذه الاعتبارات يمكن عدّها وليدة المجتمع الذي تكونت في رحمة (ثقافة) ما ونشأ بين أحضانه نشاط ثقافي معين.

وعليه، يمكننا القول أنّ هناك نموذجين من النشاط الثقافي في المجتمع: أحدهما يقوم فيه النشاط الاجتماعي على أساس الدوافع الجمالية أو الذوق الجمالي الذي يكون السمة الغالبة عليه، والآخر على أساس الدوافع الأخلاقية أو المبدأ الأخلاقي الذي يطبعه.

هنا نتوصل إلى أنّ المبدأ الأخلاقي لا يسير دائماً مع المبدأ الجمالي جنباً إلى جنب، وإنما كثيراً ما يعلن أحدهما قطيعته عن الآخر ويحاول التقدم على حسابه، وهذا طبعاً ليس محاولة منه للظهور بمظهر التميز، وإنما هو خضوع للمجتمع وللثقافة التي تكونت ضمنه، يقول "ابن نبي": «فالنموذجان اللذان يختلفان هكذا بسبب اختلافهما في ترتيب عناصر الثقافة لا يتطوران في اتجاه واحد، بل إنه في بعض الظروف تنشأ بينهما مناقضات جذرية، حتى إن الأمر الذي لا يريد أحدهما بل لا يمكنه أن يريد تحقيقه بسبب أخلاقي نرى الآخر يحققه بسبب جمالي». (2)

وهنا يعقد "مالك بن نبي" مقارنة بين الثقافة الإسلامية التي تسبق المبدأ الأخلاقي وبين الثقافة الغربية التي تسبق المبدأ الجمالي، ويستدل بالمثالين التاليين:

أ/ المجتمع الغربي الذي مارس فنّ التصوير - وعلى وجه الخصوص تصوير المرأة العارية - بسبب الدافع الجمالي، بينما لا نرى الفن الإسلامي قد خلف آثاراً في التصوير كذلك الذي نشاهده

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 108.

(2) المصدر نفسه، ص 109.

في متاحف (الحضارة الغربية)، لأن الرادع الأخلاقي في المجتمع الإسلامي لا يطلق العنان للفنان ليعبر عن ألوان الجمال كما بدا له، وعلى الخصوص جمال المرأة العربية، ولأن القيود الدينية تمنعه - لا بل وتحرم عليه - النظر إلى امرأة أجنبية عنه، فأثا له تعريتها و تصويرها و تدقيق النظر في مفاتها لَنَحَتْ صورتها أو رسمها !.

ب/ إن تطور الملابس في المجتمع الغربي قد انطلق من نقطة معينة هي إبراز جمال المرأة في الشارع بكل ما يمكن أن يوضح مظهره، بينما نجد أن تطور الملابس في المجتمع الإسلامي قد اتخذ اتجاهًا مخالفًا تمامًا للاختلاف، إذ هو يهدف بوسائل (ملاية اللف) أن يخفي جمال المرأة في الشارع.⁽¹⁾ يتوصل "مالك بن نبي" إلى أنّ الأمر في هذين الاتجاهين ليس مجرد أمر تفكير واختيار، وإنما هو أمر تقليد يخضع للوراثة الاجتماعية وللعادات والتقاليد، وليس يعني هذا أنّ (الثقافة الإسلامية) تفقد عنصر الجمال، وإنما تضعه في مكان آخر في سلم القيم؛ ذلك أن كلّ (ثقافة) تتضمن عنصر (الجمال) وعنصر (الحقيقة)، غير أنّ عبقرية إحداهما تجعل محورها (الجمال)، بينما الأخرى تفضّل أن يكون محورها (الحقيقة).

وإذا كانت (الثقافة الغربية) قد ورثت ذوق الجمال من التّراثين اليوناني والروماني على يد زعماء الفن والجمال أمثال "فيدياس Phidias" و"ميكائيل أنجلو Michel Angelo"، فإن (الثقافة الإسلامية) قد استمدت روح الإسلام وتعاليمه من الرسالة المحمدية التي تُعدّ رسالة أخلاق في المقام الأول، لقوله (صلى الله عليه وسلم): «إنما بعثت لأريكم مكارم الأخلاق».

هذا التأثير بالمبدئين، وذاك الاختلاف في وجهة النظر إليه، لا يقتصر على الحياة الاجتماعية للفرد، وإنما يتعداه إلى نطاق الحياة الأدبية، وهذا أمر طبيعي ما دام الأدب وليد البيئة التي أنتجته ومادام الأديب وليد البيئة التي نشأ وتأثر بها، فالعبقرية الأوروبية أنتجت مناهج أدبية كُتبت على

⁽¹⁾ ينظر مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 109.

رايتها خلال القرون أسماء لامعة منذ "أسشيل Zschyle" و"سوفوكل Sophocle" إلى "راسين" و"بلزاك" و"دستوفسكي"، غير أن هذه العبقرية بعيدة عن وحي التوراة والإنجيل والفرقان.

على العكس من ذلك، فالأدب العربي لم يُنتج لا التراجيديا و لا القصة، ولم يحاول أن

ينتجها إلا في القرن العشرين، وفي صور تدعو أحيانا للأسف، وعليه فإن كلّ (ثقافة) تتضمن علاقة (مبدأ أخلاقي_ذوق جمالي) تكون ذات دلالة عن نوع عبقرية مجتمع معين، وهي ليست تطبع إنتاجه الأدبي بطابع خاص فحسب، وإنما تحدد اتجاهه في التاريخ أيضا»⁽¹⁾.

بعبارة أخرى: (الثقافة الغربية) تمجّد مذهب الفن للفن، و(الثقافة الإسلامية) تنادي بالأدب الملتزم.

ونحن هنا لا ننفي عدم تأثر (الثقافة الإسلامية) بـ (الثقافة الغربية)، كما لا يمكننا إغفال لمسنا لنفحة الجمال في بعض الأعمال الأدبية التي تدفع بها أحيانا إلى التخلي عن مبادئ الأخلاق.

والواقع أن التقدم والتأخير بين المبدئين ينعكس حتى على الجانب السياسي، يقول "مالك بن نبي": «والتقدم والتأخير هذا ينتهي أيضا إلى تحديد مناهج سياسة مختلفة تمام الاختلاف، فبينما ينزع منهج إلى تأسيس ديمقراطية تجعل حرية الفرد هدفها، وذلك بدافع جمالي، إذا بالأخرى تنهج إلى ديمقراطية تستهدف سعادة المجتمع، وذلك بدافع أخلاقي»⁽²⁾.

مجمل القول: المبدأ الأخلاقي - في تعلقه بالشعائر الدينية - يعمل على ربط الفرد بالمجتمع، والمبدأ الجمالي - في تمجيده للصورة واهتمامه بالشكل - يعمل على الاحتفاظ للمجتمع ذاته ولأسلوب حياة الفرد فيه برونقه وجماله، وبهذا يتألف المبدآن ويتآزران ليأسسا (الثقافة) المنشودة وليحددا معالمها وأطرها.

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 111.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 112.

المطلب الثالث: المنطق العملي.

من الحديث عن المبدأ الأخلاقي، ومن الإشارة إلى الذوق الجمالي، يعرج "مالك بن نبي" إلى الحديث عن الأساس الثالث من أساسات (الثقافة)، وهو "المنطق العملي" الذي يرتبط بالمبدأين الأولين؛ ذلك أن: «المجتمع الذي تأسست وحدته وتشكل شكله، له حاجات ضرورية ويومية تتحقق بنشأة ما يسمى بالفعالية التي عبر عنها "مالك بن نبي" بمصطلح "المنطق العملي"». (1)

ولمّا كان الانبعاث الثقافي يعتمد بدرجة كبيرة على هذا الأخير، بات من الضروري أن نتوقف مع "مالك بن نبي" عند تحديد ماهيته وأطره، يقول: «لسنا نعني بالمنطق العملي ذلك الشيء الذي دُوّنت أصوله ووُضعت قواعده منذ "أرسطو"، وإنما نعني به كيفية ارتباط العمل بوسائله ومقاصده، وذلك حتى لا نستهل أو نستصعب شيئاً دون مقياس يستمد معاييرها من الوسط الاجتماعي وما يشتمل من إمكانيات، وليس من الصعب على الفرد المسلم أن يصوغ مقياساً نظرياً يستخرج به نتائج من مقدمات محددة، غير أنه من النادر جداً أن يعرف المنطق العملي، أي استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة». (2)

إنّ المنطق العملي هنا يرتبط بتركيب الحركات حسب نيتها، وبالوقت الذي تتخذه تلك الحركات ويستغرقه تنفيذها، فلمّا كانت نشاطات وحيثيات حياتنا اليومية تقوم على أساس الحركة، ولمّا كان التاريخ قائمة إحصائية لعدد معين من الحركات والأفكار، فإنه من البديهي أن يحصد لنفسه المجتمع -الذي يسجل يومياً أكبر عدد ممكن من الحركات والأفكار- محصولاً اجتماعياً أكبر؛ فالفرد الذي يسير عشر خطوات، ويحرك يده عشر مرات، يقدم للمجتمع من الثمرات أكثر مما يقدمه فرد يسير خطوة واحدة ويحرك يده مرة واحدة، والاعتبارات البديهية هذه هي التي أدت إلى تحديد فكرة

(1) مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص 111.

(2) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 85.

تبلور فيما يخص الإنتاج الصناعي، وإنما لتؤدي في مستوى آخر إلى تحديد مبدأ يخص الإنتاج الاجتماعي، وهو مبدأ المنطق العملي⁽¹⁾.

إن "مالك بن نبي" في حديثه عن ارتباط المنطق العملي بالحركة، إنما يقصد بذلك الحركة

الواعية الفاعلة و المؤثرة، لا الحركة الحاملة الجامدة.

لَمَّا كان "مالك بن نبي" ينزل إلى واقعه المعيش، ولَمَّا كان ينطلق من حيثيات الحياة اليومية على بساطتها وبتمثلاتها ليستدل على صحة آرائه وفرضياته، فقد قدّم لنا من الواقع المائل أمامه نماذج لتأكيد مقولاته حول عنصر الفعالية أو المنطق العملي، حيث يقول: «ونظرة إلى ما حولنا تكفينا لكي نلاحظ أنّ ضروب نشاطنا غالبا ما تتسم بالشلل وانعدام الفعالية في الجانب الخاص أو العام، ففي مدخل أحد مكاتب البريد رأيت مثلا منظرا عجيبا، رأيت رجلا يحمل مظاريف كثيرة يحاول أن يرتبها، وبديهي أن نحس بحاجته إلى عتبة أو حافة شبك ليتمكن من أداء عملية على ما يرام، لقد بحث الرجل فعلا عن عتبة، وظننت أنه لا بد واضع عليها بريده وضعا يجعله يتخذ منها نضدا صغيرا أمامه، وشدّ ما كان عجي حين وجدته بدلا من أن يضع عليها بريده، يقف عليها بقدميه ثم ينحني واضعا الخطابات أوطأ من نعليه في وضع يجعل عمله أشقّ وأكثر إجهادا»⁽²⁾.

وأعمق من ذلك بكثير، يتجسد أثر المنطق العملي في العلاقة بين الوالدين وبين الأبناء؛ أي في معاملة الأب لأبنائه، وفي تربية الأم لأطفالها، فأمر طبيعي أن يتمرد الأولاد على آباءهم ويخرجوا عن سيطرتهم إن لاحظوا قصورا في نمط تربيتهم وفي طريقة تعاملهم، يقول "مالك بن نبي": «...» ولننظر للأم التي تريد أن تربي ولدها، فهي إما أن تبدّله بمعاملة متوحشة، وإما أن ترخي له العنان

⁽¹⁾ مالك بن نبي: تأملات، ص 150.

⁽²⁾ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 86.

وتتميّع معه، فإذا أبدت إشارة أو أصدرت أمرا، شعر الطفل بتفاهة إرادتها فلم يعبأ بها، إذ أنّ الوهن والسخف يطبعان منطقها حتى في عين هذا الصبي المسكين».⁽¹⁾

هذان المثالان، وغيرهما كثير لا داعي للخوض فيها لألاّ نقع في الإطناب، خير دليل على انعدام المنطق العملي في حياتنا وثقافتنا، في وقت باتت فيه تفاصيل حياتنا في أمس الحاجة إليه ، وفي هذا يقول "مالك بن نبي: « ونحن أحوج ما نكون إلى هذا المنطق، لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا، غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه شيء يكاد يكون معدوما».⁽²⁾

من جهة أخرى، كشف لنا المثال الأول عن قصور في التفكير وعن سوء في استغلال الوقت والوسائل المتاحة، يقول: «وعندما نضيف هذا المبدأ الثالث إلى مفهوم الثقافة، فإننا نكوّن به شرطا هاما من شروط الفعالية في الفرد وفي المجتمع، ولا بد لنا أن نلاحظ أنّ تطبيقه يتضمن فكرة الوقت والوسائل البيداغوجية لبثّ هذه الفكرة في سلوك الفرد وفي أسلوب الحياة في المجتمع».⁽³⁾

لكننا نعيب على "مالك بن نبي" اعتماده على بسط الشواهد التي تثبت قصورا في المنطق العملي وسوءا في استغلاله، دون العمل على تقديم الأمثلة التي تؤكّد نجاحته.

وبعيدا عما قلناه عن العصر الذي عايشه "مالك بن نبي"، إذا ما أعملنا النظر في سنوات الألفين، وفي أيامنا هذه، لّلّمسنا قصورا واضحا في استغلال المنطق العملي، وأبسط مثال على هذا، استغلال الأراضي الزراعية في تشييد العمران والبنائيات، فضلا عن سوء استغلال الثروات الطبيعية.

⁽¹⁾ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 88.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 86.

⁽³⁾ مالك بن نبي: تأملات، ص (151/150).

وهنا يدفعنا الإلحاح إلى طرح السؤال التالي: ما سبب قصورنا هذا؟ أيعود إلى سوء استغلالنا للوقت وعجزنا عن النهوض والحركة الفاعلة؟ أم إلى ركودنا الثقافي والحضاري؟ وليزيل "ابن نبي" اللبس عنا يطرح الفكرة التالية: «وإذا ما أردنا حصرًا لهذه القضية، فإننا نرى سببها الأصيل في افتقارنا الضابط الذي يربط بين الأشياء ووسائلها وبين الأشياء وأهدافها، فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، وفكرتنا لا تعرف التحقيق، وإنّ ذلك كله ليتحقق في كل عمل نعمله وفي كل خطوة نخطوها (...).، ألم نقل إنّ الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة ولكن منطق العمل والحركة، وهو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلامًا مجردًا، بل إنه أكثر من ذلك يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيرًا مؤثرًا ويقولون كلامًا منطقيًا من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط».⁽¹⁾

من هنا: نخلص إلى أنّ المنطق العملي هو القلب الذي تنضبط داخله تصرفاتنا وتتسع ضمنه حركتنا البناءة؛ تلك الحركة الهادفة إلى إخراج الأفكار التي تعوق بنا من قوتها، وإلى جعلها نرى النور، وبهذا نحقق جانبًا من جوانب هويتنا الثقافية.

وقولنا هذا يدفعنا إلى الحديث عن نقطة هامة، وهي العلاقة الوطيدة التي تجمع بين العنصر الأخلاقي وبين المنطق العملي؛ ذلك أن حياتنا اليومية يعترها كثير من الضبابية واللافعالية التي نستشفها من خلال المحاولات العبثية والتصرفات الهزلية، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على تملّصنا من عنصر الأخلاق.

وخلاصة ما قلناه عن مبدأ المنطق العملي:

— المنطق العملي ضرورة من ضرورات حياتنا وأساس من أساسات ثقافتنا، تتجلى أهميته في كونه يتفصّل عن الوسائل المناسبة التي تضمن لنا القيام بممارساتنا الاجتماعية والثقافية بأقل الأوقات

⁽¹⁾ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 88.

وبأبسط التكاليف، مع استخلاص أعظم ما يمكن من الفائدة، ومن ثمّ بات المنطق العملي الأساس الذي يتوقف عليه ازدهار حياتنا _وطبعا ثقافتنا_ وانتعاشها، أو جمودها وفشلها.

المطلب الرابع: الصناعة الفنية (الفن التطبيقي).

الأساس الرابع من أساسات (الثقافة) هو (الصناعة الفنية) التي يعدّها "مالك بن نبي" همزة الوصل بين الجانب المعنوي لـ (الثقافة) _الذي يصطلح عليه بـ (عالم المفاهيم)_ وبين جانبها المادي _أي (عالم الأشياء) على حد تعبيره _ وهنا يصرّح بقوله: «على أننا حتى هذه النقطة من حديثنا (ويقصد المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي والمنطق العملي)»^(*)، لم نشر إلا إشارة عابرة إلى عالم الأشياء، بينما نحن لا نتصور حياة الإنسان دون جانبها المادي، كما لا نتصور شيئاً لا يصدر عن فكرة معينة تتصل بطبيعتها بعالم المفاهيم، وإنّ هذا ليفرض علينا أن نحدد عنصراً رابعاً للثقافة، فالمبدأ الأخلاقي وذوق الجمال والمنطق العملي لا تكون شيئاً من الأشياء إن لم تكن في أيدينا وسائل معينة لتكوينه، والعلم هو الذي يعطينا تلك الوسائل؛ فالعلم _أو الصناعة حسب تعبير "ابن خلدون" _ يكوّن عنصراً هاماً في الثقافة، لا يتم بدونه تركيبها ومعناها».⁽¹⁾

إذن: ما دامت الصناعة عنصراً حيويًا من عناصر (الثقافة) وركناً فعالاً من أركانها، فما مقصود "مالك بن نبي" بها؟.

يقول "مالك بن نبي": «لا نعي بالصناعة ذلك المعنى الضيق المقصود من هذا اللفظ بصفة عامة في البلاد الإسلامية، فإنّ كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم تدخل في مفهوم الصناعة».⁽²⁾

يتضح من هنا أنّ المقصود بالصناعة هو التوجيه الفني، وهو تقسيم العمل والإعداد التقني

^(*) الكلام بين قوسين من إضافتنا وليس كلام المؤلف.

⁽¹⁾ مالك بن نبي: تأملات، ص 151.

⁽²⁾ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 88.

التقني للفرد في مجتمعه، فمنذ أن قامت الإنسانية أصبحت هناك تقنية موجودة، فهذا بناءً، وذاك طبيب أو أستاذ، والآخر خياط... إلخ.⁽¹⁾

هذه التقنيات جميعها تتكاثف لأداء وظيفة واحدة، وهي تسخير ما اكتسبه الفرد من مجتمعه أو تعلمه في جامعته/مدرسته لإثبات وجوده وضمان عيشه الكريم، ولتحقيق كيانه الذي خضع لمبدأ أخلاقي، وتمتع بذوق جمالي، وقام على منطق عملي، بغض النظر عن رتبته في سلم المهنة، حيث يقول: «الراعي نفسه له صناعته، ومما يدلنا على القيمة الاجتماعية لهذه الحرفة المتواضعة الزهيدة، أن لها مدرسة أهلية في (فرنسا) بمدينة (رامبوليه) إحدى ضواحي (باريس)، فلو رأينا الراعي الخريج من هذه المدرسة، والراعي العربي يقود كلّ منهما قطيعه، لعلمنا أيّ فرق بينهما؟».⁽²⁾

وبطبيعة الحال، فحديثنا عن الفرد إنما هو حديث عن المجتمع الذي تكوّن ضمنه ذلك الفرد، يقول "مالك بن نبي": «ومن المسلمّ به أن الصناعة للفرد وسيلة لكسب عيشه، وربما لبناء مجده، ولكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه. وعليه يجب أن نلاحظ في كل فن هذين الاعتبارين».⁽³⁾

والقضية التي تطرح نفسها في هذا المجال هي: كيف يمكن حلّ مشكلة الصناعة الفنية في (الثقافة)؟.

يعتقد "مالك بن نبي" أنّ الحلّ يكمن في التوجيه الفني فيقول: «إننا لنرى ضرورة إنشاء مجلس للتوجيه الفني ليحل نظريا وعمليا المشكلة الخطيرة للتربية المهنية تبعا لحاجات البلاد».⁽⁴⁾

⁽¹⁾ مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص (111/112).

⁽²⁾ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 88.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص 88.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ص 88.

وبهذا تصبح هذه النشاطات والأعمال في ميدان الصناعة الفنية من مميزات (الثقافة)، وهذا يقود بنا في نهاية المطاف إلى التحضر: «وهذا الحل المنطقي لمشكلة التوجيه الفني هو الذي يتيح لرجل الفطرة ورجل المدينة أن يلجا باب الحضارة التي بدأت فعلا، ولكنها واقفة في مفترق الأقدار وفي مهب الأهواء، والمبادئ قلقة لا تعرف لنفسها طريقا». (1)

لكن، على الرغم من أهمية عنصر الصناعة الفنية، ورغم فعاليته في بناء (الثقافة) المنشودة، لا ينبغي علينا الاعتماد عليه - أو لنقل الاعتماد على العلم - في بناء (عالم الأشياء) وإهمال (عالم المفاهيم)، لأن ذلك يوقع ب (الثقافة) في متاهات عميقة و يدفع بها إلى ما لا تُحمد عقباه، و في هذا الصدد يقول "مالك بن نبي": «ولسوف تخيب آمالنا التي عقدناها إذا ما عوّلنا في قضيتنا على العلم الذي نتعلمه في المدارس الرسمية أو غير الرسمية». (2)

(1) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 89.

(2) المصدر نفسه، ص 89.

استنتاجات:

تطرقنا في هذا الفصل إلى قضية من القضايا الجوهرية التي شغلت بال المفكر "مالك بن نبي" على مدار فصول من مؤلفاته، وتوصلنا إلى تسجيل النقاط التالية:

– "مالك بن نبي" يدرس (الثقافة) في شكل مناهج وبرامج تربوية وفقا لأصول المجتمع وتطورات العصر.

– يتضح من خلال معالجته لموضوع (الثقافة) أنه يتخذ من الواقع اليومي الذي يعيشه، ومن تجاربه الذاتية، بالإضافة إلى أمهات المصادر، منطلقا لتحديد مدلولها والبحث عن أسسها والعناصر المكونة لها.

– استطاع إعطاء نظرة شاملة عن (الثقافة) وما تحتويه من عناصر، فهو حين يطرح مشكلة (الثقافة) وحين يحدد مفهومها اللغوي والتاريخي والاجتماعي، لا تهمه الدراسة النظرية لهذه الظاهرة، بقدر ما يهتمه بناء (الثقافة) التي انهارت جوانبها نتيجة لظروف تاريخية معروفة. لذا نراه يبحث في أسس أية (ثقافة) من الثقافات، وينتهي به المطاف إلى حصرها في أربعة محاور هي: المبدأ الأخلاقي (التوجيه الأخلاقي)، التوجيه الجمالي، المنطق العملي، الصناعة الفنية (التوجيه الجمالي).

الفصل الثاني:

مقومات الفكر الحضاري عند "مالك بن نبي"

تمهيد.	المبحث الثالث: عناصر الحضارة عند "مالك بن نبي"
المبحث الأول: تعريف الحضارة.	تمهيد.
تمهيد.	المطلب الأول: الإنسان.
المطلب الأول: المدلول اللغوي للحضارة.	أولا: توجيه الثقافة.
أولا: في الفكر الغربي.	ثانيا: توجيه العمل.
ثانيا: في الفكر العربي.	ثالثا: توجيه رأس المال.
المطلب الثاني: المدلول الاصطلاحي للحضارة.	المطلب الثاني: التراب.
أولا: مفهوم الحضارة عند "ابن خلدون"	المطلب الثالث: الوقت.
ثانيا: مفهوم الحضارة في العصر الحديث	المبحث الرابع: الدورة الحضارية عند "مالك بن نبي".
ثالثا: مفهوم الحضارة في الفكر الإسلامي المعاصر	تمهيد.
المبحث الثاني: تعريف الحضارة عند "مالك بن نبي".	المطلب الأول: تعريف الحضارة عند "مالك بن نبي".
تمهيد.	المطلب الثاني: مراحل الحضارة عند "مالك بن نبي"
المطلب الأول: الحضارة من الناحية الوظيفية.	وتجلياتها.
المطلب الثاني: الحضارة من ناحية التحليل والتركيب.	استنتاجات.

لقد شغلت فكرة (الحضارة) اهتمام العديد من المفكرين والمصطلحين والمؤرخين، وكان "مالك بن نبي" من بين هؤلاء، إذ احتلت (الحضارة) عنده مكانة مركزية، فكانت المحور الرئيس والإطار الأساس الذي تتمحور حوله أفكاره وتدور في نطاقه نظرياته.

وقد عمل على دراستها من زوايا مختلفة، فأحاط بجميع جوانبها التاريخية والنفسية والوظيفية باعتبارها ظاهرة كونية، فكانت مشكلة كل شعب في جوهرها مشكلة حضارته، ولعل هذا ما دفعه إلى جمع إنتاجه الفكري تحت عنوان: «مشكلات الحضارة».

فما هي (الحضارة)؟ ماذا تعني في فكر "مالك بن نبي"؟ ما هي مقوماتها وعناصرها؟ وإلى أي مدى وُفق في تلك المفاهيم وتلك الأسس التي وضعها من أجل أن تقوم (الحضارة)؟.

والإجابة على هذه الأسئلة تتطلب منا بيان فكرة (الحضارة) لديه من جميع جوانبها، لكي تتجلى تجليا تاما، ولكي يتضح مراده منها.

المبحث الأول: تعريف الحضارة.

يجدر بنا، قبل التطرق للحديث عن (الحضارة) عند "مالك بن نبي"، أن نصور كنهها ونحاور مفهومها في اللغة والاصطلاح، من خلال البحث في جذور المصطلح، ومن خلال تتبع تطوره وتبلوره في الفكرين الغربي والعربي، لا سيما وأنّ "مالكا بن نبي" قد تطرّق للموضوع من جوانب واتجاهات متعددة لا يمكننا معرفة حقيقتها، ولا الوصول إلى جوهرها، إلا إذا تكون لدينا تصور قبلي وواضح عن (الحضارة) ومفهومها.

ونشير هنا، إلى أنّ مفهوم (الحضارة) يعدّ من أكثر المفاهيم التي أخضعت لعملية متواصلة من التلبس والتشويه وطمس الدلالات بصورة أدّت إلى تحويله (المفهوم) إلى صفة ذات أبعاد قيمية تفقد الماهية والمصادقات.

المطلب الأول: المدلول اللغوي للحضارة.

أولاً: في الفكر الغربي.

ظهرت كلمة (حضارة) (civilisation) في اللغة الفرنسية عام 1734م، وينحدر أصلها من صفة (civilisé) (متحضر) (ق 17)، هذه الصفة بدورها منحدرّة من الفعل (civiliser) (ق 13) المشتق من الظرف (civilement) (ق 14)، ومن صفة (civil) (مدني متحضر) (ق 13) المأخوذة بدورها من اللغة اللاتينية (civilité) (ق 14) و(civites) بمعنى (مدنية) و(civis) بمعنى (ساكن المدينة).⁽¹⁾

ومنذ بداية ظهور الكلمة اقترن مفهوم الانتماء إلى المدينة دلالياً بمفهوم التهذيب، وبهذا ارتبطت شأن مرادفتها (culture) بعملية اكتساب الصفات المحمودة على مستوى الأفراد أو

⁽¹⁾ ينظر رولان بارت: جغرافيا الحضارات، تر (خليل أحمد خليل). منشورات عويدات، ط1، بيروت، 1993، ص 19.

المجتمع ككل، وكانت ترد في الغالب بصيغة الفعل (civiliser) لا المصدر.⁽¹⁾

مع أواخر (القرن 18) ومطلع (القرن 19) بدأت كلمة (civilisation) تدخل حقل المصطلح العلمي وتحرر من الدلالات المجازية، وأصبحت تعني حالة (التحضر) وتقابل (التوحش والهمجية)، و(المتحضر) هو الذي يحمل جملة من الصفات المكتسبة من خارج الطبيعة، ومجموع الصفات والظواهر المميزة للعالم المتقدم الذي يمثله الإنسان الأوروبي آنذاك.

وإذا رجعنا إلى قاموس اللغة الفرنسية (Le Petit Larousse Illustré) نعثر لها على التعريف التالي: « مجموعة من الميزات والقيم الشاهدة على درجة التقدم الإنساني وتطور المجتمعات الإيجابية ». ⁽²⁾

ثانيا: في الفكر العربي.

يدور المعنى للجذر (ح، ض، ر) في اللغة العربية حول الدلالات التالية:

جاء في لسان العرب لـ "ابن منظور": الحضور نقيض المغيب والغيبية، والحَضْرُ: خلاف البدو والحاضر خلاف البادي، والحَضْرُ والحَضْرَة والحاضِرَة خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف، وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار.

ورجُلٌ حَضِرٌ: لا يصلح للسفر، وهم حُضُور أي حاضرون، والحاضِرُ: الحَيُّ العظيم.⁽³⁾

قال "القطامي": ومن تكن الحضارة أعجبته فأبي رجل بادية ترانا.⁽⁴⁾

جاء في المعجم الوسيط: «حَضَرَ فلان حضارة، أقام في الحَضْرِ، الشيء والأمرجاء، والصلاة

⁽¹⁾ ينظر قسطنطين زريق: في معركة الحضارة، ص 35.

⁽²⁾ Le Petit Larousse Illustré, Paris, Larousse, 2007, p 251.

⁽³⁾ ابن منظور: لسان العرب، مج 4، مادة (حضر)

⁽⁴⁾ المرجع نفسه.

حان وقتها، وحاضرَ فلانُ القوم: جالسهم وحادثهم بما يَحْضُرُهُ، وتحضّر: تخلّق بأخلاق أهل الحضرة وعاداتهم، و(الحضارة) مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني ومظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضرة». (1)

إذا ما عدنا إلى القرآن الكريم، نجد مادة (ح ض ر) تخرج للدلالة على معنى الشهادة، (الحضور) نقيض (المغيب)، ومن المواضع التي وردت فيها، قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ (النساء، الآية 8)، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْأَقْرَبِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (البقرة الآية 180)، وقوله أيضا: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ (النساء، الآية 128)، وقوله: ﴿كُلَّ شَرْبٍ مُحْتَضِرٍ﴾ (القمر، الآية 128)، أي يَحْضُرُهُ مستحقوه.

وارتباط (الحضارة) ب (الشهادة) هنا له دلالتة، فهي (الشهادة) تأتي بمعنى التوحيد والإقرار بالعبودية لله تعالى، وهذا محور العقيدة الإسلامية، وعلى هذا الأساس تكون (الحضارة) من المنظور القرآني: نموذجاً إنسانياً يستنبط قيم التوحيد والربوبية، وينطلق منها كبعد غيبي يتعلق بوحداية خالق هذا الكون وواضع نواميسه وسننه والمتحكم في تفسيره، ومن ثمّ فإنّ دور الإنسان ورسالته هي تحقيق الخلافة عن خالق هذا الكون من تعميم أرضه وتحسينها والانتفاع بخيراتهما وبناء علاقة سلام معها، لأنّها مخلوقات تسبح بحمد الله أو رزق لا بد من حفظه وصيانتها، وكذلك إقامة علاقة مع بني الإنسان في كل مكان على ظهر الأرض، أساسها الأخوة والألفة وحب الخير والدعوة إلى سعادة الدنيا والآخرة. (2)

كما وردت كلمة (الحضارة) في حديث نبوي شريف، يقال أنه مروى عن النبي (ص) في

(1) المعجم الوسيط، مادة (حضر).

(2) ينظر محمد نصر عارف: (الحضارة، الثقافة، المدنية). دراسة لسيرة المصطلح، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، دم،

1994م، ص 59.

قوله: «لا يبيعت حاضر لباد».

يظهر من خلال التعاريف اللغوية المسوقة عن (الحضارة) أنها لا تكاد تختلف في مضامينها، ذلك أن المعاجم اللغوية انتهت إلى أن ماهية الكلمة ترتبط بدلالة مكانية تحمل في طياتها جانبا من جوانب الحركة المقصودة، ثم ما لبثت هذه الدلالة المكانية أن تطورت لتصور مظهرا من مظاهر الرقي والتطور والتقدم والتفنن في شيء من ضروب الحياة ومجالاتها.

المطلب الثاني: المدلول الاصطلاحي للحضارة.

إذا ما أردنا ضبط مصطلح (الحضارة) لا نعثر له على تعريف اصطلاحي واحد موحد وشامل، بل مفاهيمه متنوعة ومتعددة تعكس مدى تعقيد موضوع (الحضارة) وعمق أفكاره وصعوبة الإحاطة به، وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على عدم تكامل الرؤية حولها، فكل طائفة عبّرت عنها بناء على تصور خاص لفلسفتها يعكس تكوين أصحابها الفكري والنفسي... إلخ.

وسنحاول في سطورنا الموالية عرض بعض مفاهيم (الحضارة) لبعض الدارسين في الفكرين الغربي والعربي.

أولا: مفهوم الحضارة عند "ابن خلدون".

ورد معنى مصطلح (الحضارة) - أو قريبا منه - مكررا في مقدمة "ابن خلدون"، وكان ذلك أسبق بعدة قرون ممن خاض في هذا الميدان من علماء الغرب الذين اعتبروا روادا لهذه الدراسات.

لقد استعمل "ابن خلدون" مصطلح (ال عمران) للتعبير عن الاجتماع البشري ونتاجه، واستعمل (علم العمران) مشيرا إلى دراسة ظواهر هذا الاجتماع؛ فهو يستعمل العمران البشري ليشير به إلى (الحضارة) والاجتماع الإنساني وما يتعلق به، ويعني هنا العمران العام، بغض النظر عن نوع

(الحضارة)، وإن كانت نوعية هذه (الحضارة) الفاضلة ومستواها الإنساني كامنة في فهمه وتصوره عموماً وشمولاً وأساساً وقياساً.⁽¹⁾

وهنا يقول "ابن خلدون": «اعلم أنّ حقيقة التأريخ خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما يتحلله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعة الأحوال».⁽²⁾

ويقول أيضاً: « الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العمران».⁽³⁾

كما استخدم "ابن خلدون" صيغة التمدن بمعنى التحضر أو (الحضارة) فقال: « اعلم أنّ البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم (...)، وأنّ الحضرة المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم، ولا شك أنّ الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه، لأنه أول مطالب الإنسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلًا، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة، ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها، ومتى حصل على الرّياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج إلى الدعة

⁽¹⁾ ينظر عبد الرحمن عالي الحجي: أضواء على الحضارة والتراث. شركة شهاب للنشر والتوزيع، دط، الجزائر، دس، ص (69/68).

⁽²⁾ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون. تح (محمد الاسكندراني)، ديوان المبتدئ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الكتاب العربي، دط، بيروت، 2008م، ص 41.

⁽³⁾ المرجع نفسه، ص 48.

وأمكن نفسه إلى قيادة المدنية (...)، واعلم أنّ البدو أصلٌ للحضر ومتقدم عليه وأنّ أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها». (1)

و(الحضارة) عنده تعني أيضا الاستقرار وما ينتج عنها من فنون الحياة ومظاهرها، حيث يقول: «ال عمران هو التساكن والتنازل في مصر، أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لِمَا في طباعهم من التعاون على المعاش (...)، ومن العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال (...)، ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدن للمدر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها». (2)

لقد استخلص "ابن خلدون" من دراسته للعمران أن الحضارة تتعاقب على الجنس البشري في ثلاثة أجيال أو مراحل، وهي مراحل حتمية يكون فيها التدهور نهاية كل (حضارة) وهي:

1/ مرحلة البداوة: يتسم هذا الجيل بالشجاعة وتماسك العصبية والإنتاج البسيط.

2/ مرحلة التحضر: وفيه يتم الانتقال من البداوة إلى التحضر عبر اكتساح الأطراف للمراكز، والعامل الحاسم في هذا الانتقال من البداوة إلى التحضر هو تماسك قوة العصبية، وبعد الاستقرار يتجهون إلى تأسيس الدولة وجمع المال والانغماس في الترف وبناء القصور وإعداد الجند، وتكون الدولة مرهوبة الجانب.

3/ مرحلة التدهور: في هذه المرحلة يشتد بطش الحاكم وعصبيته، وتضعف الدولة نتيجة لزيادة الترف، وتصبح العصبية غير قادرة لا على تحصيل حاجاتها ولا على الدفاع عن الدولة، ويطمع الأعداء في الاستيلاء على ثروة دولة منهاره، ويشتد غضب المحكومين من الحاكم لزيادة فرضه الجباية واستعانتة بالموالي، ويزداد الاستهلاك ويقل الإنتاج، وتتفاقم الأوضاع فيحدث التدهور وتتهوى الدولة

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 123.

(2) المرجع نفسه، ص 46.

تحت قبضات الخارجين والأعداء، ذلك أن الموالي لا يمكن أن يكونوا أكثر إخلاصاً من عصبية الحاكم.

وفي هذا الصدد يقول "ابن خلدون": « الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر والبعد عن الخير»⁽¹⁾، وهنا يشير إلى المرحلة الأخيرة التي تمر بها الدولة. وعلى هذا أمكننا القول أنّ (الحضارة) عند "ابن خلدون" إنما هي مرحلة من مراحل الرقي والنمو والنشاط الذي تحققه دولة من الدول أو أمة من الأمم، والتي تكون بعدها مرحلة الانهيار والزوال والانحطاط.

لقد سجلّ "ابن خلدون" - من خلال تعريفه ودراسته لـ (للحضارة) - مفهوم (الدورة الحضارية) التي كان لـ "مالك بن نبي" حديث مطول عنها.

وهو في حديثه عن (الحضارة) و(الدورة الحضارية) يقرنهما بالتاريخ، إلا أنّ ما يسجل عليه هو أنه جعل (دورة الحضارة) تسير وفق وتيرة واحدة: بداوة، تحضر، ترف، تدهور، فكأن (حضارة) المجتمع ليست أبدية بل شأنها شأن الكائن الحي تعيش دورة الحياة والموت، وكأنها مجرد مرحلة تاريخية تمر بها دولة أو أمة معينة ويكون مصيرها الأفول والزوال، لتولد معها (حضارة) ثانية تمرّ بالمراحل نفسها - أو بالدورة ذاتها - وتنتهي إلى مصير ومآل واحد.

ولمّا كنا قد أشرنا سابقاً إلى أنّ "مالك بن نبي" قد اتبع منهجاً محدداً يقتضي الوقوف على آراء غيره من الدارسين حول المواضيع التي تعوق تفكيره ومحاولة تقويمها قبل أن يعرج إلى تحديد مفاهيمه حولها، فطبيعي أن يكون قد وجّه نقده إلى تعريف "ابن خلدون" قصد تقويمه أو قصد الزيادة عليه أو الاستمداد منه.

يرى "مالك بن نبي" أن استخدام "ابن خلدون" لمصطلح الدولة لا يعدو كونه أحد منتجات

⁽¹⁾ ابن خلدون: المقدمة، ص 124.

(الحضارة) حيث يقول: « (...) لولا أن مصطلح عصره قد وقف به عند ناتج معين من منتوجات الحضارة، ونعني به الدولة وليس الحضارة نفسها، وهكذا لم نجد فيها ترك "ابن خلدون" غير نظريته عن تطور الدولة، في حين أنه كان من الأجدى لو أن نظريته رسمت لنا تطور الحضارة».⁽¹⁾

ثانيا: مفهوم الحضارة في العصر الحديث.

يقول "مالك بن نبي" « ومهما يكن من أمر، فإن المصطلح الحضاري بتصريفاته المختلفة قد فرض نفسه في القرن الأخير بعد الاحتكاك الثقافي الشامل بين الشرق والغرب وتقدم الأخير في حقول فلسفة التاريخ والدراسات الحضارية».⁽²⁾

من هنا نتوصل إلى تعدد استخدامات مصطلح (الحضارة) في أعمال وكتابات مفكري العصر الحديث، حتى أصبح من الصعب العثور على معنى جامع له.

تعريف الحضارة عند "ول ديورانت" "Will Durant":

الحضارة عنده: « نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع والإبداع والإنشاء، وبعده لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهض للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها».⁽³⁾

إنّ "ول ديورانت" بتعريفه هذا يناقض النظرة التي خلص إليها الفكر الفرنسي مطلع (القرن 19)، والنظرة التي استشفتها المعاجم اللغوية، والتي أخرجت البدو والقبائل من نطاق

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص (70/69).

⁽²⁾ ينظر عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ. دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1975، ص 174.

⁽³⁾ ول ديورانت: قصة الحضارة (نشأة الحضارات). تر (زكي نجيب محمود)، ج1، دط، بيروت، دس، ص 3.

(الحضارة) و(التحضر)، وحسبَه حتى المتوحش بوسعه الوصول إلى حالة التحضر والتمدن لأنه يُعنى بنقل تراث قبيلته إلى بني جلدته، وما تراثه هذا إلا مجموع النظم والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية التي حاول النهوض بها وسعى إلى تقويمها وتعديلها بعد أن وُقِّرت له - أو بعد أن وُقِّر لنفسه - عوامل قيامها من أمن واستقرار.

من ناحية أخرى، نلمس في تعريف "ديورانت" هذا نفحة من نفحات (الثقافة) التي سبق لنا الحديث عنها، وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن فحوى العلاقة بين (الثقافة) وبين (الحضارة).

تعريف "ألبرت شفيتسر" "Albert schweitzer":

يعرّفها بقوله: «الحضارة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماعات والجماهير على السواء». (1)

و(الحضارة) عنده تكتسي صبغة أخلاقية بحتة، فهو يرى أنها بكل بساطة: « بذل الجهود، بوصفنا كائنات حية من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم، وهذا الموقف يتضمن استعدادا مزدوجا، فيجب أولا أن نكون متأهبين للعمل إيجابيا في العالم والحياة، ويجب ثانيا أن نكون أخلاقيين (...). إنّ الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزمًا واضحًا صادقًا على بلوغ التقدم، ويكرّسون أنفسهم تبعًا لذلك لخدمة الحياة وخدمة العالم، وفي الأخلاق وحدها نجد الدافع القوي إلى مثل هذا العمل فتجاوز حدود وجودنا». (2)

يبرز هذا التعريف العلاقة والترابط القوي بين الجانبين المادي والروحي ودورهما في قيام أي (حضارة) ونشوئها، فلا يمكن إغفال أحد الجانبين ولا تقديم أحدهما على الآخر، ومن هنا أمكننا

(1) ألبرت شفيتسر: فلسفة الحضارة، تر (عبد الرحمن بدوي). المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، دط، دم، دس، ص

(2) المرجع نفسه، ص (6/5).

القول بأن (الحضارة) هي حياة الفرد داخل المجتمع بتمظهراتها المادية كلها و بقيمتها الروحية جميعها، مصبوغة بصبغة خلقية طالما ألح عليها "مالك بن نبي" في نظريته.

كما نستشف من رأي "شفيتسزر" حول (الحضارة) تسييقه للجانب الروحي على الجانب المادي، وحسبه فلا يمكن للتقدم المادي أن يؤتي أكله ما لم يسبقه تقدم في الجانب الروحي والأخلاقي، ولعله في نظره هذه كان متأثراً برأي الفلاسفة حول ثنائية (الروح والمادة).

تعريف أوزوالد اشبنجلر "Oswald Spengler":

يقوم مفهوم "أوزوالد اشبنجلر" لـ(الحضارة) بناء على تصور يربطها فيه بالكائن الحي الذي يعيش دورة الحياة والموت _ ينشأ فينمو ثم يشيخ فيفنى _ فيقول: « الحضارة تولد في اللحظة التي تستيقظ فيها روح كبيرة، وتفصل هذه الروح عن الروح الأولية للطفولة الإنسانية الأبدية كما تفصل الصورة عما ليس له صورة وكما ينبثق المحدود من اللامحدود (...)، والحضارة تولد وتنمو في بيئة يمكن تحديدها تحديداً دقيقاً، وإن الحضارة ككل كائن لها طفولتها وشبابها ونضوجها وشيخوختها، وإنها تموت عندما تحقق روحها جميع إمكاناتها الباطنية على هيئة شعوب ولغات ومذاهب دينية وفنون وعلوم ودول». (1)

و"اشبنجلر" يربط مفهوم (الحضارة) بمفهومي الطبيعة والتاريخ، فيعدّها ظاهرة ملازمة للطبيعة وطورا تاريخيا يمر به المجتمع الإنساني، لا بل وأولى عنصر التاريخ أولوية هامة، وجعل تملص (الحضارة) منه بمثابة تملص من هويتها: « لكل حضارة صيرورة واتجاه وزمان ومصير وتاريخ، والحضارة أسيرة مصيرها، واتجاهها هو اتجاه لا يمكن أن يقلب أو يعكس أو يحول، وذلك لأن هذا الاتجاه هو اتجاه وسمه المصير وحددته الصيرورة (...)، ولكل حضارة تاريخ، وهذا التاريخ هو تاريخ النفس الأولية

(1) أوزوالد اشبنجلر: تدهور الحضارة الغربية. تر (أحمد الشيباني)، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة، دط، بيروت، دس، ص

للأمة ذات (الحضارة)، ولا يمكن أن تكون هناك حضارتان متماثلتان كل التماثل، وذلك لأن كل حضارة هي تاريخ مستقل بذاته لا يتأثر أبدا بتاريخ حضارة أخرى، وإذا ما تأثر فإنما لا يعبر أبدا عن جوهره». (1)

إنّ "اشبنجلر" في نظره هاته ل (الحضارة) يدخلها ضمن دائرة مغلقة، ويرى أن كل دائرة تختلف عن أختها، وعلى هذا باتت (الحضارة) انبعاثا روحيا معيناً يطبع ممارسات شعب معين وينعكس على نشاطات حياتهم من فلسفة ودين وفن وعمارة وشرائع... إلخ.

تعريف "صامويل هنتون" "Samuel Huntington":

يعتبرها: « أعلى تجمع ثقافي من البشر وأعرض مستوى من الهوية الثقافية يمكن أن يميّز الإنسان عن الأنواع الأخرى، وهي تعرف بكل من العناصر الموضوعية العامة مثل اللغة والتاريخ والدين والعادات والمؤسسات والتحقق الذاتي للناس». (2)

هذا، ويحدد "هنتون" خصائص (الحضارة) فيعتبرها:

● **شاملة:** بمعنى أن أي جزء من مكوناتها لا يمكن فهمه تماما دون الرجوع إلى (الحضارة) التي تضمنها.

● **فانية:** أو ليست أبدية، إلا أنها تعيش طويلا، فهي تتطور وتتكيف، وهي أكثر الجماعات الإنسانية ثباتا، وجوهرها الفريد هو استمرارها التاريخي الطويل: « الحضارات هي أطول قصة في الواقع (...)، وهي حركية تنهض وتسقط، وهي أيضا تندثر وتدفن في رمال الزمن». (3)

(1) أوزالد اشبنجلر: تدهور الحضارة الغربية، ص 12.

(2) صامويل هنتون: صدام الحضارات _ إعادة صنع النظام العالمي _ تر (طلعت الشايب)، منتدى مكتبة الاسكندرية، ط2،

دم، 1999، ص 71.

(3) المرجع نفسه، ص 72.

من خلال تعريف "هنغتون" نخلص إلى أنه يعتبر (الحضارة) بمثابة القالب الذي يتقوّلب ضمنه الكيان الثقافي بتمثلاته كلها.

من ناحية أخرى نجد يتفق مع "اشبنجلر" حين جعل (الحضارة) أوسع من (الثقافة)، حيث يقول "اشبنجلر": « الحضارة هي المصير الحتمي للثقافة».⁽¹⁾

إلا أنه يخالف الكثيرين في نظرهم إلى (الدورة الحضارية) ومصيرها، ففي حين أقر كل من "ابن خلدون" و"اشبنجلر" بفناء وزوال الحضارة بعد زمن من ميلادها عند حديثهما عن (التفسير العمراني) و(التفسير البيولوجي)، نجد "هنغتون" يقبل الرأيين، فمرة يرجّح الكفّة إلى إمكان تطور (الحضارة) ونموها واستمرارها، ومرة أخرى يقول بمكان موتها وفنائها طبقاً للظروف التي ولدت ونمت فيها تلك (الحضارة).

تعريف "أرنولد توينبي" "Arnold Joseph Joynbée":

يعدّ "توينبي" من أبرز الخائضين في موضوع (الحضارة)، ركّز على أصلها ومنشئها وقدّم نظرية متفردة في هذا السياق وهي نظرية (التحدي والاستجابة) (Response/challenge) أو (الفعل ورد الفعل) أو (الين واليانغ)، ف (الحضارة) لا تنشأ في ظروف سهلة، وإنما هي على النقيض من ذلك تنشأ في ظروف صعبة (عوامل داخلية أو خارجية أو تحديات بشرية وطبيعية) تخلق للإنسان تحدياً يُسفر عن استجابة، حيث يقول: « إنني أضيف العلاقات بين الأفراد كتحديات تستوجب استجابات».⁽²⁾

ومعنى هذا أن الإنسان يواجه في حياته عدة صعوبات يتحتم عليه مجابتهها ومواجهتها، فإذا

⁽¹⁾ ينظر صامويل هنغتون: صدام الحضارات ، ص 69.

⁽²⁾ أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ. ج1، تر (فؤاد محمد شبل)، المشروع القومي للترجمة، دط، دم، 2011، (مقدمة الكتاب).

ما نجح في ذلك أثبت وجوده وحقق كيانه وخطا أول خطوة نحو بناء سيادته وأنشأ حضارته، وإذا ما عجز عن ذلك، أو إذا ما أخفقت طاقاته الإبداعية، يكون قد فقد كيانه وحكم على نفسه وعلى إبداعات حضارته بالفناء والزوال والانهيار.

وليوضح "تويني" نظريته يضرب مثلا بالحضارة المصرية، فيرى أن: « السهوب الممتدة لدى الشمال الإفريقي والجزيرة العربية كانت أراض عامرة بالمياه، وعندما أتى أوان الجفاف تفاوتت استجابات السكان، فتمسك بعضهم بأرضهم وغيروا نمط حياتهم فصاروا بدوا، واختار بعضهم الآخر الارتحال جنوبا حيث المناطق الاستوائية فزاولوا حياة بدائية صاحبتهم حتى أيامنا، وولج بعضهم الأخير المستنقعات والغابات في وادي النيل فأقاموا الحضارة المصرية».⁽¹⁾

كما يضرب مثلا بالإسكيمو أو بدو الصحاري، الذين بقوا عاجزين عن اللحاق بأي (حضارة).

إذا ما عمقنا النظر في نظرية "تويني" نجد تلاقيا كبيرا بينها وبين نظرية "ابن خلدون"، إلا أنه صاغها في قالب متحضر وبمصطلحات معاصرة، ف "تويني" ربط بداية التحضر بعملية التحدي والاستجابة، ونحن نجد في مرحلة البداوة عند "ابن خلدون" ما يؤكد هذا أيضا؛ إذ أن مرحلة البداوة عنده تعد مرحلة الحيوية والنشاط الذي يدفع المجتمع إلى الانتقال إلى مرحلة التحضر، كما نجد مرحلة الانهيار عند "تويني" شبيهة من حيث الأسباب والدوافع بمرحلة الترف عند "ابن خلدون"⁽²⁾، إلا أنه يخالفه فقط في إمكان تجاوز مرحلة الانهيار.

كما نلمس تقاربا بين رأيي "أرنولد تويني" و "صامويل هنتون" في إمكان انهيار (الحضارة)

وإمكان النهوض بها وتطويرها إذا توفرت الظروف والإمكانات لذلك، وعدم الحكم عليها بالمصير

⁽¹⁾ أرنولد تويني: مختصر دراسة للتاريخ ، (مقدمة الكتاب).

⁽²⁾ ينظر شايف عكاشة: الصراع الحضاري في العالم الإسلامي، ص 107.

المحتوم الذي لا مجال للتملص منه.

ثالثا: مفهوم الحضارة في الفكر الإسلامي المعاصر.

● تعريف سيد قطب:

مفهوم (الحضارة) عند "سيد قطب" يقوم على العقيدة الإسلامية التي تعمل على التحرر الحقيقي الكامل للإنسان وتوجد الكرامة المطلقة لكل فرد، وذلك عن طريق الحاكمية العليا في المجتمع لله وحده، حيث يقول: « حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع لله وحده _ متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية _ تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحررا كاملا وحقيقيا من العبودية للبشر (...)، وتكون هذه الحضارة الإنسانية، لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي والكامل للإنسان ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع، ولا حرية في الحقيقة ولا كرامة للإنسان _ ممثلا في كل فرد من أفرادهِ _ في مجتمع بعضه أرباب يشترعون وبعضه عبيد يطيعون! »⁽¹⁾.

وعلى هذا، يحصر "سيد قطب" مفهوم (الحضارة) في الجانب الديني المرتبط بالربوبية والوحدانية لله تعالى، كما يعتبر الإسلام سبيلا لتحقيق كرامة البشر وحرمتهم والترقي بهم إلى درجة (الحضارة) والإنسانية، وما عدا ذلك _ البعد عن الإسلام _ يُعدّ تخلفا وجاهلية وقيودا عن الحضارة ومساسا بالكرامة وخذشا للإنسانية: «والمجتمع الإسلامي هو وحده المجتمع الذي يهيمن عليه إله واحد ويخرج فيه الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وبذلك يتحررون التحرر الحقيقي الكامل الذي تركز إليه حضارة الإنسان وتتمثل فيه كرامته كما قدرها الله له، وهو يعلن خلافته في الأرض عنه، ويعلن كذلك تكريمه في الملأ الأعلى، وحين تكون إنسانية الإنسان هي

القيمة العليا في مجتمع، وتكون الخصائص الإنسانية فيه هي موضع التكريم والاعتبار، يكون هذا

⁽¹⁾ سيد قطب: معالم في الطريق. دار الشروق، ط6، بيروت، 1979، ص (108/107).

المجتمع متحضراً»⁽¹⁾.

و"سيد قطب" يحدد (الحضارة) بقيمتها الإنسانية لا بمادياتها، حيث يقول: «علينا أن ننتبه إلى ما نعنيه بمصطلح الحضارة الإسلامية: إنها الحضارة التي توافرت فيها تلك القيم، وليست هي كل تقدم صناعي أو اقتصادي أو علمي مع تخلف القيم عنها (...)، وبهذا لا يتوقف قيام الحضارة بطريقة الإسلام ومنهجه على درجة معينة من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي»⁽²⁾.

لكنه مع هذا كله لا يسقط المادة من حسابانه، ويرى أن لها دوراً آخر في قيام (الحضارة)، حيث يقول: «ولكن الإسلام لا يحتقر الإبداع المادي، إنما هو يجعل هذا اللون من التقدم في ظل منهج الله نعمة من نعم الله على عباده يشرهم به جزاء على طاعته»⁽³⁾.

وينتهي "سيد قطب" إلى تحديد مقومات (الحضارة): «العبودية لله وحده والتجمع على أسرة العقيدة فيه، واستعلاء إنسانية الإنسان لا حيوانيته (...)، وحرمة الأسرة والخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه، وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة»⁽⁴⁾.

تعليق:

نخلص إلى أن مفهوم (الحضارة) عند "سيد قطب" يتحدد بالنقاط التالية:

- الربط بين الإسلام وبين (الحضارة) وجعلهما وجهين لعملة واحدة.
- مرجعية الكيان الحضاري عنده ينطلق من التشريع الإلهي ويرتكز عليه.
- جعل العامل المادي تبعاً للعامل الديني أو القيمي في سلم (الحضارة).

⁽¹⁾ سيد قطب: معالم في الطريق، ص (109/108).

⁽²⁾ المرجع نفسه، ص (122/119).

⁽³⁾ المرجع نفسه، ص 116.

⁽⁴⁾ المرجع نفسه، ص 120.

— معنى (الحضارة) يعدّ معاكسا للحيوانية واللائسانية ومرادفا للإنسانية المقترنة بالحرية والكرامة والتوحيد.

— (الحضارة) المنشودة عنده هي التي تحقق للإنسان السعادة وتمنحه الكرامة.

وحسبنا، "سيد قطب" كان مبالغا بعض الشيء في نظريته لـ (الحضارة)، إذ ليس الإسلام دائما مقياسا لها؛ فلو عدنا إلى بعض البلدان والشعوب الكافرة الملحدة لوجدناها في أوج مراحل تحضرها وتمدنها وقوتها حتى ولو كانت متملصة من الإسلام ومعانيه، خصوصا إذا ما ارتبطت (الحضارة) عندها بالجانب المادي.

● نقد "مالك بن نبي" لـ "سيد قطب":

تعرض "مالك بن نبي" لـ "سيد قطب" بالنقد، وذلك عندما أعلن هذا الأخير أنه أصدر كتابا تحت عنوان (نحو مجتمع إسلامي متحضر) ثم عاد وحذف كلمة متحضر مكثفيا بالقول (نحو مجتمع إسلامي)، وهذا التغيير في عنوان الكتاب أثار "مالكا بن نبي" ودفعه إلى قراءة ناقدة.

وحسبه، المجتمع الإسلامي يمكن أن يكون متخلفا أو متحضرا بحسب المرحلة التاريخية التي يعيشها، لذا فحذف "سيد قطب" للكلمة لا يعدو كونه حرمانا أدبيا تحت تأثير حالة إخلاص أدت إلى الاعتقاد بأن المجتمع الإسلامي مجتمع متمدن: « وعندما يتعلق الأمر بموقف مثقف يريد دراسة مشكلات العالم الإسلامي دراسة موضوعية فإن عقدة نفسية تعقد مجهوده وتسيطر على فكرته، بحيث تموّه طبيعة هذه المشكلات ويدخل في الدراسة بعض التحريف اللاشعوري (...)، لقد أراد أحد هؤلاء المفكرين _ سيد قطب _ أن يضع خطة مؤلف اختار له بحق العنوان (نحو مجتمع إسلامي متمدن)^(*)، ولكنه فكر فعدل العنوان إلى (نحو مجتمع إسلامي)، فلقد استبعد المفكر المحترم اسم مشكلة العالم الإسلامي الحاسمة من بحثه، بحيث اعتقد - وحملنا على الاعتقاد - بأن المجتمع

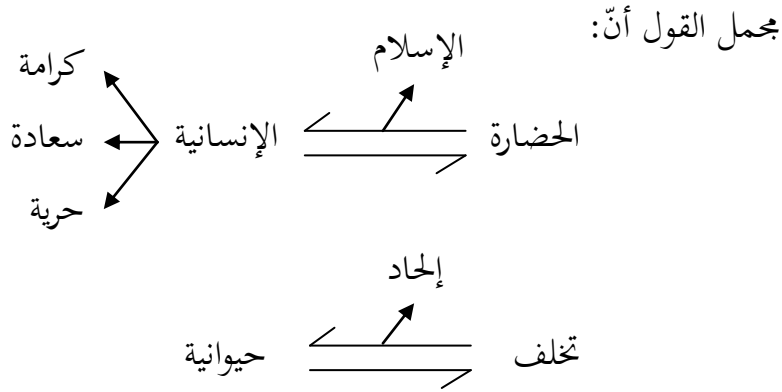
(*) استعمل "مالك بن نبي" مصطلح التمدن عوضا عن مصطلح الحضارة.

الإسلامي هو على وجه التحديد (متمدن)، وهكذا نراه وقد انجر مرغما تحت تأثير حالة إخلاص إلى موقف من المدح العقيم». (1)

وقد توجه "سيد قطب" إلى التماس العذر لنفسه، وحجته في ذلك: «وأنا أعذر هذا الكاتب (يقصد مالك بن نبي)، لقد كنت مثله من قبل، كنت أفكر على النحو الذي يفكر هو عليه الآن عندما فكرت في الكتابة عن هذا الموضوع لأول مرة، وكانت المشكلة عندي مشكلة تعريف للحضارة». (2)

ويضيف: «لم أكن قد تخلصت بعد من ضغط الرواسب الثقافية في تكويني العقلي والنفسي، وهي رواسب آتية من مصادر أجنبية غربية على حسي الإسلامي، وعلى الرغم من اتجاهي الإسلامي الواضح في ذلك الحين إلا أن هذه الرواسب كانت تعبش تصوري وتطمسه». (3)

تلك الوقائع والرواسب التي عايشها "سيد قطب" جعلته يخلص إلى حقيقة أنّ الحديث عن المجتمع الإسلامي إنما هو حديث عن المجتمع الرباني الممثل بالإسلام، وأنّ المجتمع المسلم هو بالضرورة مجتمع متحضر، وعليه فإضافة كلمة (متحضر) يعدّ لغو حديث لا يضيف شيئاً جديداً.



(1) مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، ص 246.

(2) سيد قطب: معالم في الطريق، ص 107.

(3) المرجع نفسه، ص 107.

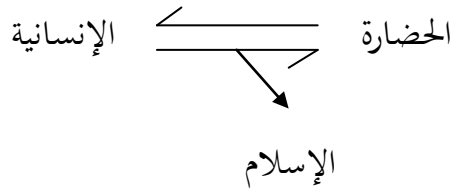
• تعريف "أبي الأعلى المودودي":

يعرّف "أبو الأعلى المودودي" (الحضارة) على أنها: « تصور سليم للحياة الدنيا وغايتها في نظام اجتماعي يقود الإنسان إلى الرقي والإخاء والأمان». ⁽¹⁾ ويرى أن: « ما يعبر عنه بكلمة (الحضارة) يتكون من العناصر الخمسة الآتية: تصور الحياة الدنيا، غاية الحياة، العقائد والأفكار الأساسية، تربية الأفراد، النظام الاجتماعي، وما من حضارة في الدنيا إلا وقد تكونت من هذه العناصر الخمسة ليس غير». ⁽²⁾

وعليه، فتعريفه يضع المصطلح في مقابل المبادئ؛ ذلك أن تحقق تلك العناصر الخمسة يعني قيام (حضارة)، وأكمل الحضارات من حققت تلك العناصر الخمسة.

إننا لنلمس في هذه العناصر والأسس التي جعل "المودودي" قيام (الحضارة) رهينا بها جانبا من جوانب الإسلام؛ فما تربية الأولاد، وما العقائد، إلا أساس من الأساسات التي يدعو إليها الدين الإسلامي، والتي تجعل الإنسان يقيم تصورا خاصا عن الحياة ضمن نظام اجتماعي يخضع لقوانين محددة.

وعلى هذا، ف"المودودي" يعلن قطيعته عن (الحضارة الغربية) ويسير مع معاصره "سيد قطب" جنبا إلى جنب مقاسما إياه الفكرة نفسها، وهي:



⁽¹⁾ أبو الأعلى المودودي: الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها. دار العربية للطباعة، ط2، بيروت، 1970، ص 4.

⁽²⁾ المرجع نفسه، ص 9.

هذا ما نلمسه جليا من خلال نقده لهذه الأخيرة (الحضارة الغربية): « هي (...) لا دينية بحتة، لا مجال فيها لمخالفة إله في السماء عليم وقدير، ولا وزن فيها لنبوة أو وحي أو إلهام، ولا تصور فيها لحياة أخرى بعد الموت، ولا خوف من المحاسبة على أعمال الحياة الدنيا، كما لا وجود فيها لمسؤولية ملقاة على الإنسان، ولا إمكان فيها لمقصد أو غاية أجلّ وأسمى من المقاصد الحيوانية (...)، هذه حضارة مادية تماما يخلو نظامها من كل ما تقوم عليه حضارة الإسلام». (1)

إن "المودودي" يربط قيام (الحضارة) بقوة العقيدة وبشدة التمسك بالمنهج الإلهي، ويقرن أفولها وزوالها بالتملص من العقيدة وبالبعد عن المنهج الإلهي.

وحسبه: « متى جاءت المفاصد الاعتقادية والعملية تجاوز الأفراد إلى الأمة بأسرها وتخدر شعور الأمة الديني والأخلاقي (...)، إن العناية الإلهية عندئذ تنصرف عن هذه الأمة، وتأخذ هذه الأمة بالهبوط من علياء العز إلى درك الهوان». (2)

ولإثبات صحة رأيه يستدل ببعض الشواهد القرآنية، ومن ذلك قصة قوم سيدنا "نوح عليه السلام" التي أهلكتها الله تعالى من بعد ما تأصلت فيها مفاصد الاعتقاد والعمل وجعلت تنمو وتنتشر في المجتمع كله، ومن بعد ما انعدم الأمل في إنتاج شجرتها الخبيثة لثمر صالح، فاضطر بذلك سيدنا "نوح" إلى مناداة ربه ومناجاته: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (27) (نوح، الآيتان 26، 27).

ومثلها أمة سيدنا "لوط عليه السلام" التي أخذها الله بعذابه بعدما انتشر بين أفرادها إتيان الفاحشة علانية في المجالس والأسواق، وبعدها لم يبق فيهم شعور بكون الفواحش فواحش: ﴿ أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ (العنكبوت، الآية، 28).

(1) أبو الأعلى المودودي: نحن والحضارة الغربية. دار السعودية للنشر والتوزيع، دط، دم، 1987، ص 23.

(2) المرجع نفسه، ص (235/234).

تعليق:

نخلص إلى أن مفهوم (الحضارة) عند "المودودي" يحدد بالنقاط التالية:

- اعتماده في تحليلاته لـ (الحضارة) على منهج واضح وهو (المنهج الديني) الذي كان يقيمه على الحجة والدليل من آيات القرآن الكريم.
- إغفاله وإسقاطه للجانب المادي من سلم (الحضارة)، على عكس غيره من الدارسين الذين منهم من جعل للمادة الأولية ومنهم من نوّه بدورها الفاعل بعد العامل الديني أو المعنوي أو... إلخ.
- ولربما أمكننا تصنيف مفاهيم (الحضارة) وتصوراتها إلى ثلاثة مجالات واتجاهات:
- الاتجاه العام الذي يعرفها على أنّها جهد الناس في شتى الميادين (فنون، علوم، عمران... إلخ).
- الاتجاه الإنساني أو الروحي الذي يبحث في (حضارة) الإنسان داخليا وعقليا وسلوكيا وخلقيا (سيد قطب، المودودي).
- الاتجاه الذي يتناول (الحضارة) من المنظور البشري أو من منظور النشاط البشري (ابن خلدون).

استنتاجات

من خلال المفاهيم والتصورات المعروضة عن (الحضارة) تتضح المعطيات الأساسية الكامنة وراء هذه التعريفات، فكل تعريف يسعى لإيجاد الرابط أو همزة الوصل بين تصوره عن الكون والحياة والإنسان وبين ما يسمى (الحقيقة الحضارية) ليصل إلى نتيجة فحواها تأكيد حضارية فكره وممارسته.

والحديث عن تباين الآراء حول مفهوم (الحضارة) يكشف عن تضارب في النظر إلى طبيعة العلاقة بين (الثقافة) وبين (الحضارة)، وقد ذهب الدارسون في ذلك مذاهب شتى، منها:

- مذهب يتجه إلى المساواة بين (الثقافة) وبين (الحضارة) ويعدّهما مصطلحين معبرين عن المفهوم ذاته (أي وجهين لعملة واحدة).
- ومذهب يتجه إلى اعتبار مفهوم (الحضارة) أوسع من مفهوم (الثقافة)؛ بمعنى أن (الحضارة) تشمل (الثقافة) بينما (الثقافة) لا تشمل (الحضارة)، وبعبارة أخرى، ف (الحضارة) تشمل الجانبين المادي والمعنوي على عكس (الثقافة) التي تعبّر عن الجانب المعنوي فقط.
- ومذهب ثالث: يقصر (الحضارة) على الجانب المادي (إنجازات تقنية) والمعرفة العلمية الموضوعية التي يمكن أن تقاس قياساً كميّاً، في حين يرى أن (الثقافة) تشير إلى المعرفة الذاتية غير الوصفية ذات الأحكام التقييمية كالديانات والاعتقادات والأخلاق والفلسفة والفنون.
- ومذهب رابع: يرى أنّ (الثقافة) تعني المظاهر المادية ل (الحضارة) كالتقنية والصناعة، وأنّ (الحضارة) تعني المظاهر الأدبية والفلسفية والعقلية.
- ومهما قيل عن الفروقات بين (الثقافة) وبين (الحضارة)، تبقى العلاقة بينهما علاقة تكامل وترابط وانبثاق لا علاقة انفصال وتباعد؛ ذلك أن (الثقافة) تعدّ عنصراً هاماً في عملية البناء الحضاري، فبمقدار شمولية (الثقافة) وتوازنها واستقرارها يرتفع عمود (الحضارة) وترسخ أركانها في المجتمع، وليس لقوة مهما بلغت أن تهزم أو تهدم (حضارة) قائمة على (ثقافة) سليمة جامعة.
- وكما أن (الثقافة) هي الركن الأساسي لبناء (الحضارة)، فإنّ البنين الحضاري بعد أن يقوم يلقي ظلاله على (الثقافة)، بحيث يمكن اعتبار (الحضارة) رافداً جديداً من روافد (الثقافة) المستقبلية).

المبحث الثاني: تعريف الحضارة عند "مالك بن نبي".

نعود هنا ونؤكد مرة ثانية أنّ فكرة (الحضارة) احتلت مكانة مركزية في تفكير "مالك بن نبي"، حيث درسها من جميع جوانبها النفسية والوظيفية والتربوية باعتبارها ظاهرة كونية، ويمكن إجمال ذلك في كون مشكلة كل شعب هو في جوهرها مشكلة حضارته، أو في كون: «كل تفكير في مشكلة الإنسان، هو تفكير في مشكلة الحضارة».⁽¹⁾

وهذه ميزة تفرد بها عن غيره من الدارسين الذين كانوا يجزئون مأساة الأمة الإسلامية حينما يتحدثون عن مأساة (الحضارة) وأفولها، فبعضهم يردّها إلى ما هو سياسي، وآخر إلى ما هو تربوي... إلخ⁽²⁾، أما "مالك بن نبي" فيوجه عدة منظارا على الهدف نفسه وهو محاولة الوصول إلى ضبط وتحديد مفهوم (الحضارة).

وعلى هذا، فهو يقدم مفاهيم مختلفة ومتعددة لـ (الحضارة)، ويعرّفها بعبارات متغايرة في كتبه المختلفة بحسب الموضوع الذي يبحثه.

⁽¹⁾ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 100.

⁽²⁾ ينظر محمد البنيادي: كتاب النبراس _ أسئلة الفكر والمنهج والفعالية في تراث مالك بن نبي، ص 54.

المطلب الأول: الحضارة من الناحية الوظيفية.

يسقط "مالك بن نبي" على (الحضارة) المنظار الاجتماعي، وينظر إليها باعتبار الوظيفة التي تقوم بها في المجتمع، فيعرفها على أنها: « مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه، فالمدرسة والعمل والمستشفى ونظام شبكة المواصلات، والأمن في جميع صورته عبر سائر تراب القطر، واحترام شخصية الفرد، تمثل جميعها أشكالاً مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه». (1)

ويضيف: « هي جملة العوامل المادية والمعنوية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره». (2)

وهو، في معالجته لظاهرة (الحضارة) من الناحية الوظيفية، يقرنها بمصطلح (النمو) الذي درسه وفق المنظور الاقتصادي بالدرجة الأولى، ويضعها في مقابل مصطلح (التخلف) الذي يعدّ الظاهرة العكسية للنمو، والتي خلّص إليه من خلال دراسته لواقع البلدان المستعمرة، وهنا يقول: « يتم تحديد هذا المصطلح بمقابلته مع مصطلح آخر يشير إلى الظاهرة العكسية المتمثلة في النمو». (3)

وعلى هذا، ربما أمكننا القول بأن: النمو $\xrightarrow{\text{طريق}}$ الحضارة
و بأن: الحضارة \neq التخلف.

(1) مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 43.

(2) مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 7.

(3) مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 37.

من خلال هذا التعريف، يخالف "مالك بن نبي" علماء الإناسة الذين نظروا إلى (الحضارة) على أنها: « كل شكل من أشكال التنظيم للحاسة البشرية في أي مجتمع من المجتمعات النامية أو المتخلفة»⁽¹⁾.

وحسبه، فإننا بهذا المفهوم يعني انتفاء للمشكلة التي يبحث فيها (مشكلة الحضارة) وانتفاء للثنائية التي وضعها (الحضارة/ التخلف) أو (النمو/التخلف)، وإسقاطا للفوارق الفاصلة بين المجتمع البدائي وبين المجتمع المتحضر، فإذا كان كل شكل من أشكال تنظيم الحياة البشرية يعتبر لونا من ألوان (الحضارة)، فحتى الأشكال السائدة في البلدان المتخلفة _خصوصا التي تعاني من دنس (الاستعمار) وتعيش تحت وطأته _ تعدّ (حضارة)!

وعلى هذا، نتوصل إلى أنّ السبيل للخلاص من التخلف وللرقي إلى درجة النمو و(الحضارة) هو تسليط الضوء على الطرق المؤدية إلى الهدف المنشود، وكذا محاولة البحث عن حلول للمشاكل التي تواجهنا وتعوقنا، وهذا لا يتأتى إلا من خلال قيام كل فرد من أفراد المجتمع بدوره على أكمل وجه.

• دلالات وأبعاد المفهوم:

يرى "مالك بن نبي" أن (الحضارة) تسير في خطين: خط مادي صرف، وخط معنوي، ولا يمكن ل (حضارة) ما أن تستمر إلا بتفاعل هذين الخطين إيجابا بطريقة متوازنة بين القيم الإنسانية والأخلاقية وبين معطيات المادة، ومن هذا المزيج تتبلور (الحضارة) وفق مقوماتها الأساسية، ووفقه تخضع لمبدأ التوازن الذي يحفظها ويمنعها من الانحراف؛ فإذا كانت (الحضارة) بشقها المادي تضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بوظيفته الحضارية، فهي في جانبها المعنوي تولّد داخل الفرد إرادة تحركه وتدفعه نحو تحديد رسالته الاجتماعية وإنجازها.

⁽¹⁾ مالك بن نبي: القضايا الكبرى ، ص 35.

(الحضارة) عبارة عن عمل سوسولوجي، وهذا يشير إلى أهمية المجتمع وأسبقيته في العمل الحضاري، ويتضح ذلك من خلال تركيزه على دور وفعالية عنصر شبكة العلاقات الاجتماعية في تحديدها.⁽¹⁾

(الحضارة) عبارة عن أطوار اجتماعية يمر بها المجتمع عبر تاريخه الطويل، وهذا إشارة إلى الظاهرة الدورية لـ (الحضارة)، فجهود فلاسفة التاريخ، واستقراء تاريخ الحضارات، تبين لنا أنها في تحول وانتقال مستمرين، وكل تحول يحدث ميلاد صورة جديدة، وهذا يوافق نظرة "أرنولد توينبي" من خلال قوله: «لقد جاءت حضارات وذهبت، ولكن الحضارة بمعناها العام قد استطاعت في كل مرة أن تعود، فتتجسد في صورة مجتمعات متحضرة».⁽²⁾

وعليه، نلمس من خلال هذا التعريف ربطا بين (الحضارة) وبين التاريخ، أو بين المجتمع وبين التاريخ؛ فإذا كانت (الحضارة) بمثابة المناخ الذي يوفر للفرد الحرية والحماية، ويقدم له كل ما يحفظ وجوده وشخصيته ويقويه من التدهور في مختلف المجالات والأمكنة، فإن المجتمع الذي يستطيع التكفل بهذه الأمور هو في نهاية المطاف المجتمع الذي يملك القدرة على الإشعاع والامتداد في الأفراد في صورة فاعلية اجتماعية.

وعلى هذا، أمكننا القول أن "مالك بن نبي" ينظر إلى (الحضارة) بمقدار ما يقدمه المجتمع من ضمانات مادية ومعنوية للفرد خلال مرحلة معينة منذ ميلاده وحتى وفاته حين ينتهي وجوده الاجتماعي، أي أن الحضارة: «أداء اجتماعي وليست أداء فرديا».

⁽¹⁾ ينظر جمال بروال: الدورة الحضارية بين "مالك بن نبي" و"أزوالد استبنجلر". رسالة ماجستير في الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2013/2012، ص 10.

⁽²⁾ أرنولد توينبي: الحضارة في الميزان. تر "أمين محمود الشريف"، دار إحياء الكتب، دط، حلب، دس، ص 32.

المطلب الثاني: الحضارة من ناحية التحليل والتركيب.

ينظر "مالك بن نبي" إلى (الحضارة) من حيث عناصرها التي تعبر الرأسمال الأولي، ويصوغها في شكل معادلة رياضية ذات متغيرات هي: الإنسان_التراب_الوقت.

ينطلق في صوغ معادلته الحضارية من ركيزة أساسية هي التحليل ل (الحضارة) نفسها فيقول: « (...) باعتبارها مركبا لا يتكون في أصله من أشياء ومنتجات حضارية، بل من أصول تفرضها طبيعة المنتجات وشروط تطور الإنتاج».⁽¹⁾

يسوق "مالك بن نبي" مثال المصباح الذي نستنير به، والذي يتساءل عن إمكانية اعتباره إنتاجا حضاريا، إذ يقول: « فالمصباح نستنير به، والأفكار التي وجهت أمر تحضيره، والآدميون الذين قاموا بعملية إنجازه، تمثل جميعها منتجات اجتماعية لحضارة معينة، ولو نحن حللنا هذه العينة لوجدنا أن محتواها أو مادتها الجوهرية المتعلقة بعلم الاجتماع تؤول إلى ثلاثة حدود هي: التراب، الوقت^(*)، الإنسان».⁽²⁾

وحتى نوضح هذه الفرضية التي وضعها، نتبع معه التطور الذي مرّ به اكتشاف المصباح:

يعود أول اكتشاف للظاهرة الكهربائية إلى العالم "دافيد غريك" (David Garick) الذي يعتبر أول من أدخل عنصر الإضاءة على خشبة المسرح، لإضاءة الممثلين بصورة جديدة في (ق 17)، بعدها انتشرت تجارب "غالفاني" (Galvani) الذي اكتشف المصباح القوسي سنة (1808م)، ومن ثمّ اكتشاف "أديسون" (Edison) للمصباح الكهربائي عام (1870م).

⁽¹⁾ مالك بن نبي: تأملات، ص 198.

^(*) هناك خلط في استعمال مصطلح (الزمن) عند "مالك بن نبي"، فأحيانا يستعمل (الزمن)، وأحيانا أخرى يعتمد (الوقت)، وربما كان هذا من فعل الترجمة.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 200.

معنى هذا أن فكرة اكتشاف المصباح لم تولد مع "أديسون"، وإنما سبقتها أفكار علماء قبله
اشتركوا معه في هدف واحد.

من جهة أخرى، عكست هذه الأفكار وجود نشاط بشري، وهذا يقابل (عالم الأشخاص)
أي عنصر (الإنسان) في معادلة "مالك بن نبي"، حيث صرح بقوله: « وأما الإنسان، فينخرط ضمن
التداخل البشري (اليدوي والذهني) في هذا الاطراد». (1)

لاحظنا وجود فارق زمني بين تجارب كل من "دافيد غريك" و"غالفاني" و"أديسون"، أي
وجود فارق زمني بين اكتشاف الظاهرة الكهربائية وبين تطبيقها في ميدان الإنارة بالمصباح الكهربائي،
وهذا يقابل عنصر (الزمن) - أو (الوقت) - في معادلة "مالك بن نبي".

وبعيدا عن التعمق في الأمور الفيزيائية وفي عوازل وناقل الكهرباء التي سايرت تجارب
"أديسون" ومن معه، فهذا يقابل عنصر (المادة)، أو ما اصطلح عليه "مالك بن نبي" بـ (التراب)
حيث يقول: « ومعنى التراب هنا ليس هو المعنى المتبادر إلى الذهن، فقد تعمدت ألا استخدم كلمة
(مادة) فقلت (التراب) ». (2)

وعليه نتوصل من خلال تحليلنا لما جاء به "مالك بن نبي" إلى:

مجموع الأفكار + مجموع الأشخاص + مجموع المواد + مجموع الوقت = مجموع منتوجات حضارية.

مجموع الأفكار + مجموع الأشخاص \longleftrightarrow مجموع الإنسان

مجموع المواد \longleftrightarrow مجموع التراب

مجموع الإنسان + مجموع الوقت + مجموع التراب = مجموع منتوجات حضارية

(1) مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 55.

(2) مالك بن نبي: تأملات، ص 170.

يضيف "مالك بن نبي": « وهكذا تكون النتيجة دوما كلما استمرت عملية التحليل من عينة إلى أخرى ومن منتج حضاري إلى آخر، يمكن إذن أن نعبر عن كل منتج حضاري بهذه المعادلة الأساسية: منتج حضاري = إنسان + تراب + وقت.

ويجب الآن أن نكتب هذه المعادلة لكل منتج من منتجات الحضارة، من الإبرة إلى ما بعدها، وإلى ما بعد الصاروخ، حتى أكوّن جدولا كاملا من المعادلات الواحدة تحت الأخرى في هذا الترتيب مثلا:

منتج حضاري أول = إنسان + تراب + وقت

منتج حضاري ثان = إنسان + تراب + وقت

.

.

.

منتج حضاري أخير = إنسان + تراب + وقت

وحين أنتهي من ترتيب المعادلات بهذه الصورة، يمكن أن أجمعها عموديا على الطريقة المستخدمة في الجبر، وأنتهي حينئذ إلى هذه النتيجة الشاملة:

مجموع منتجات حضارية = مجموع إنسان + مجموع تراب + مجموع وقت، ولكن جمع منتجات حضارية هو الحضارة نفسها في صورة غير مركبة وجمع إنسان هو الإنسان نوعا، وجمع تراب

هو التراب نوعا، وجمع وقت هو الوقت نوعا، وبالتالي يمكن أن أكتب النتيجة التحليلية في صورتها النهائية: حضارة = إنسان + تراب + وقت». (1)

تحت هذا الشكل، تشير الصيغة إلى أن مشكلة (الحضارة) تنحلّ في ثلاث مشكلات أولية هي: مشكلة الإنسان_مشكلة التراب_مشكلة الوقت.

ب هذه المعادلة حدّد "مالك بن نبي" مفهوم (الحضارة)، وحسب نظره، الإنسان هو الفاعل المحوري في هذه الثلاثية، فبدونه لا يسعنا الحديث عن شيء اسمه (الحضارة) التي تقتضي التركيب والبناء والربط بين التراب والوقت من لدن الإنسان، وهذا ما يدفعنا إلى القول أنّ الإنسان إما هو داخل (الحضارة) بقدرته على التركيب بين هذين العنصرين، أو خارج (الحضارة) بوصفه عاجزا عن التركيب والربط بينهما.

وهذا دفعنا إلى طرح التساؤل التالي: ما العوامل التي تجعل الإنسان قادرا على التركيب؟

إن الإنسان يكتسب هذه القدرة استجابة لفكرة ما، لأن أية (حضارة) حسب "مالك بن نبي": « ما هي إلا نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع ما في مرحلة كما قبل التحضر الدفعة التي تدفع به إلى التاريخ» (2)، ومن هنا تتأتى أهمية (الفكرة الدينية) وما يتمحور حولها من أفكار، لأن الحضارة استجابة ونتاج للفكرة الدينية، ولأنها: «لا تنبعث لا بالعقيدة الدينية» (3).

من هنا، أمكننا القول أن هذه العناصر الثلاث لـ (الحضارة) تبقى ساكنة وعاجزة عن ممارسة فعلها الحضاري، ما لم تتدخل الفكرة الدينية محدثة الشرارة الروحية التي تجعل العناصر في حركة وديناميكية مستمرة عبر التاريخ.

(1) مالك بن نبي: تأملات، ص (200/199).

(2) مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 41.

(3) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 56.

إلا أن "مالك بن نبي" يميز هنا بشكل واضح بين الأفكار الميتة وبين الأفكار الحية، ذلك أن العقيدة الدينية / الإسلامية في حضارتنا لم تأت إلا بأفكار حية تزرع روح الحياة في الإنسان وتهبه القدرة على الإبداع والتركيب، والذي ينبغي أن ينتبه إليه الإنسان هنا، هو ضرورة وأهمية التجديد في عالم الأفكار، وإلا بقي رهين أفكار خرجت من دائرة الحياة إلى دائرة الموت.⁽¹⁾

ومن هنا نتوصل إلى القول أنه: « إذا عرفنا تاريخ مجتمع معين، فلا بد أنه كما لديه مقبرة يستودعها موتاه، فإن له مقبرة يستودعها أفكاره الميتة، الأفكار التي لم يعد لديها دور اجتماعي». ⁽²⁾

وهذا مدخل آخر إلى القول بثنائية (البناء / التكديس) التي توصل إليها "مالك بن نبي" في إطار دراسته لـ (الحضارة) من حيث صلة الإنسان بعالم الأحياء بدل الأموات، وبالعالم العلم والمعرفة بدل الوهم، فبناء الإنسان هو المدخل الرئيس لـ (الحضارة)، بدل الاكتفاء بالنظر إلى الأشياء وتكديسها في معزل عن الأفكار.⁽³⁾

فالتكديس ما هو إلا استيراد للمبيعات والأشياء بشكل مفصول عن روح (الحضارة)، ذلك أنها في نظر "مالك بن نبي": « التي تصنع منتجاتها، وعليه فلو أننا عكسنا القضية بأن نحاول صنع حضارة من منتجاتها، فسيكون هذا بكل بساطة من قبيل وضع المحراث أمام الثور، هذا الانقلاب في الوضع هو الذي يتسم به التقدم الفوضوي المضىء للنهضة الإسلامية، ونحن ندين له بهذا التكديس والتكويم الذي يبدو أنه يقود تطور المجتمع الإسلامي نحو حضارة شيئية». ⁽⁴⁾

المبحث الثالث: عناصر الحضارة عند "مالك بن نبي".

⁽¹⁾ ينظر مولاي أحمد صابر: مالك بن نبي - الفكرة والمنهج. مؤسسة دراسات وأبحاث، قسم العلوم الإنسانية والفلسفة، دط، دم، دس، ص 4.

⁽²⁾ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 46.

⁽³⁾ ينظر مولاي أحمد صابر، مالك بن نبي - الفكرة والمنهج، ص 4.

⁽⁴⁾ مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية، ص 82.

لم يغفل "مالك بن نبي" في إطار حديثه عن (الحضارة) عن تسليط الضوء على العناصر التي اعتبر وجودها وفعاليتها شرطا رهينا لقيام وتأسيس (الحضارة) المنشودة.

المطلب الأول: الإنسان.

ترتبط فلسفة "مالك بن نبي" الاجتماعية في أساسها بالمجتمع في حركيته وسيورته عبر التاريخ، وتعتمد على منهج واقعي يتخذ من هذا المجتمع _باعتباره واقعا عمليا وتاريخيا واجتماعيا_ منطلقا لأبحاثه وتأملاته التي يكون موضوعها الأول "الإنسان" في صورته الفردية والاجتماعية من جهة، والنفسية والتاريخية من جهة ثانية.⁽¹⁾

من هذا المنطلق، اعتُبر الإنسان حسب المنظومة الفكرية لـ "مالك بن نبي" ركنا أساسيا في تشييد أو بناء (الحضارة) باعتباره العنصر الأول فيها، ومن دونه تفقد العناصر الأخرى قيمتها وفعاليتها، وأهميته تفرض علينا التعرف على مقومات هذا الإنسان الذي يحمله "مالك بن نبي" مسؤولية النهوض أو التغيير الحضاري، وقبل ذلك لا بد لنا من استعراض المفاهيم التي استخدمها عند تناوله لهذا المفهوم.

يستخدم "مالك بن نبي" للدلالة على (الإنسان) مصطلحات مختلفة، وهذا من حيث هو كائن حي تعثره وضعيات تاريخية مختلفة بحسب المرحلة التي يمر بها المجتمع الذي يعيش فيه، فمرة ينظر إليه باعتباره فردا أو كائنا طبيعيا خلقه الله ووضع فيه تكريمه، لم تمسه يد التاريخ بأي تغيير ولم يخضع لأي عملية تكيف، إما لكونه لم يدخل حلقة (الحضارة)، وإما لأنه خرج منها وتحول من إنسان إلى كائن طبيعي تفسّخت أخلاقه وقدراته.⁽²⁾

⁽¹⁾ ينظر أنور الجندي: الفكر والثقافة المعاصر في شمال إفريقيا. المكتبة العربية، دط، القاهرة، 1965، ص 64.

⁽²⁾ ينظر فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 1981م، ص 415.

ومرة أخرى ينظر إليه باعتباره شخصا أو فردا مكيفا، تم إخضاعه لعملية تكييف واختلف وضعه في إطار التاريخ بحسب الوضعية الاجتماعية التي يعيشها وبحسب الوسائل والمؤثرات المبتوثة في إطاره الاجتماعي، والتي تعمل على ترقية شخصيته وتنمية مواهبه وتهدئتها وصقلها -أو العكس من ذلك-، وهذا ما سبق واصطلحنا عليه بـ (الفعالية) و(اللافعالية).

وبعبارة أخرى، فالإنسان طرف لمعادلة ذات حلين:

الأولى معادلة طبيعية: ذات قيمة ثابتة تمثل جوهره كإنسان خلقه أحسن الخالقين، وغير متأثرة بالتاريخ، والثانية معادلة اجتماعية: ذات قيمة قابلة للتغيير والتأثر بالتاريخ والظروف الاجتماعية، أي تمثله ككائن اجتماعي يؤثر فيه التاريخ والحياة ككل.

وبطبيعة الحال، فالمفهوم الثاني أو المعادلة الثانية (إنسان \longleftrightarrow شخص) هي التي تحدد فعالية هذا الإنسان الذي لا يتغير فيه أي شيء في مختلف أطوار التاريخ حسب معادلته الأولى، بل يمسّ التغيير معادلته الثانية، بحيث تتغير فعاليته من طور لآخر.

وهذا يؤكد أن شخصية الإنسان ليست بسيطة، بل هي مركبة معقدة تشتمل على عنصر ثابت يحدد كينونته كإنسان، وآخر متغير يحدد قيمته ككائن اجتماعي أولاه "مالك بن نبي" العناية الكبيرة واعتبره قابلا للتعديل؛ إذ أن الإنسان لا يدخل العمليات الاجتماعية كمادة خام، بل يدخلها في صورة معادلة شخصية صاغها التاريخ وأودع فيها خلاصات تجارب سابقة وعادات ثابتة تحدد موقفه إزاء المشكلات التي تعوقه.

و"مالك بن نبي" عند استعراضه لعناصر (الحضارة) أولى عنصر الإنسان عناية كبيرة، واختصر الحديث عن العنصرين الآخرين، والسبب وراء ذلك هو أن الوقت والتراب لا قيمة لهما إلا بالإنسان، وحتى يتمكن هذا الإنسان من تأدية رسالته لا بد من توجيهه في ثلاث نواح: توجيه الثقافة -توجيه العمل - توجيه رأس المال.

أولا: توجيه الثقافة.

سبق لنا الحديث عنها في فصولنا السابقة (أسس الثقافة).

ثانيا: توجيه العمل.

يعدّ العمل الحلقة الثانية في عملية التوجيه عند "مالك بن نبي"، فهو حسب: « يخط مصير الأشياء في الإطار الاجتماعي، وعلى الرغم من أنه ليس عنصرا أساسيا كالإنسان والزمن والتراب، إلا أنه يتولد من هذه العناصر الثلاثة»⁽¹⁾.

إن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي يعني حسب تصريح "مالك بن نبي": « سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد، بما في ذلك جهد السائل والراعي وصاحب الحرفة والتاجر والطالب والعالم والمرأة والمثقف والفلاح، لكي يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء (...)، وهو تأليف كل هذه الجهود لتغيير وضع الإنسان وخلق بيئته الجديدة»⁽²⁾.

وهنا يضعنا "مالك بن نبي" أمام ملاحظة هامة تتعلق بالفرق بين العمل الكسبي المأجور وبين العمل التلقائي التطوعي أو التربوي، ويرى أن وضع العمل يختلف بحسب المرحلة التاريخية التي يمر بها المجتمع، فهو في مرحلة النهوض ينصبّ على الناحية التربوية لا الكسبية، وهذه الأخيرة تظهر في مراحل أخرى من مراحل تطور المجتمع، وتكون نتيجة للمرحلة الأولى التربوية.

ومجمل القول: المجتمع الذي يريد أن يتقدم نحو أبواب (الحضارة) عليه أن يهتم في المقام الأول بعملية التوجيه العملي، ثم يكون بعد ذلك التوجيه في العمل من أجل كسب العيش، وبعبارة أخرى، يجب على المجتمع أن يوضّح لأفراده أن العمل شرط أساسي ليس فقط لكسب العيش، وإنما هو عملية ضرورية تحقق للمجتمع لونا من ألوان التطور.⁽³⁾

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 114.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 115.

⁽³⁾ ينظر شايف عكاشة: الصراع الحضاري في العالم الإسلامي، ص 121.

ثالثاً: توجيه رأس المال.

عن توجيه المال، يستهل "مالك بن نبي" حديثه في الموضوع بالتمييز بين وضعي رأس المال في (أوروبا) وفي العالم الإسلامي، إذ ترتب عن ذلك في (أوروبا) نشأة طبقة (البروليتاريا) وترکز المال في أيدي الرأسماليين، وهو ما أدى إلى النظر إليه نظرة سياسية من طرف المدرسة الماركسية، وعلى النقيض من ذلك في العالم الإسلامي لم نلمس مشكلة للرأسمالية إلى غاية وقت متقدم من القرن العشرين.

لهذا اختلفت وجهة النظر الرأسمالية في العالم الإسلامي من الجانب السياسي إلى الجانب الاجتماعي، وهنا يصرح "مالك بن نبي": « ومن هنا كان حتما علينا دراسة هذه المشكلات دراسة خاصة، وبالتالي تحديد رأس المال ذاته من زاوية أخرى، باعتباره آلة اجتماعية تنهض بالتقدم المادي، لا آلة سياسية في يد فئة رأسمالية كما عالجها "ماركس" ومدرسته». (1)

وهنا يميز "مالك بن نبي" بين الثروة وبين رأس المال، فبينما تتميز الثروة بالثبات والتمحور حول الملكيات الزراعية خاصة والارتباط بصاحبها، يمتاز رأس المال بالحركية والارتباط بالصناعة في نشأته، وبالتالي اتساع مجاله الاجتماعي واستقلاله عن صاحبه، يقول "مالك بن نبي": « فهو (رأس المال) في جوهره المأل المتحرك الذي يتسع مجاله الاجتماعي بمقتضى حركته ونموه في محيط أكبر من محيط الفرد، وأقصى من المقدار الذي تحدده حاجاته الخاصة. (2)

وإذا كان من الطبيعي أن ننظر للثروة على أساس كمي - كأن نقيم الضيعة بقيمة مادية كمية-، فإن صفة الحركية التي تميز رؤوس الأموال -مهما قلت- يمنحها صفة الكيفية، وهي الصفة التي تلائم وضع العالم الإسلامي.

ونظرا لقلّة الأموال في هذا العالم من جهة، وحتى نتفادى تركيز المال في أياد قليلة وهي من

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 118.

(2) المصدر نفسه، ص 119.

أخطاء الرأسمالية الغربية أثناء نشأتها من جهة أخرى، فعلى حكومات العالم الإسلامي أن تستثمر أموال جميع الفئات الاجتماعية -مهما قلت- في إطار ديمقراطي حسب تصريح "مالك بن نبي" حيث يقول: « فالقضية إنما هي قضية منهاج يحدد لنا تخطيطا مناسباً بنى عليه حياتنا الاقتصادية، ولا يكون فيه مكان لتركيز رؤوس الأموال في أيدي فئة قليلة». ⁽¹⁾

وقصد الاستفادة قدر الإمكان من المقدرات الذاتية للعالم الإسلامي، يقترح "مالك بن نبي" تشكيل مجلس لتوجيه الثروة وتوظيفها لتحويلها إلى رأسمال.

نستخلص -مما قلناه- أنّ توجيه رأس المال من أجل بناء (حضارة) ما لا يتطلب دائما كمية عظيمة من المال، وإنما يتطلب قبل كل شيء كيفية تسيير ما توافر للمجتمع من مال مهما كانت كميته ضئيلة، وذلك لأن رأس المال ما هو في حقيقة أمره إلا عامل ثانوي بالقياس إلى العامل الأساسي وهو (الإنسان)، بل إن رأس المال والعمل منوطان بالإنسان ذاته، والذي يضاعف العمل المفيد بفضل توجيهاته الثقافية، وبالتالي يتضاعف رأس المال.

تلك هي الجوانب الثلاث التي عالج منها "مالك بن نبي" مشكلة الإنسان باعتباره العنصر الأساس في مشكلة (الحضارة)، فإذا تمّ التوجيه من جوانبه الثلاث، فإن الفرد يكون قد استكمل الشروط اللازمة لتشييد (حضارة) تطابق إطاره الخاص - كما يرى "مالك بن نبي" -.

المطلب الثاني: التراب.

هو العنصر الثاني الذي يشكّل (الحضارة) في فكر "مالك بن نبي"، وهو حين يتكلم عنه لا يبحث في خصائصه وطبيعته، وإنما يبحث في قيمته الاجتماعية، وقد بيّن أن سبب استخدامه لمصطلح (التراب) بدلا من (المادة) هو تحاشي اللبس الموجود في كلمة (مادة)، حيث أنها تعني في باب الأخلاق مفهوما مقابلا لكلمة (روح)، وتعني في باب العلوم مفهوما ضد مفهوم كلمة (طاقة)، وفي الفلسفة نجدها تعطي فكرة هي نقيض ما يطلق عليه اسم (المثالية).

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 121.

إن مفهوم التراب عند "مالك بن نبي" ينبع في الجانب الاجتماعي من جانبين:

❖ **جانب تشريعي:** أي من حيث تشريع ملكيته في المجتمع، فلتشريع أثره في الجانب الاجتماعي، من حيث كونه يحقق للفرد الضمانات الاجتماعية بقدر ما يكون محققا للمصالح العامة أو للمصالح العام.

❖ **جانب فني:** من حيث استخدامه فنيا وتقنيا باستغلاله وفق شروطه بما يحقق مصلحة المجتمع.

ومن الطبيعي أن يخضع عنصر التراب للإنسان، لأن التراب ليس إلا مادة جامدة ما لم تحركه سواعد موجهة توجيها هادفا، فحين تكون السواعد _أو لنقل الأمة على وجه العموم_ مرتفعة القيمة متقدمة (الحضارة) يكون التراب غالي القيمة، وحين تكون متخلفة يكون التراب على قدر من الانحطاط، وذلك بسبب تأخر القوم الذين يعيشون عليه _حسب "مالك بن نبي" _فها هي رمال الصحراء تغزو بشراهة الحقول الخضراء على امتداد الوطن العربي، فتترك أهلها يتامى بين يدي الصحراء المقفرة.

وبديهى أنه لا حل لهذه الأزمة غير الشجرة، لكن إذا ما كان الإنسان الزارع لهذه الشجرة والمؤمن على رعايتها يعيش حالة تصحر داخلي فلا أمل من رؤية اللون الأخضر مرة ثانية.

المطلب الثالث: الوقت / الزمن.

هو العنصر الثالث في تكوين (الحضارة)، و"مالك بن نبي" في معالجته له لا يقصد به الزمن المطلق، وإنما ينظر إليه من الناحية الاجتماعية باعتبار قيمته عند الإنسان، أي باعتبار دخوله في تكوين الفكرة والنشاط وفي تكوين المعاني والأشياء، ومن ثمّ في تكوين (الحضارة) باعتبار الإنسان أحد منتجاتها وركنا أساسيا من أركانها _كما سبقت لنا الإشارة_. ونظرا لشمولية الزمن وأهميته

في البناء الحضاري، يرى "مالك بن نبي" أنه من الواجب تكييفه وتحويله إلى زمن اجتماعي، بإدماجه ضمن العمليات الصناعية والاقتصادية والثقافية، ويتجلى لنا هذا من خلال تشبيهه للزمن بالنهر المنساب عبر التاريخ، فيقول: « فهو يمر خلال المدن، يغذي نشاطها بطاقته الأبدية (...)،

وهو يتدفق على السواء في أرض كل شعب ومجال كل فرد بفيض من الساعات اليومية التي لا تغيض، ولكنه في مجال ما يصير ثروة (...)، فهو يَمَرُّ خلال الحياة، ويصب في التاريخ تلك القيم التي منحها له ما أنجز فيه من أعمال». (1)

وفي الوقت عينه، يحذر "مالك بن نبي" من هدر الزمن وتضييعه هباء من خلال قوله: « (...) ولكنه نهر صامت، حتى إننا ننساه أحيانا، وتنسى الحضارات في ساعات الغفلة أو نشوة الحظ قيمته التي لا تعوض، ومع ذلك ففي ساعات الخطر في التاريخ تمتزج قيمة الزمن بغريزة المحافظة على البقاء، فإذا استيقظت هذه الغريزة في هذه الساعات التي تحدث فيها انتفاضات الشعوب، لا يقوم الوقت بالمال كما ينتفي عنه معنى العدم، إنه يصبح جوهر الحياة الذي لا يقدر». (2)

ولو عدنا إلى صفحات التاريخ، لعثرنا على العديد من التجارب التي تدل على أهمية الزمن ودوره في النهوض الحضاري، فالإنسان الألماني استطاع أن ينفذ الغبار عن عاتقيه بعد الدمار الذي حل به خلال الحرب العالمية الثانية في وقت قصير جدا، فبعد أقل من عشر سنوات من انتهاء الحرب أصبحت (ألمانيا) تتمركز في مكانها الحضاري، مسايرة في ذلك الدول المتحضرة، وبدون شك فالسبب وراء نهضتها هاته يعود بالدرجة الأولى إلى موقف الإنسان من الزمن، وإلى حسن استغلاله له من خلال اتخاذه لمجموعة من الإجراءات الناجحة كزيادة ساعات العمل وتقديس الوقت وتحفيز العمال / الشعب.

وحتى نهضتنا الإسلامية قامت على مبدأ تقديس الوقت كقولنا: «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك»، «الوقت من ذهب إن لم تغتنمه ذهب»، ويتجسد هذا في أن أحد المسلمين كان يحمل صخرتين بدل واحدة أثناء بناء الكعبة، وهذا دليل على إدراك المسلم لقيمة الوقت وأهميته.

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 145.

(2) المصدر نفسه، ص 145.

وطبيعي أن هذا لا يعني مجرد السرعة في تنفيذ المشاريع، فاحترام الوقت لا يتوافر لأي إنسان أو مجتمع، إنما يتوافر للإنسان أو المجتمع الذي خضع للتوجيهات السابقة: التوجيه الأخلاقي، التوجيه الجمالي، التوجيه المنطقي، والتوجيه الثقافي، ولولا هذه التوجيهات لكان عمل الإنسان الألماني أو عمل الإنسان المسلم القديم مجرد سباق في الفراغ وعاقبته كما يقال "الندامة وليست السلامة".⁽¹⁾

هذه هي عناصر (الحضارة) كما يراها "مالك بن نبي"، أو كما توصل إليها عن طريق التحليل والتركيب، وقد انتقد "غازي التوبة" هذا التحديد الذي انتهى إليه "مالك بن نبي"، فرأى بأن استغلال الإنسان للتراب والوقت لا يعطي بالضرورة (حضارة) حسب المعادلة:

(إنسان + تراب + وقت = حضارة)، فقد يكون: (إنسان + تراب + وقت = دمار).

حيث يقول: « والوضع الصحيح للمعادلة هو: (إنسان متوازن = حضارة)، ولما كان المسلم حتما متوازنا تصبح صورة المعادلة كالتالي: (إنسان مسلم = حضارة)، ولما كان المسلم هو الإنسان الوحيد الذي يمكنه أن يحقق التوازن، لذا فإننا نستطيع أن نحصر المعادلة السابقة بالشكل التالي: الحضارة فقط للإنسان المسلم». ⁽²⁾

المبحث الرابع: الدورة الحضارية عند "مالك بن نبي".

⁽¹⁾ ينظر شايف عكاشة: الصراع الحضاري في العالم الإسلامي، ص (123/124).

⁽²⁾ آمنة تشكيو: مفهوم الحضارة عند "مالك بن نبي" و"أرنولد توينبي". المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1989م، ص

استخلص "مالك بن نبي" من خلال قراءاته المتعددة المشارب للتاريخ البشري وفلسفته ولتاريخ (الحضارة الإسلامية)، أنّ مسيرة الأمم والجماعات تخضع لنظام دوري، وهذا في نظره ما يجعل الأمة في فترة من فترات تاريخها الحضاري تسجل مآثر عظيمة تبقى خالدة في سجل تاريخها وتاريخ البشرية من حولها، كما تسجل في فترات أخرى انتكاسات حضارية وسياسية وعمرانية... إلخ.

من هنا جاءت فكرة الحديث عن (الدورة الحضارية) عند "مالك بن نبي"، والتي خصّها للحديث عن مراحل (الحضارة) من جهة، و لإبراز الدور التاريخي الذي تقدمه كل مرحلة للمرحلة الموالية من جهة أخرى.

المطلب الأول: تعريف الدورة الحضارية عند "مالك بن نبي".

قبل خوض غمار البحث في تفاصيل وحشيات (الدورة الحضارية) عند "مالك بن نبي" وربطها بمقاربات فلسفية تاريخية وغيرها، لا بد لنا من توضيح مفهوم (الدورة الحضارية) وتحديد مميزات.

يستهل "مالك بن نبي" حديثه عن الموضوع بمقولة الفيلسوف الألماني "نيتشه": « إنه من السنن الأزلية أن يعيد التاريخ نفسه كما تعيد الشمس كرتها من نقطة الانقلاب»⁽¹⁾.

و(الحضارة) حسبه تخضع للنواميس نفسها التي تخضع لها مخلوقات الله في هذا الكون، فاليوم يبدأ بالشروق والزوال ثم يتبعه الغروب الذي يسدل الظلام على الكون، لتعاد العملية ذاتها مع إشراقة شمس فجر جديد، وكذا الهلال يبرز ليستكمل دورته تدريجيا ثم ينتهي بالزوال ليبدأ شهر جديد، وانطلاقا من هذا يقول "مالك بن نبي": « إذا نظرنا إلى الأشياء من الوجهة الكونية فإننا نرى

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 52.

الحضارة تسير كما تسير الشمس، فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشهب ثم متحولة إلى أفق شعب آخر». (1)

ولا يعني هذا أن التاريخ يفرّق هداياه أو يوزّع أبعاده لأي كان كما تنشر الشمس أشعتها حينما تأذن بالشروق، لكن التاريخ كتلة من السنن والنواميس الإلهية التي تتحكم في توجيه الأفراد والمجتمعات على السواء، إذ لا بد من استيعابها والسير على هداها.

وعليه فالحضارة في ارتباطها بالتاريخ حسب "مالك بن نبي": « لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا، أو هي على الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قُدّر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيدا عن حقبته، إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة يكتشف معها أسس معاني الأشياء التي تهيم عليها عبقريته وتتفاعل معها». (2)

إنّ من ملاحظات "مالك بن نبي" أن للحضارات كُلهما عمر وحظ لأداء وظيفتها ورسالتها عبر التاريخ، ومن ذلك فد (الحضارة) دورة وتسلسل، فكما للسلسلة مبتدؤها ومنهاها فلا (الحضارة) كذلك مبتدأ ومنتهى، فهي تمرّ في تطورها بمراحل تشبه المراحل العمرية للإنسان من طفولة وصبا وشباب ثم شيخوخة وموت، وكل مرحلة منها تشهد بداية وتحمل سمات محددة ثم تبدأ في التراجع والتخلف لتشهد النهاية ولتبدأ دورة حضارية جديدة في مجتمع آخر طبقا لتركيب عضوي وتاريخي جديد، وعن هذا يقول: « يجب أن ينتهي التاريخ في نقطة ما كي يتجدد التاريخ من نقطة جديدة». (3)

وعلى هذا، فللحضارة دقات زمنية مزدوجة، وهي الظهور والأفول اللذان يمثلان نبضات

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 55.

(2) المصدر نفسه، ص 56.

(3) مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ص (18/17).

التاريخ، وهذا يشبه الدورة الدموية أو نبضات القلب في حالتي الانقباض (Systole) والاسترخاء (Diastole)، ففي المرحلة الأولى تنبعث الحياة في جميع الخلايا من خلال تدفق الدماء في الشرايين حاملة معها أسباب الانتعاش والمعاش، وفي المرحلة المعاكسة تعود تلك الدماء مثقلة بالفضلات والغازات، وكذلك الأمر بالنسبة لـ (الحضارة) في ارتباطها بالتاريخ تنبعث من منطلقها زاهرة صاعدة حتى تبلغ أوجها ثم تتراخي وتهوي تحت أثقالها وأوزارها إلى غاية أفولها.

من هنا، توصل "مالك بن نبي" إلى أن (الحضارة) أياً كانت يحكمها قانون الهجرة أو الدورة، والذي يعني في حقيقة أمره استمرار (الحضارة) وتنقلها من مكان نفذت فيه عناصرها وشروطها الأولية إلى مكان آخر توفرت فيه هذه الشروط لتنتقل منها دورة جديدة تواصل به سيرها إلى أن ينتهي التكليف وتنقضي سنّة (الحضارة)، ذلك أن التداول الحضاري نقطة مهمة في فهم المنطلق الذي درس من خلاله "مالك بن نبي" (الحضارة) بشقيها العربي والغربي وأفرد لها جانباً مهماً في معظم كتاباته وفي نظريته عن البناء الحضاري.

ففي دراسته (للظاهرة الدورية) كما اصطاح عليها في كتابه (وجهة العالم الإسلامي) نجد أنه يصدر الفصل الأول منه بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران، الآية 140) ليؤسس عليه قانون (الدورة الحضارية) أو (التداول الحضاري)، فيرى أنّ لدراسة التاريخ جوانب متعددة، منها الجانب الفردي بالقياس إلى الفرد وبالتالي فهو دراسة نفسية ومنها الجانب الاجتماعي بالقياس إلى المجتمع وبالتالي فهو دراسة اجتماعية، وفي هذا يقول: « والواقع أن لنا هنا جانبين جوهريين: الجانب الميثافيزيقي أو الكوني: وهو جانب ذو هدف عام وذو غاية، والجانب التاريخي الاجتماعي: وهو جانب مرتبط بسلسلة من الأسباب»⁽¹⁾.

وهذا الجانب الأخير (الاجتماعي) تتمثل فيه (الحضارة) وكأنها: « مجموعة عديدة تتابع في وحدات متشابهة ولكنها غير متماثلة، وهكذا تتجلى لأفهامنا حقيقة جوهرية هي (دورة الحضارة) وكل

⁽¹⁾ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 23.

دورة محددة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معين، فهي حضارة بهذه الشروط، ثم إنها تهاجر وتنتقل بقيمتها إلى بقعة أخرى، وهكذا تستمر في هجرة لا نهاية لها تسجل خلالها شيئاً آخر، بحيث تعد تركيباً خاصاً للإنسان والتراب والوقت»⁽¹⁾.

و"مالك بن نبي" يقصد هنا بـ (المجموعات العددية المتتابعة): (الحضارات) التي تتشابه في أنها تمثل حلقات متصلة من الملحمة الإنسانية الخالدة، إلا أنها تختلف عن بعضها البعض من حيث كون كل (دورة حضارية) محددة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معين، فإذا ما توفرت هذه الشروط كانت (حضارة)، ثم إنها تهاجر إذا ما اختل تركيبها إلى موطن آخر متحولة معه إلى (حضارة) أخرى وفق تركيب خاص للإنسان والتراب والوقت.

وهذا يجعلنا إلى ميزة السيرورة التي تحكم (الحضارة)، ذلك أن هذه الأخيرة لا تعرف الثبات ولا السكون، فهي في حركة تنقل مستمر من حال لآخر ومن مكان لآخر، ومن الصعب أن نحدد جذور هذه الحركة في الزمان والمكان، حيث أن أبعادها التاريخية تتحرك في رقعة غير ثابتة من خلال التعاقب الدوري بين الحضارات، و"مالك بن نبي" على الرغم من تأثره الواضح بـ"ابن خلدون"، وعلى الرغم من اعتباره له مكتشف منطق التاريخ من خلال نظريته حول أعمار الدولة ودور العصبية في تحقيق سنة التداول، فهو ينتقده في ضيق مفهومه لدراسة الدول وضيق مفهومه عن العصبية والدولة، كما ينتقد صفة الحتمية التي تتصف بها الدورة الحضارية الخلدونية التي تجعل الدول جميعها خاضعة لنظام واحد، أي لا توجد دولة لا يغلبها غالب، ولكل دولة عمر كعمر الأفراد، تبدأ فعالة نشيطة ثم تبلغ النضج فيتبعها الضعف والهزم والموت، وفي هذا يقول "مالك بن نبي": «كان ابن خلدون وحده، أول من استنبط فكرة الدورة في نظريته عن "الأجيال الثلاثة"، حيث يختفي عمق الفكرة خلف مصطلحات ضيقة ضحلة، فقد رد نطاق الحضارة إلى حدود العصبية الأسرية، وعلى الرغم من ضيق هذه النظرة التي قد تعكس لنا عناصر النفس الإسلامية آنذاك، فإنها تدفعنا إلى تأكيد

⁽¹⁾ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 23.

الجانب الانتقالي في الحضارة، أي أننا لا نرى فيه سوى تعاقب ظواهر عضوية لكل منها بالضرورة في مجالها المعين بداية ونهاية». (1)

إن "مالك بن نبي" في انتقاده لصفة الحتمية يجعلها صادقة صدقا نسبيا؛ ذلك أنها صالحة في المجال الحيوي البيولوجي فقط، أما على المستوى الاجتماعي فهي حتمية محدودة، حيث يقول في ذلك: «ومن الملاحظ أن التعارض الداخلي بين أسباب الحياة والموت في أية عملية حيوية بيولوجية هو الذي يؤدي بالكائن إلى قمة نموه ثم إلى نهاية تحلله، أما في المجال الاجتماعي فإن هذه الحتمية محدودة- بل مشروطة- لأن اتجاه التطور وأجله يخضعان لعوامل نفسية زمنية يمكن للمجتمع المنظم أن يعمل في نطاقها حين يعدل حياته ويسعى نحو غاياته في صورة متجانسة منسجمة». (2)

وعليه، فـ "مالك بن نبي" في نظريته للدورة الحضارية لا يشبهها بالكائن الحي بصورة مطلقة، بل يقدمها في إطار اجتماعي يعتبر شعارا للتغيير الاجتماعي، حيث أنّ كل مجتمع يمتلك إرادة تغيير أوضاعه وتعديل مساراته متى توفرت له إمكانيات التغيير الاجتماعي، فمستقبل البشرية في يد الإنسان، ولا يعدّ هذا انتقاصا من القدرة الإلهية التي قررت عند خلق الإنسان أن يكون هذا الأخير مخلوقا له إرادة حرة في الفعل أو الترك، كما سنّت قانونا إلهيا يتجلى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد، الآية 11).

ومن هنا، فهو ينتقد الذين ينظرون إلى مشكلة العالم الإسلامي بسطحية ومعزل عن التيار العام للإنسانية والقانون الذي يضبط انتقال (الحضارة) في شروطها النفسية والاجتماعية فيقول: «هذه الملاحظات تدفعنا إلى أن ننتقد مسالك بعض الباحثين حين ينظرون إلى ظاهرة الحضارة منفصلة عن ظاهرة الانحطاط، وإن العالم الإسلامي لفي مسيس الحاجة في هذه النقطة إلى أفكار

(1) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 24.

(2) المصدر نفسه، ص 24.

واضحة تهدي سعيه نحو النهضة، ولهذا فإن ما يهمنا في المقام الأول أن نتأمل الأسباب البعيدة التي حتمت تقهقره وانحطاطه». (1)

وفي دراسته لانحطاط العالم الإسلامي والسبيل إلى تحقيق النهضة، يدعو "مالك بن نبي" إلى تأمل دورة التاريخ وتسلسله لتحقيق إدراك واع بمكاننا من دورة التاريخ، ولإدراك أوضاعنا وما يعترينا من عوامل الانحطاط، فيقول: « فإذا ما حددنا مكاننا من دورة التاريخ، سهل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا». (2)

فتحديد المكان الذي نوجد فيه يسهل علينا كثيرا معرفة إمكاناتنا، كما يساهم في تحقيق وعي بأسباب التخلف وعوامل النهضة الكامنة في ذاتنا، وإذا ما غاب هذا التحديد فإننا قد ننهمك في حل إشكالات ليست حقيقية أو أن صلتها بأزمئتنا صلة واهية أو معدومة؛ إذ من الواضح أن الفرق شاسع بين مشاكل ندرسها في إطار الدورة الزمنية الغربية وبين مشاكل أخرى تولدت في نطاق الدورة الإسلامية.

ولعل أعظم ملامح تخلفنا أننا نجهل النقطة التي نبدأ منها تاريخنا، مما جعلنا نُراوح المكان بين أن نحتمي بالتاريخ وبين أن نظفر إلى الأمام طفرة عمياء في حركتنا نحو الغرب، ولهذا يؤكد "مالك بن نبي" أنه: « لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلا مكان أمته و مركزها، بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أمّا أن يستورد حلولا من الشرق أو الغرب، فإن في ذلك تضييعا للجهد ومضاعفة للداء، إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار». (3)

غير أن هذا لا يدفع إلى الانعزال عن بقية الإنسانية والتعلم من التجارب التي يتم إنجازها

(1) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص (25/24).

(2) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 52.

(3) المصدر نفسه، ص 53.

وبخاصة في عالم يشهد انحسار الحدود وتقريب المسافات بين الشعوب والأمم والحضارات، مما يدفعنا إلى تحديد مكاننا من منطلق واقع اجتماعي معيش.

ومن هذه الرؤية الواقعية ينطلق "مالك بن نبي" إلى اعتبار أن العالم يتجه نحو التوحد - ولا يمكن للعالم الإسلامي أن يعيش في عزلة- وعلى الرغم من أن حلول العالم الإسلامي لا تأتي من خارج حدوده، فإنه مطالب أن يتعلم من التجارب الإنسانية ومنها التجربة الغربية التي شهدت إنجازات كبرى كما عرفت إخفاقات كبرى في جوانب أخرى تتصل من قريب أو من بعيد بالمشكلة الإسلامية في بعض جوانبها.

في ختام حديثنا عن مفهوم (الدورة الحضارية) نتوصل إلى تسجيل النقاط التالية:

- التاريخ البشري عبارة عن مجموعة من الدورات يكمل بعضها بعضا، وكل دورة منها تشكل (حضارة) معينة لمجتمع معين، وتتميز الدورات بما يلي: كل دورة عبارة عن وحدات متشابهة وليست متماثلة، كل منها محدد بشروط نفسية زمنية، كل دورة تمر بثلاثة أطوار، كل دورة محكومة بقانون التغيير والتجدد.

- يرى "مالك بن نبي" أن هناك فرقا بين (الحضارة الإنسانية) وبين (الحضارة) في نطاق مجتمع ما، فالأولى تسير بخط صاعد، بعكس الثانية التي تسير بخط دوري، ومن ثمَّ هناك تكامل بين سير (الحضارة الإنسانية) وبين الدورات الاجتماعية، فكلما تجاوزت (الحضارة الإنسانية) (الحضارة الاجتماعية) في نطاق مجتمع ما، فإن الدورة في نطاق هذا المجتمع تتوقف وتبدأ دورة أخرى في ظروف جديدة، حيث تهاجر بقيمتها إلى بقعة أخرى وتستمر في الهجرة مشكلة بذلك تركيبا خاصا للإنسان والتراب والوقت.

- يتناول "مالك بن نبي" (الحضارة) في النطاق الإنساني باعتبار غايتها، أما في النطاق الاجتماعي فباعتبار نيتها أو مدى تحقيقها للضمانات اللازمة لتقدم الإنسان؛ ذلك أن التاريخ الكوني ذو غاية ومغزى، أما التاريخ الاجتماعي فهو مرتبط بسلسلة من الأسباب داخل رقعة (الحضارة).

المطلب الثاني: مراحل الحضارة عند "مالك بن نبي".

إن (الدورة الحضارية) تشكل تصورا لحركية التاريخ في محاولة للكشف عن نمطها وطبيعتها والبحث عن أسباب قيام الحضارات وسقوطها، و"مالك بن نبي" يعتبر من أشهر روادها وأعلامها، وقد توصلنا من خلال بحثنا في مفهوم (الدورة الحضارية) عند "مالك بن نبي" إلى أن هذا الأخير يفسر الحضارة من جانبين:

الجانب الأول: من ناحية المجتمع، أي بالنسبة إلى ثقافته ورقعته الجغرافية.

الجانب الثاني: من ناحية الإنسان، باعتباره عاملا نفسيا زمنيا مؤثرا في بناء (الحضارة).

وفي هذا الصدد يقول: « لدراسة التاريخ جوانب متعددة، فإذا ما تناولناه بالقياس إلى الفرد كان دراسة نفسية، إذ يكون دراسةً للإنسان من حيث كونه عاملا نفسيا زمنيا في بناء الحضارة، ولكن هذه الحضارة تعدّ مظهرا من مظاهر الحياة والفكر الجماعي، و من هذا الجانب الأخير يُعتبر التاريخ دراسة اجتماعية، إذ يكون دراسة لشرائط نمو مجتمع معين لا يقوم نموه على حقائق الجنس أو عوامل السياسة بقدر ما يخضع لخصائصه الأخلاقية والجمالية والصناعية المتوفرة في رقعة تلك الحضارة، غير أن هذا المجتمع ليس معزولا، بل تطوره مشروط ببعض الصلات الضرورية مع بقية المجموعة الإنسانية، ومن هذا الجانب يصبح التاريخ ضربا من الميثافيزيقا، إذ أن مجاله يمتد إلى ما وراء السببية التاريخية لكي يلم بالظواهر في غايتها».⁽¹⁾

ومعنى هذا أن الجانبين الأول والثاني يفسران (الحضارة) في حدود النطاق الاجتماعي

لمجتمع ما

وسنعمد إلى الجمع بينهما نظرا للارتباط الوثيق بينهما، ذلك أن وضع الإنسان باعتباره جزءا من المجتمع لا يختلف في مسيرته عن مسيرة مجتمعه، فهو يبدأ في الدخول إلى (الحضارة) حين يدخلها مجتمعه، ويخرج منها بخروج مجتمعه.

⁽¹⁾ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 21.

ينطلق "مالك بن نبي" في تفسيره ودراسته لـ (الحضارة) من التمييز بين نمطين من المجتمع هما: "المجتمع البدائي" و"المجتمع التاريخي"، فيعمد بذلك إلى التمييز بينهما ويجعل (الحضارة) مختصة بالنمط الثاني.

● "المجتمع البدائي": أو "المجتمع الطبيعي": وهو مجتمع ساكن ثابت مازال يعيش على حالته الطبيعية البدائية الأولى ولم تتدخل فيه الفكرة الدينية المحركة لعجلة المجتمع، ومازال الإنسان فيه لم يتمثل للدين ليؤسس شبكة علاقاته الاجتماعية، ولا يزال يحتفظ بالخصائص البدائية التي يمارس من خلالها المجتمع بعض العادات المتعلقة بالتجارة والحروب وحياة الصعلكة كالسلب والنهب وبعض الصنائع الحياتية التي تلبى حاجات المجتمع اليومية، أو لأداء طقوسه الدينية، يقول "مالك بن نبي" « (...) هو الذي لم يعدل بطريقة مُحسَّنة المعالم التي تحدد شخصيته منذ كان (...)»، وهذا النوع يحقق نموذج المجتمع الساكن ذو المعالم الثابتة، كالمجتمعات الموجودة في مستعمرة النمل أو النحل، والقبيلة الإفريقية في عصر ما قبل الاستعمار والقبيلة العربية في العصر الجاهلي تمثلان هذا النموذج». (1)

● المجتمع التاريخي: وهو مجتمع مكيف متحرك عدل من صفاته الغريزية في إطار عملية تغييرية تأخذ بالإنسان كمحور لها، وهو خاضع لقانون التطور، قابل للاجتماع والانحراط في شبكة علاقات اجتماعية متينة متجاوزا بذلك (عالم الأشياء) إلى (عالم الأفكار) في عملية تخصيب فكري للبواعث الثقافية في مجال التجديد والخلق والإبداع، وفي هذا يقول "مالك بن نبي": « المجتمع الذي وُلد في ظروف أولية معينة، ولكنه عدل من بعد صفاته الجذرية ابتداء من هذه الحالة الأولية طبقا لقانون تطوره (...)»، وهو يحقق النموذج المتحرك، أعني المجتمع الذي يخضع لقانون التغيير الذي يعدل معاملة من جذورها». (2)

(1) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 9.

(2) المصدر نفسه، ص (10/9).

إنّ النموذج التاريخي من المجتمعات يتعرض للتنوع الناشئ عن الظرف التاريخي الذي يتيح له ميلاده، وهناك من هذه الزاوية نوعان من المجتمع:

أ/ المجتمع التاريخي الذي يولد: فيكون ميلاده إجابة عن اختيار مفروض تفرضه الظروف الطبيعية الخاصة بالوسط الذي يولد فيه، سواء تعرّض هذا الوسط لتنوع مفاجئ أو أن العناصر المكونة له قد واجهت فجأة ظروف وسط طبيعي جديد، وهذا هو النموذج الجغرافي الذي ينتمي إليه المجتمع الأمريكي الذي تشكّل من خلال الهجرات الأوروبية التي شكلت إرهابات مجتمع جديد تكيف مع الظروف الطبيعية في القارة الجديدة.

ب/ المجتمع التاريخي الذي يرى النور تلبية لنداء فكرة: وهذا هو النموذج الفكري الإيديولوجي الذي ينتمي إليه المجتمع الإسلامي، وكذا المجتمع السوفيياتي والمجتمع الصيني.⁽¹⁾

والسؤال المطروح هنا هو: هل يمكن للمجتمع أن ينتقل من حالته البدائية إلى حالته التاريخية؟، وإذا ما صدق هذا الاقتراض، فما السبيل إلى ذلك؟

إن المجتمع حسب "مالك بن نبي" يقوم على دعامين أساسيتين هما:

أولاً: الروح: هي الفكرة الدينية التي تُحدث في المجتمع حالة الطاقة الحيوية التي تحوّل الإنسان من فرد يفقد خصائص طبيعية تولد معه إلى شخص مكيف مع مقتضيات المجتمع التاريخي؛ فالروح هي التي تؤنسن الإنسان، يقول "مالك بن نبي": «إذن فالعلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه وتلدها في صورة القيمة الأخلاقية، فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية و العلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنهما حدث، ومن الوجهة الكونية على أنها عنوان على حركة تطور اجتماعي واحدة».⁽²⁾

⁽¹⁾ ينظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص (12/11).

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 56.

فالفكرة الدينية تعتبر بمثابة الوقود في المحرك الميكانيكي، فليس المهم في بناء الإنسان الجديد أن يبدل نمط أو زيّ لباسه ونوعية أثاث منزله ومكتبه، لكن المهم أن نحدّد له إطاره الحضاري في مجال (الثقافة) والأخلاق والاقتصاد وكافة المجالات، أي أن نقتلع ونصفيّ (القابلية للاستعمار) من عالمه الداخلي حتى تنطلق الحيوية من عالمه الخارجي.

ثانياً: المادة: وهي الدعامة الثانية في بناء المجتمع، حيث لا يمكن أن يستمر المجتمع دون وجود الجانب المادي فيه والذي تتم من خلاله الحركة وتستمر؛ فالروح تبني المجتمع وتسيّر وتوجّه التجويف الداخلي للمجتمع، بينما المادة هي الدعامة التي تُحدّث التوازن داخله.

إذن: دخول الدين والمادة محيطاً مجتمع معين هو النقطة التي يتحدد منها ميلاده، فيبدأ تطوره بحسب قوانين تغير المجتمعات وتطورها، ويمكن ملاحظة هذا التطور من خلال النشاط المشترك للعوامل المكونة لذلك المجتمع، أي في ضوء علاقاته الاجتماعية التي تحدد فعالية عوامله، كلها، (عالم الأفكار)، (عالم الأشخاص)، (عالم الأشياء).

ولمّا كانت (الحضارة) رهينة بالمجتمع التاريخي، فـ "مالك بن نبي" يرى أنّ أي مجتمع تاريخي يحتل مركزاً محددًا على محور يمثل جميع مراحل التطور التي حددها التاريخ في ثلاث مراحل وهي: (1)

المرحلة الأولى: مرحلة المجتمع قبل التحضر.

المرحلة الثانية: مرحلة المجتمع المتحضر.

المرحلة الثالثة: مرحلة المجتمع بعد التحضر.

1 / مرحلة المجتمع قبل التحضر _مرحلة المجتمع بعد التحضر:

(1) ينظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 37.

إذا كان المجتمع قبل التحضر يوافق المجتمع البدائي حسب التحديد السابق لـ"مالك بن نبي"، والذي يتميز بالحدودية وانتفاء الحركة -أي السكون- والذي يكون فيه عالم الأشياء فقيراً للغاية، وتكون فيه الأشياء بدائية كما يقول "مالك بن نبي" ك: « السيف والرمح والوتد والكنانة والقوس والسهام والجمل والحصان والسرج (...)»، والأدوات المنزلية الهزيلة المقرونة بحياة البداوة⁽¹⁾. فإن مجتمع ما بعد (الحضارة) حسب تقدير أغلب المؤرخين هو: « مجتمع

يواصل سيره في طريق حضارته⁽²⁾. غير أن هذا يضيف نوعاً من الغموض على المفهوم الحضاري نفسه، ويخلط في الوقت ذاته بين عملية التطور وبين عملية التخلف.

ذلك أن التاريخ متحرك، والمجتمع المتحضر قد يتابع مسيرته الحضارية ويبقى في سلم (الحضارة) أو التحضر، وقد يخفق في مواصلة مسيرته الحضارية ويبدأ في التدهور ثم التخلف شيئاً فشيئاً عن مواكبة (الحضارة) التي تسير في مجتمعات أخرى.

ومعنى هذا أنّ مجتمع ما بعد التحضر هو: « ليس مجتمعاً يقف مكانه، بل هو يتقهقر إلى الوراء بعد أن هجر درب حضارته وقطع صلته بها⁽³⁾.

ويتجلى هذا الوضع في عوامله التي تبدو وقد أُفْرِغَتْ من محتواها الأصيل، فهي تختلف عن مرحلة ما قبل التحضر من حيث الوفرة، ولكنها تتفق من ناحية أخرى في انعدام الفعالية لتلك العوالم كلها.

ويمكننا هنا أن نضع المجتمع الإسلامي في إطار مجتمع ما بعد التحضر، أي المجتمع المتخلف، ونضع في إطار مجتمع ما قبل التحضر أيّ مجتمع لم يعرف طوال عصوره (حضارة) أو بادرة

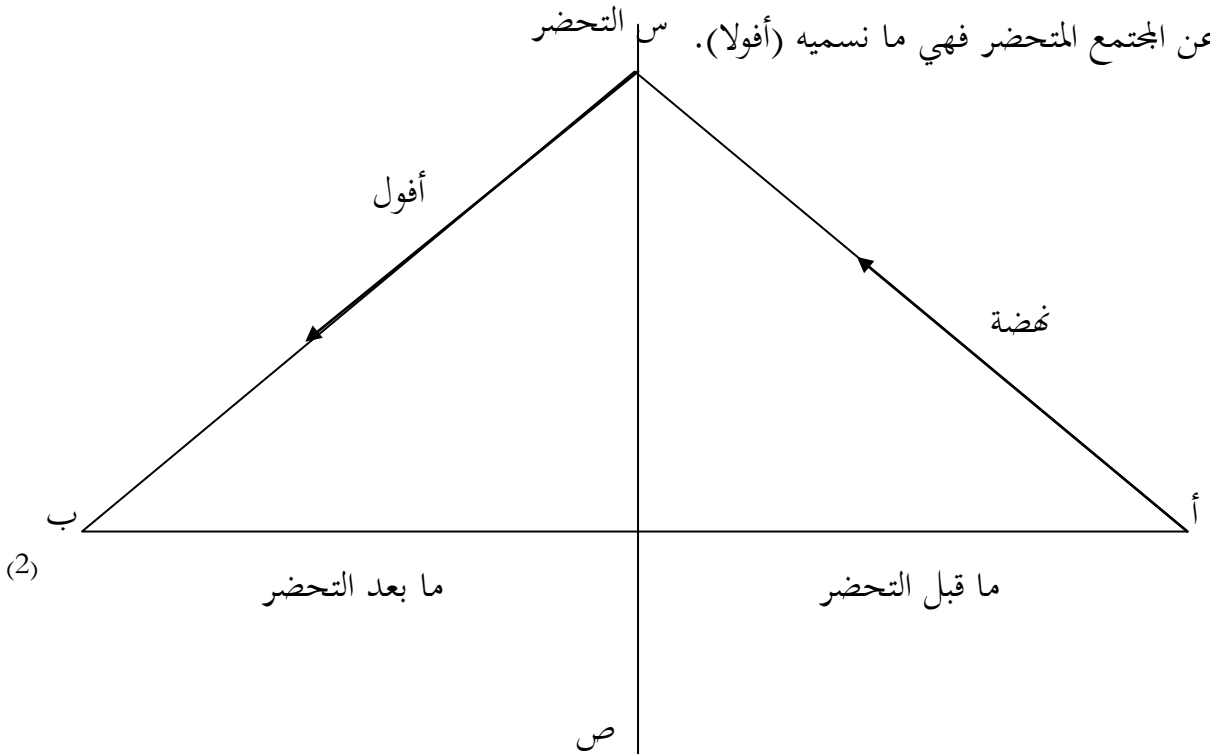
⁽¹⁾ ينظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 39.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 39.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص 38.

(حضارة)، ونلاحظ أنّ المجتمع الإسلامي لا يزال يحتفظ بعناصر حضارته المندثرة على الرغم من أنها (العناصر) أصبحت غير فعالة ولا يحتاج إلى الفعالية لكي ينطلق، في حين يحتاج المجتمع الآخر الذي لم يعرف في حياته (حضارة) إلى العناصر والفعالية معا، وإذا ما توفرت للمجتمع الأول الفعالية فإنه لا يبدأ من الصفر كما سيبدأ المجتمع الثاني الذي ليست له عناصر الحضارة.⁽¹⁾

كما يمكننا تحديد الفرق بين مجتمع ما قبل التحضر وبين مجتمع ما بعد التحضر بواسطة تحديد المسافة التي تفصل كلا المجتمعين عن المجتمع المتحضر، فالنقطة التي تفصل مجتمع ما قبل التحضر عن المجتمع المتحضر هي ما نسميه (هضبة)، وأما النقطة التي تفصل مجتمع ما بعد التحضر عن المجتمع المتحضر فهي ما نسميه (أفولا). س التحضر



مخطط بياني يوضح الفرق بين مجتمعي ما قبل التحضر و ما بعد التحضر.

يتجلى مما سبق: أنّ مجتمع ما قبل التحضر يمثل انطلاق (الحضارة)، بينما يمثل مجتمع ما بعد التحضر نقطة نهاية وتدهور (الحضارة) وقاعدة انطلاقها في الوقت نفسه.

⁽¹⁾ ينظر شايف عكاشة: الصراع الحضاري في العالم الإسلامي، ص 114.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 115.

نستنتج من هذا، أن أي مجتمع خرج عن مرحلة ما قبل التحضر لا يمكنه أن يعود مرة أخرى إلى هذه المرحلة، وإنما يرجع إلى مرحلة التخلف أو ما بعد التحضر ويظل فيها حتى يتسنى له أن ينطلق مرة أخرى إلى التحضر.

كنا قد سبق وأشرنا إلى ضرورة الجمع بين الجانبين الأول (المجتمع) والثاني (الإنسان) في عرضنا لمراحل (الحضارة)، و"مالك بن نبي" عند دراسته للحضارة من جانب (الإنسان) يتعرض له من حيث معادلته الثانية (الاجتماعية) التي تعترضها طوارئ التاريخ وتختلف بحسب الأطوار المتعاقبة، وعليه فالإنسان في صلته ب (الحضارة) يكون في وضع من الأوضاع الثلاثة التالية:

الوضع الأول: الإنسان قبل الحضارة.

الوضع الثاني: الإنسان في أثناء الحضارة (الإنسان المتحضر).

الوضع الثالث: الإنسان بعد الحضارة.

ووضع الإنسان يختلف في كل حالة من الحالات الثلاثة السابقة، ويرى "مالك بن نبي" أن ما يقتضي التوضيح بالدرجة الأولى، هو حال الإنسان بين وضعيه الأول والثالث، أي التمييز بين الإنسان الذي لم يدخل إلى (الحضارة) بعد وبين الذي خرج منها محتويا على بعض الرواسب.

أ/ الإنسان قبل الحضارة (إنسان ما قبل الموحدين): وهو إنسان في حالة سابقة للحضارة، مستعد من الناحية النفسية للدخول في (دورة حضارية) جديدة بناء على مؤهلات طبيعية تنطوي عليها شخصيته، كما كان الوضع بالنسبة للأشخاص في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، حيث كانوا على أهبة الاستعداد للدخول في تجربة حضارية جديدة، ولكن بعد أن تتم عملية التكيف والإشراف التي تستهدف تأهيلهم للمساهمة في إنجاز هذه الدورة، ذلك لأن الاستعداد لا يعدو عن كونه شرطا أوليا يقتضي جهدا من التكيف والإشراك الذي يؤهله ليصبح قادرا على الاضطلاع بمقتضيات الدور الذي سوف يناط به لإنجاز (الدورة الحضارية) بنجاح.

وإنسان ما قبل (الحضارة)، أي قبل دخوله في (دورة حضارية)، يكون في حالة سابقة للحضارة، خاليا من رواسب ما بعد التحضر⁽¹⁾.

ب/ إنسان ما بعد الحضارة (إنسان ما بعد الموحدين):

يرى "مالك بن نبي" أنه مع سقوط دولة الموحدين، عاش إنسان هذه المرحلة في فترة من التمزق وتنمية الصراعات، وهو إنسان مسلوب أو منحل حضاريا، خرج من (الدورة الحضارية) ولم يعد قادرا على إتيان أي فعل حضاري، كما لم يعد قابلا لإنجاز عمل متحضر إلا إذا تغير هو نفسه عن جذوره الأساسية.⁽²⁾

ثم ينحو "مالك بن نبي" بإلقاء اللوم على الإنسان المسلم الذي تخلى عن همته الحضارية، فاستخف به حكامه وأمرؤه حيث يقول: « وليس من الصواب أن نبحث عن النظم، بل عن العوامل الإنسانية المتمثلة في عجز الناس عن تطبيق مواهبهم الخاصة على التراب والوقت، إن التركيب الأساسي نفسه قد تحلل، فتحللت معه الحياة الاجتماعية وأخلت مكانها للحياة البدائية».⁽³⁾

ويستطرد "مالك بن نبي" في تشخيص واقع مجتمع ما بعد الموحدين من زاوية اجتماعية، فيرى أن: « جميع الأعراض التي ظهرت في السياسة أو في صورة العمران، لم تكن إلا تعبيرا عن حالة مرضية يعانيتها الإنسان الجديد _إنسان ما بعد الموحدين_ الذي خلف إنسان الحضارة الإسلامية، والذي كان يحمل في كيانه جميع الجراثيم التي تنتج عنها في فترات متفرقة جميع المشاكل التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين؛ فالنقائص التي تعانيتها النهضة الآن، يعود وزرها إلى ذلك الرجل الذي لم يكن طليعة في التاريخ».⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ينظر مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 78.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 78.

⁽³⁾ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 31.

⁽⁴⁾ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 32.

وحتى يوضح "مالك بن نبي" رأيه حول إنسان ما قبل (الحضارة) وإنسان (ما بعد الحضارة) يستدل بمثال من (علم الطاقة المائية)، بمقارنة وضع الإنسان في المرحلتين بـ: « جزيء من الماء في وضعين مختلفين يكون أولهما قبل وصوله إلى خزان ينتج الكهرباء وثانيهما بعد خروجه منه، فهذا الجزيء عندما يكون قبل الخزان يعطينا صورة للإنسان السابق على الحضارة، أي الذي لم يدخل بعد في دورة حضارية معينة، فهو جزيء منطو على طاقة مذخورة معينة قابلة لتأدية عمل نافع إذا ما استعملتها أجهزة الخزان في الري أو في إنتاج الكهرباء.

غير أن هذا الجزيء يصبح قاصرا عن تأدية العمل نفسه منذ أن يصبح بعد الخزان، لأنه يكون قد فقد طاقته المذخورة، وهو يعطينا صورة للإنسان المنحل حضاريا أو الإنسان الذي خرج من دورة الحضارة، ذلك أن هذا الجزيء الخارج من خزانه لم يعد في إمكانه أن يستعيد حالته إلا بوساطة عملية جوهرية تتمثل في عملية التبخر التي ترجعه إلى أصله، حيث يتم تحويله من جديد إلى جزيء مائي واقع قبل خزان معين»⁽¹⁾.

تلك صورة الإنسان قبل دخوله في دورة (حضارة) من الحضارات، وبعد خروجه منها.

2/ مرحلة المجتمع المتحضر / الإنسان المتحضر:

تسجّل (دورة الحضارة) ضمن هذه المرحلة كحلقة من حلقات التاريخ، فقد توصل "مالك

بن نبي" من خلال تتبعه لمسيرة تاريخ المجتمعات المتحضرة _ من حيث القيام والسقوط _ إلى تصوره لحركية التاريخ ومسار حركة (الحضارة)، وانتهى إلى القول بأن (الحضارة) لها مراحل شبيهة بمراحل الشخصية، وهي محددة في ثلاثة أطوار: طور الروح _ طور العقل _ طور الغريزة.

إنّه يعرض نظريته في تركيب (الحضارة) في صورة تخطيطية في كتابه (شروط النهضة) فيطبقها على (الحضارة الإسلامية)، ثم يعمد إلى المقارنة بينها وبين (الحضارة المسيحية).

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص (79/78).

د

هـ

مخطط بياني لمراحل الحضارة عند "مالك بن نبي".⁽¹⁾

يرى "مالك بن نبي" أنّ (الحضارات) كلّها تقع بين حدثين اثنين: الميلاد والأفول، فالنقطة الأولى تكون (الحضارة) فيها متجهة إلى الأعلى في حالة صعود، أما النقطة الثانية فـ (الحضارة) فيها متجهة إلى أسفل في حالة أفول؛ فطور الأفول النازل هو عكس طور (الحضارة) الصاعد، وبين الطورين الأولين يوجد بالضرورة توازن معين أو طور وسيط، وهو طور (الأوج) أي طور انتشار (الحضارة) وتوسعها.⁽²⁾

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 74.

⁽²⁾ ينظر مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 73.

إذا ما عدنا إلى التخطيط السابق نلمس أنّ (الحضارة) _ كما سبق وأشرنا _ تمر بثلاث مراحل هي:

مرحلة الروح (ب _ د): تبدأ بظهور دين معين وتسير باتجاه صاعد، بحيث تسجل أعلى الدرجات لنمو القيم النفسية والاجتماعية، ثم تعقبها المرحلة الثانية (د _ هـ): وهي مرحلة (الانتشار والتوسع) للحضارة، وفي هذه المرحلة تبدأ القيم النفسية والاجتماعية في التراجع عن نموها السابق، حتى تدخل (الحضارة) في المرحلة الأخيرة (هـ _ ج): وهي مرحلة (الغريزة) أو مرحلة (أفول الحضارة).

أ/ **مرحلة الروح:** تشهد هذه المرحلة ظهور قيم روحية جديدة في المجتمع، وإليها يعزى الفضل في نقل هذا المجتمع من حالته الطبيعية البدائية إلى حالته الفعالة المتحركة التي تدفع به إلى التحول في حلبة التاريخ؛ إذ بتوغلها وتمكنها من النفوس المستعدة لتمثلها توظف طاقتها الحيوية وتدفعها إلى التضحية والعطاء.

ومرحلة (الروح): هي تلك الفترة التاريخية من (الحضارة الإسلامية) التي استمرت من نزول أول آية من القرآن الكريم إلى معركة صفين (38 هـ) التي أصابت الأمة بالانقسام الذي سببه صراع حمية الجاهلية مع الروح القرآنية؛ أي أنها المرحلة التي مارس فيها القرآن الكريم نشاطه في النفوس فجعلها تلبي النداء كل لحظة، وهي المرحلة التي امتدت ما بين نزول القرآن المكّي وبين نزول القرآن المدني إلى أن يأتي رابع خليفة للمسلمين "علي بن أبي طالب رضي الله عنه" ⁽¹⁾.

وفي مرحلة (الروح): يكون المجتمع على حالته البدائية ويكون الفرد عند نقطة الصفر، أي في حالة الفطرة، وهي مرحلة تتفق مع ظهور الدين في المجتمع، فحين تجيء الفكرة الدينية تعمل على

⁽¹⁾ ينظر الأخصر شريط: مشكلة التاريخ في الحركة التاريخية وتفسير التطور الحضاري عند "مالك بن نبي". دار الخليل العلمية، دط، دم، 2013، ص (265/264).

تنظيم فطرة الفرد وتتولى إخضاع غرائزه وضبطها وتنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية، بحيث يمارس حياته في هذه الحالة حسب قانون (الروح)، وهذا ما أسماه "مالك بن نبي" بـ (العملية الشرطية).

حيث يقول: « (...) عندما نعدّ الفرد عند نقطة الصفر في الصورة التخطيطية التي قدمناها، فإننا نجد في الحالة التي يعرفها بعض المؤرخين المسلمين بـ (الفطرة) مع جميع غرائزه كما وهبته أياها الطبيعة، فالفرد في هذه الحالة ليس أساسه إلا (الإنسان الطبيعي) أو (الفطري) (L'homonature)، غير أن الفكرة الدينية سوف تتولى إخضاع غرائزه إلى عملية شرطية (Conditionnement) تمثل ما يصطلح عليه علم النفس الفرويدي بـ (الكبت) (Refoulement)»⁽¹⁾.

وفي هذه المرحلة _ منذ البعثة وحتى معركة صفين _ أصبحت حياة الناس بكل حيثياتها محكومة بقوانين روحية.

و"مالك بن نبي" هنا يستحضر أكثر من واقعة تاريخية ليدعم بها رأيه، كقضية "بلال بن رباح" الذي جهر بكلمة الحق و أعلى صوت الله مزيلا جميع الفواصل و الحدود بين الأجناس و الأعراق، و قضية "المرأة الغامدية" التي اعترفت بارتكابها لخطيئة الزنا و تقدمت من الرسول(ص) جارة قدميها نحو مصيرها المحتوم.⁽²⁾

والباعث وراء الواقعتين هو الطاقة الروحية التي أطلقها الدين الجديد، وهي طاقة فاعلة في الأفراد كما في المجتمعات؛ ذلك أن دور الدين الاجتماعي كما يرى "مالك بن نبي": « منحصرا في أنه يقوم بتركيب يهدف إلى تشكيل قيم تتر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني ينطبق على

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 75.

⁽²⁾ ينظر مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 76. (بتصرف)

مرحلة معينة لحضارة، وهذا التشكيل يجعل من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية، ويجعل من الوقت -الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة ب (ساعات تمر)- وقتا اجتماعيا مقدرا (ب)ساعات العمل)، ومن التراب -الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط- مجالا مجهزة مكيفا تكييفيا فنيا، يسدّ حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة تبعا لظروف عملية الإنتاج، فالدين إذن مركب القيم الاجتماعية، وهو يقوم بهذا الدور في حالته الناشئة، حالة انتشاره وحركته، عندما يعبر عن فكرة جماعية». (1)

إذن: تمكّن الفكرة الدينية من النفوس يعدّ المحرك لبداية نشأة (الحضارة)، وهذا ما جعل القبائل الإسلامية التي كانت تعيش في شتات وتنازع تتمكن من بناء (الحضارة) وحمل مشعل الإسلام ونشر تعاليمه السمحة إلى مختلف البقاع، نتيجةً لتمكّن الفكرة الدينية من نفوسهم، ولسيطرة الروح على غرائزهم، يقول "مالك بن نبي": « إنه لمن الغريب أن يتحول هؤلاء البسطاء ذوو الحياة الراكدة عندما مستهم شرارة الروح إلى دعاة إسلاميين تتمثل فيهم خلاصة الحضارة الجديدة، وأن يدفعوا بروحها وثبة واحدة إلى تلك القيمة الخلقية الرفيعة التي انتشرت منها حياة فكرية واسعة متعددة». (2)

ويؤكد قائلا: « أنّ هذه الوثبة لم تكن من صنع السياسيين ولا العلماء الفطاحل، بل كانت من أناس يتسمون بالبساطة ورجال لا يزالون في بداوتهم، غير أن أنظارهم توجهت في تلك اللحظات إلى ما وراء الأفق الأرض أو ما وراء الأفق القريب، فتجلت لهم آيات في أنفسهم تراءت لهم أنوارها في الآفاق» (3). وهو هنا يبدو لنا متأثرا بنظرية العمران الخلدوني فيما يخص مرحلة البداوة.

(1) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 28.

(2) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 57.

(3) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 57.

وإذا ما تحرر الفرد من قانون الطبيعة المفطور في جسده، وإذا ما تمكن من ترويض غرائزه، فإنه سيتمكن من اقتحام عالمي الأفكار والأشياء، كما سيتمكن من بناء شبكة العلاقات الاجتماعية، ولهذا نقول بأن التغيير في هذه المرحلة يمس الإنسان بالدرجة الأولى؛ ذلك أنه العنصر الجوهري المؤثر والمتأثر، المعير والمتغير، فهو يتغير بالدين ويغير بدوره محيطه الاجتماعي، ويتحول من فرد خاضع لغرائزه إلى شخص مرتبط بالمجتمع، يشكّل مع التراب والوقت عوامل التغيير الاجتماعي، ويساهم في بناء صرح (الحضارة المنشودة).

لقد أدرك هذا الإنسان -أو لنقل الشخص المسلم- في مرحلة (الروح) أن الله تعالى خلقه لغاية هي العبادة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات، الآية 56) وكذلك خلقه ليقوم بوظيفة الخلافة وإعمار الأرض، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، الآية 30)، فالخلافة والعبادة وإعمار الأرض تمثل في منظور "مالك بن نبي" مبررات وجوده، وهي التي دفعته إلى بناء (حضارة) رائدة بسرعة مدهشة.

ويرى "مالك بن نبي" أن المجتمع الإسلامي مرّ بهذه المرحلة حين بدأت عملية التغيير الاجتماعي والنفسي للمجتمع بنزول الوحي على أفضل الخلق في غار (حراء)، أولنقل في مكة التي كانت -ولا تزال- أرضاً خصبة عذراء مكنت الرسول (صلى الله عليه وسلم) من نشر الرسالة ومن تبليغها إلى المعاصرين له ممن كانوا على قيد الحياة، ثم إن تبليغ الرسالة لم يكن ليحصل، لولا أن القرآن قد شدّ النفوس إليه فتمكنت من حفظه وتمثله، يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر، الآية 9)، وفي هذا يقول "مالك بن نبي": «ولا شك في أن المرحلة الأولى من مراحل (الحضارة الإسلامية) التي ابتدأت من غار حراء إلى صفين -وهي المرحلة الرئيسية التي تركبت فيها عناصرها الجوهرية- إنما كانت دينية بحتة تسودها الروح، ففي هذه الحقبة ظلت روح

المؤمن هي العامل النفسي الرئيسي من ليلة حراء إلى أن وصلت القمة الروحية للحضارة الإسلامية، وهو ما يوافق صفين عام 38 هـ.⁽¹⁾

أما بالنسبة لمجتمع (الحضارة المسيحية)، فيرى "مالك بن نبي" أنها (الحضارة) ارتبطت بظهور الديانة المسيحية التي سبقت الديانة الإسلامية من الوجهة التاريخية، لكن من الوجهة النفسية ف (الحضارة الإسلامية) تعدّ أسبق في الوجود والانطلاق من (الحضارة الغربية المسيحية)؛ ذلك أن المسيحية -التي وُلدت قبل الإسلام- تطورت بوتيرة بطيئة، لأن ظهورها الأول كان ضعيفا مقارنة مع ظهور الإسلام الذي حمل المسلمين في بضع سنين إلى حدود (الصين) في الشرق وإلى (إسبانيا) في الغرب، على الرغم من أنه كان آخر الأديان ظهورا، وهذا ما أضرب بها وأفقدتها المهده الذي ولدت فيه بنفيتها إلى الغرب.⁽²⁾

ولمّا كان للفكرة الدينية دور كبير في قيام (الحضارة الإسلامية)، فل (الحضارة المسيحية) أيضا نصيب وافر وحظ كبير في هذا الدين، ولما كانت (الحضارة الإسلامية) قد عرفت ميلادها بظهور الإسلام ونزول الوحي، ف (الحضارة المسيحية) بنيت على أساس ما قام به المسيح "عيسى عليه السلام" في (بيت لحم) في (فلسطين)، والذي كان نزوله في الحقيقة مرتبطا بأسباب واقعية ونموذجية، وبفترة ساد فيها الجهل والوثنية في تلك المنطقة التي كانت مجال صراع الإمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية كما تؤكد صفحات التاريخ.⁽³⁾

هذا، ويعلل "مالك بن نبي" سبب تأخر ظهور (الحضارة المسيحية) وعدم تمكن الفكرة الدينية من التوغل في نفوس أفرادها إلى كون المسيحية قد نشأت في وسط فيه خليط من الديانات والثقافات

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 58.

⁽²⁾ عمر بن عيسى: مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي وفي مستقبل المجتمع الإسلامي. دار الفكر، ط2، سورية، 2007، ص 47.

⁽³⁾ ينظر الأخضر شريط: مشكلة التاريخ في الحكمة التاريخية، ص 88.

العبرية والرومانية واليونانية، فلم يتح لها أن تدخل إلى قلوب الناس وسط الزخام الفكري الثقافي لتؤثر فيه تأثيراً فعالاً، ولم يكتب لها أن تعمل عملها إلا عندما بلغت وسط البداوة الجرمانية في شمال (أوروبا)، حيث وجدت النفوس الشاغرة فتمكّنت منها وبعثت فيها الروح الفعّالة التي اندفعت بها لتكوّن حلقتها في سلسلة التاريخ.⁽¹⁾

وهذا معناه أنّ (الحضارة الغربية الجرمانية) كانت نتيجة لتخمر الفكرة المسيحية وتوغّلها في نفوس القبائل الجرمانية، حيث وجدت هذه المسيحية أو هذه (الحضارة) الأرضية الملائمة والظروف المناسبة لقيامها وانتشارها، وذلك لانعدام الصراعات الفكرية في نفسية الشعوب الجرمانية، على العكس من نفسية الشعوب الشرقية التي عرفت صراعات تتنافى والفكرة المسيحية، وكذا لكون الشعوب الجرمانية لم تشهد آنذاك حضارات سابقة، أي أنها كانت مفرغة حضارياً والإنسان فيها لا يزال في مرحلة الفطرة، الأمر الذي جعل منه أرضاً خصبة للبناء الحضاري، وبهذا أعلنت (الحضارة الغربية) والمسيحية قطيعتهما مع (بيت لحم) في (فلسطين)، وهاجرتا إلى حيث يمكنهما النهوض والتطور.

وهنا يستدل "مالك بن نبي" على تأثير (الروح) التي ظهرت عند الجرمانيين وانتشرت ب(أوروبا)، بشهادات وأقوال ودراسات بعض المفكرين والمؤرخين الذين ينتمون إلى الفكر الغربي، ومن بين هؤلاء: "هرمان دي كسرلنج" الذي يرى بأن (الحضارة الغربية) الأوروبية مكونة من روح المسيحية والتقاليد الجرمانية، ويتجلى هذا من خلال قوله: «(...) ومع الجرمانيين ظهرت روح خلقية سامية في العالم المسيحي»⁽²⁾، ومن قبله المؤرخ الفرنسي "جيزو" الذي كان ينظر إلى هذه الأمور من الزاوية نفسها قبل "كسرلنج" بحوالي قرن كامل⁽³⁾، وكذلك المؤرخ "هنري بيرن" الذي أكد على

⁽¹⁾ ينظر مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 61.

⁽²⁾ ينظر مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 61.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص 71.

فكرة الارتباط الوثيق بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية، حيث يذهب من خلال كتابه المعنون بـ: "محمد وشرلمان" إلى أن شخصية "شرلمان" بعثت مبدأ المسيحية في النفوس البكر، فأثبتت بذلك (حضارة)، تماما كما فعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) من قبل.⁽¹⁾

بعد تلك الهجرة التي استطاعت بها المسيحية أن تولد مرتين، بدأت ملامح (الحضارة الغربية) في الظهور والتطور - أو الصعود وفق مقياس القيم النفسية والاجتماعية-، وهنا نلاحظ ظهور عامل آخر ساهم في ترسيخ المسيحية في المجتمع الغربي، وهو ظهور القديسين في (أوروبا) و(إيطاليا) خاصة، وعلى رأسهم "توما الإكويني"^(*) "Saint Thomas d'Acquin" من خلال الأفكار التي كان ينادي بها.⁽²⁾

ب/ مرحلة العقل: في هذه المرحلة تعطف (الحضارة) -بسبب المشاكل الناتجة عن توسع المجتمع الوليد- منعطفًا تكف فيه (الروح) عن السيطرة المطلقة على الغرائز، ليبدأ عهد جديد أو مسلك آخر وهو (العقل)، هذه المرحلة تعمل على استعمال الطاقات العقلية مع استبعاد الجانب الروحي أي المبدأ الأخلاقي، وبالتالي تتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية، كما تشهد المرحلة نقصا مستمرا في الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية، حيث يقول "مالك بن نبي": « نلاحظ نقصا في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية، وأنّ هذه الفكرة تظل مواصلة لنقائصها منذ أن دخلت الحضارة منعطف العقل».⁽³⁾

وعندما تتحرر (الحضارة) من (الروح) وتعلن سلطة (العقل) تبدأ الغرائز التي كانت مشروطة بالروح الدينية في التحرر من قيودها، لأن (العقل) لا يمكنه السيطرة على هذه الغرائز ولا القدرة على تهذيبها، وبهذا يكفّ المجتمع عن ممارسة ضغوطه على الفرد، وطبيعي ألا تنطلق الغرائز دفعة واحدة،

⁽¹⁾ المصدر نفسه، ص 62.

^(*) لاهوتي إيطالي، وصاحب علم اللاهوت في المسيحية، ولد سنة 1225م، وتوفي سنة 1274م.

⁽²⁾ الأخصر شريط: مشكلة التاريخ في الحركة التاريخية، ص 292.

⁽³⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 77.

بل تتحرر بقدر ما يضعف سلطان الروح، حيث يقول في هذا المجال: « وبهذا تواصل الغريزة المكبوحة الجماح بيد الفكرة الدينية سعيها إلى الانطلاق والتحرر وتستعيد الطبيعة غلبتها على الفرد وعلى المجتمع شيئاً فشيئاً». (1)

وبهذا نلاحظ وجود علاقة طردية بين تحرر الغرائز من قيودها وبين سلطة (الروح)، فكلما ضعفت سلطة (الروح) انطلقت الغرائز بالقوة نفسها، وبالتالي تأثر البناء النفسي للفرد والبناء الأخلاقي للمجتمع.

ويرى "مالك بن نبي" أننا لو استطعنا في هذه المرحلة أن نراقب الظروف النفسية بوسيلة دقيقة، بغية تتبع نتائج هذه العلاقة الطردية بين ضعف سلطة (الروح) وبين تحرر الغرائز، فإننا سوف نلاحظ انخفاضاً في مستوى أخلاق المجتمع ونقصاً في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية التي لا تزال مستمرة في مواصلة نقصان فاعليتها منذ أن دخلت (الحضارة) منعطف (العقل). (2)

أما بخصوص (عالم الأشخاص)، (عالم الأفكار)، (عالم الأشياء)، فأهم ما يميزها في هذه المرحلة هو وصولها إلى مستوى معين يكون فيه (عالم الأشخاص) في المستوى نفسه مع (عالم الأفكار): (عالم الأشخاص) \rightarrow (عالم الأفكار)، أي أنّ المنتج الفكري أو المادي يعكس مستوى الأفراد، وبما أن الأفراد قد اكتملت روابطهم الاجتماعية وتحققت ضماناتهم، فإن إنتاجهم يعكس هذه المرحلة التي وصلوا إليها، أي أن مرحلة (العقل) تمثل (النهضة) أو (الأوج)، ويعني "مالك بن نبي" بهذا الازدهار: العلوم والفنون السائدة في تلك المرحلة. (3)

وإذا ما بلغت (الحضارة) أوجها ونضجها، وإذا ما انتقلت من سيطرة الأشخاص إلى سيطرة الوسائل، يبدأ المجتمع بالاستعانة بمناهج وتقنيات جديدة تساعد على انتشاره وتوسعه، إذ تشهد

(1) المصدر نفسه، ص 77.

(2) المصدر نفسه، ص 52.

(3) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 30.

ازدهار الإبداعات والاكتشافات والإنجازات، حيث يقول "مالك بن نبي": « فأوج أي حضارة —وأعني به ازدهار العلوم والفنون فيها— يلتقي من وجهة نظر (علم العلل) البحث مع مرض اجتماعي معين، لأن آثاره المحسوسة لا تزال بعيدة». (1)

إذا ما عدنا إلى المخطط البياني السابق، نجد أن مرحلة (العقل) في المجتمع الإسلامي تبدأ من الفترة ما بعد معركة (صفين 38 هـ) —التي دخلت فيها نزعة السلطة والتنافس المادي— وتمتد إلى عهد "ابن خلدون" واستلام دولة الموحدين الحكم، هذه المرحلة حوّلت مجرى التاريخ الإسلامي؛ إذ أخرجت (الحضارة الإسلامية) إلى طور القيصرية الذي يسوده (العقل)، في الوقت الذي بدأت تظهر فيه بوادر الفتور الدالة على أفول الروح (2)، حيث يقول: « بينما الفكرة الدافعة للإسلام نقلت شعلات الجمر المضيفة منذ أربعة عشر قرنا من الجزيرة العربية إلى الأقطار البعيدة، موحدة جميع الشعوب الإسلامية في ذلك العمل المنسق الرائع، ألا وهو الحضارة الإسلامية التي استمرت حتى سقوط بغداد وسقوط غرناطة». (3)

هذا، ووقف "مالك بن نبي" عند دولة الموحدين التي قامت سنة (524هـ)، و التي أعادت ل (المغرب) اعتباره وأعطته دفعة قرآنية جديدة منذ تأسيس الدولة فكريا على يد "محمد المهدي بن تومرت" وزعيمها العسكري "عبد المؤمن بن علي"، ويعدّ أسلوب الدم أبرز الأساليب المعتمد عليها في إرساء دعائمها، وكانت دولة المرابطين قد قامت على أنقاضها، حيث استعمل الموحدون القوة في تصنيفيتها لأنها لم تكن أكثر من دولة مسلمة، وفي عام (609هـ) تلقى الموحدون شر هزيمة في موقعة (حصن العقاب) في (الأندلس)، ومنذ ذلك الوقت وصرّح الموحدين يتداعى تحت ضربات الدم على امتداد ستين سنة تقريبا (609هـ_668هـ)، والموحدون يقضون

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 77.

(2) المصدر نفسه، ص 58.

(3) مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 47.

على أنفسهم بأيديهم في معارك أهلية، وبسقوط دولة الموحدين اعتبر "مالك بن نبي" ظهور مرحلة جديدة من التمزق وتنمية الصراعات، على الرغم من كونها مرحلة (التفكير والازدهار الحضاري).⁽¹⁾

أما بخصوص هذه المرحلة في المجتمع المسيحي، فهي تتمثل في عصر (النهضة) وتمتد إلى غاية (الفتوحات الإسلامية)، وتتميز بازدهار الفلسفة في (أوروبا) على يد (ديكارت)، وقيام الثورة الصناعية، وازدهار العلوم الإنسانية التي تعتمد في تناول الواقع، ودراسة الاجتماع على مثل وقيم عليا استمدتها أساسا من (العقل) وإفرازاته.

كما يرى أنّ (حضارة) (أوروبا) قد خرجت من مرحلة السمو الروحي إلى مرحلة التوسع العقلي مع بداية عهد (النهضة)، وقد نتج عن هذا الخروج وعن ذاك التوسع، أن شهدت (أوروبا) ثورة فكرية ستتحلى آثارها في جُلّ الميادين، وعبر أنحاء القارة كلّها، وحدث تغير تدريجي في العادات والأخلاق وطرائق العيش والاعتقاد والتفكير، وأخذ دور رجال الدين يتضاءل تدريجيا.

فانبثقت بذلك روح دنيوية قوية تسعى إلى الفصل بين الدين وبين الدنيا، وهنا نستشهد بقول "كسرلنج": «إن مركز الثقل للحضارة تزحزح من مكانه، وتحول بالنهضة والإصلاح الديني من مجال الروح إلى مجال العقل».⁽²⁾

فما يميز هذه المرحلة هو تخلي النفس عن محركها الروحي بصفة تدريجية، في الوقت الذي تبدأ فيه الغرائز إلى الانجذاب نحو عالم الأشياء (الماديات) و التحرر من هيمنة (الروح).

حيث يقول: «بهذا تواصل الغريزة المكبوحه الجماح بيد الفكرة الدينية سعيها إلى الانطلاق والتحرر، وتستعيد الطبيعة غلبتها على الفرد، والمجتمع شيئا فشيئا».⁽¹⁾

⁽¹⁾ ينظر سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. ط1، بيروت، 1993م، ص 104.

⁽²⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 63.

والأمر نفسه نلمسه مع (الحضارة الإسلامية) التي عمدت إلى إسقاط الجانب الروحي وإغفال الدور الديني، وهذا يوافق المرحلة الأموية والعباسية، وهنا تشرع الغرائز في التحرر من سلطة (الروح) على الصورة التي لمسناها في عهد "بني أمية"؛ حيث أن القيمة الروحية قد تراجعت في موقعة (صفين) بين أهل العراق بقيادة "علي بن أبي طالب" الذي بويع خليفة للمسلمين وبين أهل الشام بقيادة "معاوية بن أبي سليمان" الذي كان واليا على الشام، وقد كان الخلاف حول القصاص من قتلة "عثمان بن عفان" رضي الله عنه، حيث أن "علي بن أبي طالب" كرم الله وجهه كان يرى ضرورة التريث أولا ثم القصاص ثانيا، لكن "معاوية" رفض مبايعة "علي بن أبي طالب" وطالب بالإسراع بالتأثر من القتلى، وعند ذلك يطرح أمر الخلافة شورى بين المسلمين.⁽²⁾

وبهذا اعتبرت (واقعة صفين) النقطة الحاسمة التي نقلت العالم الإسلامي من مرحلة (الروح) إلى مرحلة (العقل) وأحدثت فجوة كبيرة في الدين الإسلامي، حيث يقول: « هذه الواقعة غيرت مجرى التاريخ الإسلامي، وأخرجته من جو المدينة الذي كان مشحونا بهدي الروح وبواعث التقدم إلى جو دمشق حيث تجمعت مظاهر الترف وفتور الإيمان».⁽³⁾

كما عرفت (الحضارة الإسلامية) في هذه الفترة انعطافا تاريخيا حاسما غير مجرى التاريخ و ألقى بضلاله على العالم الإسلامي، حيث انفصل السياسي عن الديني والعقلي عن الروحي، وتحول نظام الحكم من الخلافة إلى الملك الوراثي على يد "معاوية بن أبي سفيان"، فحلت بذلك السلطة العصبية وعادات العصبية الجاهلية والقبلية والجغرافية للظهور من جديد، كما انتشرت الفتن والمتناقضات السياسية من جديد في قلب العالم الإسلامي، كما انخفضت مستويات أخلاق الفرد نتيجة إسقاط المبدأ الأخلاقي وكذا الروحي الذي فقد سيطرته على الفرد الذي لم تعد الفكرة الدينية

⁽¹⁾ المصدر نفسه، ص 77.

⁽²⁾ ينظر الطاهر سعود: التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، دار الهدى، دط، بيروت، ص 192.

⁽³⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص (53/52).

قادرة على التأثير فيه، و في هذا الصدد يقول "مالك بن نبي": « فالعلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان (...)، فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنهما حدث، ومن الوجهة الكونية على أنهما عنوان كل حركة تطور اجتماعي واحد». (1)

لكن، وعلى الرغم من فقدان العالم الإسلامي لتوازنه بعد (واقعة صفين)، فإنه بقي محتفظا بنفحات الدين الإسلامي و متمسكا بالقوة القرآنية الحية النابضة، ومرّد ذلك كما يرى "مالك بن نبي": « رجال من أمثال "عقبة بن نافع" و"عمر بن عبد العزيز" والإمام "مالك بن أنس" رضي الله عنهم أجمعين، لا لأن أولهم كان فاتحا كبيرا، والثاني خليفة عظيمًا، والثالث إمام مدرسة كبرى في التشريع، بل لأن فضائل الإسلام الفطرية العظيمة قد تجسدت فيهم بصورة أو بأخرى، فهذا "عقبة"، وقد وقف في عاصمة الفاطميين المقبلة التي زحف جيش المسلمين لفتح إفريقيا الشمالية، يودّع أبناءه الوداع الأخير ثم يصرخ وهو يمتطي سهوة جواده داعيا: "اللهم تقبل عملي واجعلني في عبادك الصالحين"، و"عمر بن عبد العزيز" هو الذي ارتأى أنّ من الظلم أن يتولى أمرا يخص نسل "علي" كرم الله وجهه فأثر أن يتنازل عنه، والإمام "مالك" هو الذي تعرض للجلد في الأماكن العامة لأنه دافع سلطانا باغيا، تلکم هي الفضائل: احتقار مجد حان مواعده، ورفض سلطة لا تقوم على حق، وتحدّ يجابه به ظالم باغ». (2)

أما بخصوص الإبداعات التي ظهرت في هذه المرحلة، فقد تمثلت في الحضارة الإسلامية بظهور عدّة من الأساتذة والعلماء العرب الذي سطعت أسماءهم في جو المعرفة والعلم ك: "الفارابي"، "ابن سينا"، "أبي الوفاء"، "ابن رشد"، و"ابن خلدون" الذي أضاءت عبقريته من خلال (مقدمته) الشهيرة، وكذا ظهور بعض الاكتشافات في ظل الأمويين، والتي تمثلت كما يرى "مالك بن

(1) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 56.

(2) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 26.

نبي" في: « اكتشاف النظام المثوي، وتطبيق المنهج التجريبي في الطب، واستخدام فكرة الزمن الرياضية». (1)

دون أن نغفل الدور الكبير الذي لعبته ترجمة العديد من أمهات الكتب اليونانية والفارسية والإغريقية... إلخ، والتي ساعدت على تأسيس مناهج بحث وبناء معارف في مختلف حقول المعرفة خلال العصر العباسي الذي اعتبر منارة للعلم ومهدا للعلماء، ولعل ما يزيد من أهمية العصر وأهمية الترجمة الخليفة "المأمون" الذي كان يعطي كل من يترجم كتابا وزنه ذهباً.

وإذا ما قلبنا الصفحة إلى (الحضارة المسيحية)، فسنجدها هي الأخرى متمثلة في ظهور تجارب لعلماء من أمثال "غالفاني" و"ماركوني" و"مارين بهرتز" و"بوبوف" و"برانلي" وغيرهم. (2)

ج/ مرحلة الغريزة:

يمثل هذا الطور نقطة تحول أخرى في مسار التاريخ، إذ يأخذ هذا المسار اتجاهها معاكسا لاتجاه طور (الروح) الصاعد، وهذا يؤذن بأفول شمس (الحضارة) وزوالها، فإذا كانت بوادر أفول الحضارة قد بدأت بالظهور في مرحلة العقل نتيجة الإشباع الروحي وانفصاله عن العقل، فإن هذا الأفول يتحقق مع مرحلة الغريزة، وهنا يقول "مالك بن نبي": « لقد بلغت عوامل التعارض الداخلية قيمتها وانتهت إلى موعدها المحتوم، وهو تمزق عالم واهن وظهر مجتمع جديد في معالم وخصائص واتجاهات جديدة، فكانت تلك مرحلة الانحطاط، إذ لم يعد الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارة، بل أضحت عناصر خامدة ليس لها فيما بينها صلة مبدعة». (3)

(1) المصدر نفسه، ص 26.

(2) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 64.

(3) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 27.

وعليه فأهم ما يميز هذه المرحلة هو الانهيار والانحطاط، أين تكشف (الغريزة) عن وجهها تماما، فبخفوت صوت (الروح) تنطلق الغرائز لأن الفكرة الدينية فقدت رصيدها داخل الفرد، ولأنّ المجتمع فقد سلطته على أفرادها، وبالتالي يغيب (العقل) ويفقد وظيفته الاجتماعية، ويدخل المجتمع المرحلة المظلمة من تاريخه، وتنتهي (دورة الحضارة)، يقول "ابن نبي": « هنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدنية التي تصبح عاجزة عن القيام بمهمتها تماما في مجتمع منحل يكون قد دخل نهائيا في ليل التاريخ، وبذلك تتم دورة في الحضارة»⁽¹⁾، فالنزعة العقلية إذن مهدت لهذا الانحطاط عندما أسهمت في إضعاف سلطان (الروح) على النفس الإنسانية، فتمكنت (الغريزة) من الانطلاق والتحرر، واستعادت غلبتها على الفرد وعلى المجتمع شيئا فشيئا إلى أن بلغ التحرر أوجّه وخمدت (الحضارة) لتعلن بذلك رحلتها وهجرتها إلى أفق شعب آخر تتوفر فيه شروط قيامها، ولتمرّ بالمراحل نفسها في نطاق دورة حضارية جديدة، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (محمد، الآية 38).

هذا هو منحى السقوط عند "مالك بن نبي" والذي توجهه عوامل أدنى من مستوى (الروح) و(العقل)، إذ أنه كلما كان الإنسان في حالة يتقبل فيها توجيهات (الروح) و(العقل) المؤدية إلى (الحضارة) ونموها، فإن هذه العوامل تُخزّن بطريقة ما فيما وراء الشعور، وفي هذه الحالة تنكمش تأثيرات (الروح) و(العقل) وتنطلق (الغرائز) من عقالها لتعود بالإنسان إلى مستوى الحياة البدائية، و بهذا يرى "مالك بن نبي" أنّ إغفال الإنسان للجانب الروحي الذي يعتبر أساس قيام (الحضارات)، وأن إسقاطه للمبدأ الأخلاقي الذي يعتبر الركيزة التي يبني عليها صرح (الحضارات) أيا كانت وحيثما وجدت، يؤدي إلى فقدان الفعالية الاجتماعية للأفراد، وبالتالي إلى فقدان (الحضارة) لمبررات وجودها، وبهذا يستحيل النشاط الاجتماعي إلى نشاط فردي يغلب عليه الاهتمام الذاتي، ولا يخدم

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 77.

إلا الحاجات الفردية بعد أن كان يخدم الحاجات الجماعية، وفي ظل عدم التوازن بين عوالم (الأشخاص) و (الأفكار) و (الأشياء) ينهار البناء الاجتماعي.

يطابق "مالك بن نبي" بين مرحلة (الغريزة) وبين (الحضارة الإسلامية) التي يؤرخ لها بسقوط دولة الموحدين^(*) في (المغرب) في (القرن 14م) ووفاة العلامة الكبير "ابن خلدون"، أو بمجتمع إنسان ما بعد الموحدين، فيقول عن سقوطها: «سقوط حضارة لفظت آخر أنفاسها»⁽¹⁾. ويضيف قائلاً: « يبدأ تاريخ الانحطاط بإنسان ما بعد الموحدين، ففي عهد "ابن خلدون" استحوطت القيروان قرية مغمورة بعد أن كانت في عهد الأغالبة قبلة الملك وقمة الأبهة والعاصمة الكبرى التي يقطنها مليون من السكان، ولم يكن حظ (بغداد) و(سمرقند) خيرا من ذلك»⁽²⁾.

كما يرى بأن سقوط (الحضارة الإسلامية) من سلّم التاريخ يعود بالدرجة الأولى إلى انتشار حياة البذخ والترف وعلو العمران، نتيجة التطور والإبداع التي عُرف في ظل مرحلة (العقل)، وكذا إلى التحرر من قيود (الروح) والتملّص من سلطتها، فيقول في ذلك: « فإذا نظرنا إلى هذا الوضع نظرة اجتماعية، وجدنا أن جميع الأعراض التي ظهرت في السياسة أو في صورة العمران لم تكن إلا تعبيرا عن حالة مرضية يعانيتها إنسان ما بعد الموحدين (...)، والذي كان يحمل في كيانه جميع الجراثيم التي سينتج عنها في فترات متفرقة جميع المشاكل التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين، ويعود وزرها إلى ذلك الرجل الذي لم يكن طليعة في التاريخ»⁽³⁾.

^(*) يبدأ عصر ما بعد الموحدين بسقوط الدولة الموحدية بعد هزيمة (الناصر لدين الله الموحدية) في موقعة حصن العقاب في الأندلس في 15 صفر 609هـ، وقد اعتبرت هذه الموقعة نذيرا بنهاية قوة المسلمين بالمغرب والأندلس على السواء.

⁽¹⁾ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 31.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص (32/31).

⁽³⁾ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 32.

كما يرى "مالك بن نبي" بأن (الحضارة الإسلامية) قد وصلت إلى ذروة خضوعها لوصاية (الغريزة وسلطتها) في عهد الطوائف مع المجتمع الإسلامي في (الأندلس)، حيث يقول في ذلك: « أما المرحلة الثالثة، فنتصور نهاية تحللها تحت سلطان (الغرائز) المتحررة من وصاية الروح والعقل، وفيها يصبح النشاط المشترك مستحيلا، ضاربا بأطنابه في أغوار الفوضى والاضطراب، وهو ما نجده في حالة المجتمع الإسلامي في الأندلس في العصر المشؤوم المسمى بـ (عصر ملوك الطوائف) ». (1)

وبطبيعة الحال، إذا ما تحرر الإنسان المسلم من سلطة (الروح) وخضع لغرائزه، فستصبح تصرفاته تسير خبط عشواء لا تقيم أي اعتبار لعرف الدين ولا المجتمع، وعلى هذا فـ "ابن نبي" يعزي الأسباب الرئيسية لسقوط دولة الموحدين إلى فقدان القيم الروحية والتخلص من المبادئ الأخلاقية، وهذا يتجلى من خلال قوله: « ولكن أوضاع القيم تنقلب في عصور الانحطاط (...)، فإذا حدث هذا الانقلاب انهار البناء الاجتماعي، إذ هو لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعقل والعلم فحسب، لأن الروح والروح وحده هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة وانحطت، لأن من يفقد القدرة على السقوط لا يملك إلا أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض». (2)

هذا، ويرى بأن فقدان الإنسان لقوة الإيمان وتخلصه من قانون (الروح) سيؤدي حتما إلى توقف إشعاع (العقل) وبالتالي إلى ضعف الإبداع، حيث يقول: « وفي البقعة المهجورة يفقد العلم كل معناه، فأينما توقف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل، إذ يفقد الإنسان تعطشه إلى وإرادته للعمل عندما يفقد الهمة وقوة الإيمان». (3)

(1) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص (41/40).

(2) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 26.

(3) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 27.

ويضيف: « حتى إذا وهنت الدفعة القرآنية، توقف العالم الإسلامي كما يتوقف المحرك عندما يستنفذ آخر قطرة من الوقود، وما كان لأي معوّض زمني أن يقوم خلال التاريخ مقام المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية ألا وهو الإيمان، ولذا لم تستطع النهضة التيمورية التي ازدهرت في القرن (الرابع عشر) حول مغاني (سرمنقد) أو (الإمبراطورية العثمانية) كلاهما، أن تمنح العالم الإسلامي حركة لم يعد هو في ذاته يملك مصدرها». (1)

هذا، ويرى "مالك بن نبي" أن أفكار "ابن خلدون" التي ميزت تلك الفترة، إما أنها جاءت مبكرة، وإما متأخرة عن أوانها، فلم تستطع بذلك أن تنطبع في العبقريّة الإسلامية التي فقدت مرونتها ومقدرتها على التقدم والتجدد.

كما يُعَدُّ (الاستعمار) و(القابلية للاستعمار) من أهم العوامل التي أدت إلى انحطاط (الحضارة الإسلامية) وسقوطها، ف"مالك بن نبي" يرى أن (الاستعمار) هو الذي أدى إلى إضعافنا كمسلمين، و غرس في نفوسنا روح (القابلية للاستعمار)، وبالتالي قاد العالم الإسلامي إلى التخلف والانحطاط.

و(الاستعمار) - حسب "مالك بن نبي" - عامل خارجي يدرسنا دراسة واعية لكي يبقىنا في الهزيمة، حيث أنه يقول: « درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة وأدرك منها مواطن الضعف، فسخرنا لما يريد» (2)، ويضيف: إنه «يراقب حركة الأفكار، فكل ما يمر في العالم الإسلامي من أفكار تحمه بصفة خاصة، بقدر ما يهمله البترول، بل أكثر من ذلك بكثير وهو يراقب حركتها باهتمام بالغ، وله فلسفته الخاصة التي تتمثل في التخلص من الأفكار التي تضايقه، وفي الانحراف بها عن مراميها بتوجيهها خارج المدار الذي أراد أصحابها استبقائها فيه». (3)

(1) المصدر نفسه، ص 27.

(2) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 159.

(3) مالك بن نبي: فكرة كمونليث إسلامي، ص (55/54).

كما تفرّد "مالك بن نبي" في بيان ما هو أخطر وأشد من (الاستعمار)، وهو (القابلية للاستعمار) التي تعتبر ظاهرة اجتماعية مرافقة للأفراد في مرحلة (الغريزة) أو (الأفول)، و هي تتولد من المناخ الثقافي والاجتماعي السائد في مجتمع الانحطاط أو مرحلة التدهور الحضاري، أين يتصف الأفراد بالسلبية والاستسلام والخضوع لذهان الاستحالة والسهولة.^(*)

كما يرى "مالك بن نبي" بأنها: « عامل نفسي داخلي في نفوسنا، حيث نتقبل كل ما يطلقه المستعمر علينا بدون وعي وإدراك منا، فما يطلقه من مصطلحات ضدنا نتقبلها ونردها على أساس أنها من المسلمات الصحيحة، وما يصفه لنا نعتبره صحيحا وجيدا، حيث نقيس أنفسنا بمقياسه، وذلك نتيجة الضعف في شخصيتنا الفكرية والنفسية، فنحن نخدمه باستغلاله لما في أنفسنا من استعداد لخدمته، فنفسنا معلولة من باطننا بها معوق داخلي يمسكها عن التقدم، ونحطّ من قيمة أنفسنا بأنفسنا، فنحن مسخّرون لهم، بحيث أصبحنا أبقا يُتحدث من خلالها وأقلاما يُكتب بها ومسخرون له بعلمه وجهلنا». ⁽¹⁾

لقد أضع العالم الإسلامي أكثر من قرن في معالجة مرض فتك بجسده ونخر عظمه وهو (الاستعمار)، بينما المرض الحقيقي لم يكن (الاستعمار) القادم إلينا من خارج استعدادنا لاستقباله، بل هو من مكونات هذا الاستعداد، لذلك على القارئ لمجمل كتابات "مالك بن نبي" أن لا يعتقد بجمية ظهور (القابلية للاستعمار) عند كل حالة استعمارية، حيث يقول: « إن القضية عندنا منوطة أولا بتخلصنا مما يستغله (الاستعمار) في أنفسنا من استعداد لخدمته من حيث نشعر أو لا نشعر، وما دام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا وتبديدها وتشتيتها على

^(*) ذهان الاستحالة والسهولة: هو مرض نفسي يتولد من خلال استصعاب الأمور والتقليل من قيمة الذات، وخرافته تزول متى قام الإنسان بأقل الجهود تواضعا، لأن كل جهد له ثمرته في الميدان الاجتماعي، ومتى تجمعت الثمرات بصفة إيجابية وجدنا من الواجب أداءً أعظم أثرا من المطالبة بالحق. ينظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 148.

⁽¹⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 153.

أيدينا، فلا رجاء في استقلال، ولا أمل في حرية مهما كانت الأوضاع السياسية، وقد قال أحد المصلحين: (أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم)». (1)

وهنا يستشهد بـ (ألمانيا) و(اليابان) اللتين وقعتا تحت وطأة الاحتلال أو (الاستعمار) ولم تظهر فيهما (القابلية له) (2)، كما يوضح ذلك بأمثلة مستمدة من التاريخ كقوله: « فروما لم تستعمر اليونان ولكنها غزتها، وإنجلترا التي استعمرت أربعمئة مليون من الهنود- إذ كانت لديهم القابلية- لم تستعمر إيرلندا الخاضعة دونما استقلال، وفي مقابل ذلك نجد اليمن- تلك التي لم تفقد استقلالها لحظة- لم تفد من ذلك الاستقلال أدنى فائدة لأنها قابلة للاستعمار». (3)

كما يرى أن السبيل للخلاص من (الاستعمار) وآثاره هو التخلص والتحرر من سببه وهو (القابلية للاستعمار)، حيث يورد: « إن هناك نتيجة منطقية وعلمية تفرض نفسها، هي أنه لكي نتحرر من أثر هو الاستعمار يجب أن نتحرر أولا من سببه وهو القابلية للاستعمار». (4)

وفي توضيح الفرق بين (الاستعمار) و بين (القابلية للاستعمار) يضيف "مالك بن نبي": « فكون المسلم غير حائز جميع الوسائل التي يريدتها لتنمية وتحقيق مواهبه: ذلك هو الاستعمار، وأما ألا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يده من وسائل استخداما مؤثرا وفي بذل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته حتى بالوسائل العارضة، وأما ألاّ يستخدم وقته في هذا السبيل فيستلم لحظة إفقاره وتحويله كما مهملا يكفل الفنية الاستعمارية، فتلك هي القابلية للاستعمار». (5)

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص (158/159).

(2) ينظر وصفي عاشور أبو زيد: "فكرة الفاعلية عند "مالك بن نبي". مجلة رؤى، العدد 20، 2003م، ص 14.

(3) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 85.

(4) المصدر نفسه، ص 87.

(5) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 87.

ولعل ما زاد في عمق وآراء وأفكار "مالك بن نبي" عن (الاستعمار) وعن (القابلية له)، كونه ولد ونشأ في فترة كان فيها موطنه (الجزائر) يعاني فيها من ويلات (الاستعمار الفرنسي) الذي دخل إليها سنة 1830م، أي أن (الاستعمار) كان حاضرا في جميع الأحداث التي كان شاهدا عليها، كما أنه كان على وعي تام بويلات (الاستعمار الفرنسي) ومكائده ومؤامراته الخسيسة، ورغم أن الجزائر افتكت حريتها سنة 1962م _ وكان "ابن نبي" وقتها لا يزال حيا _ فهو يرى بأن (القابلية للاستعمار) لا تزال تجرّ أذيالها في العالم الإسلامي عموما، وفي (الجزائر) خصوصا، ويرى بأن زمن (ما بعد الاستعمار) ليس إلا امتدادا (للاستعمار) نفسه بطرق وأشكال مختلفة، حيث يقول: « فتصفية الاستعمار من العقول تتطلب أشياء كثيرة يتضمنها مفهوم (الثقافة) ومفهوم (الحضارة)، فهي لا تتحقق إذن بمجرد انسحاب جيوش الاستعمار وبمجرد إعلان الاستقلال وتحرير الدستور - كما هو الأمر بالنسبة للتراب الوطني -». ⁽¹⁾

وإذا ما عرجنا إلى (الحضارة الغربية المسيحية)، نجد أن طور أفولها يبدأ من التطور الأقصى الذي شهدته مرحلة (الحضارة) من حيث المدنية، من خلال سيطرة العلم والتكنولوجيا على جميع مجالات الحياة وانكماش تأثيرات (الروح) و(العقل) وهيجان (الغريزة) واندفاعها، وفي هذا يقول "مالك بن نبي": « ولعله من الواضح أن مشكلة الحضارة في العصر الحاضر لا تخص الشعوب الإسلامية فقط، بل إنها تخص أيضا الشعوب المتقدمة نفسها التي تهدد فيها مدنيته بالفناء». ⁽²⁾

وإذا كان "مالك بن نبي" قد شهد وعاش مرحلة سقوط وانحطاط (الحضارة الإسلامية)، فهو يرى أنّ (الحضارة الغربية) _ وإن لم تسقط بعد _ على وشك السقوط والانهيار، وهذا الرأي استقاه من مجموعة من الظواهر والمظاهر التي تنبئ بسقوط (الحضارة الغربية) يوما ما لا محالة، وهو رأي يتوافق مع آراء الكثير من المفكرين الذين شغلتهم (الحضارة الغربية)،

⁽¹⁾ مالك بن نبي: بين الرشد والتهيه، ص 33.

⁽²⁾ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 64.

ومن هؤلاء "اشبنجلر" في كتابه (تدهور الحضارة الغربية)، حيث يقول: « فعقب بضعة قرون من يومنا هذا لن تكون هناك حضارة غربية، ولن يكون هناك من الألمان والإنجليز والفرنسيين أكثر مما هناك من الرومان في عصر جوستيان»⁽¹⁾، كما يقول: « ليست الحضارة الغربية وحدها ستموت وتنتهي بعد بضعة قرون، بل إن الظاهرة البدائية العظمى ستختفي كذلك في أحد الأيام، وسيختفي الإنسان وسيختفي ما وراء الإنسان».⁽²⁾

لقد كان هذا التنبؤ مبنيًا _ كما سبق وأشرنا _ على مجموعة من المظاهر منها:

● التزعة الاستعمارية:

يرى "مالك بن نبي" أن السبب وراء الفوضى التي خلقت في (أوروبا) يعود بالدرجة الأولى إلى نظامها الغربي الذي كان ذا صبغتين: علمي واستعماري؛ فهو علمي في الداخل يفكر بمنطق العلم والتقدم والتطور والرفاه والترف، واستعماري في الخارج يفكر بمنطق (الاستعمار) وعقليته، يقول "مالك بن نبي": « (...) اكتشفت فوضى كانت تتعاضم داخلها الانفصالات طبقا لعاملين كان لهما في هذا الشأن وزن كبير، هما: سرعة النمو العلمي والتوسع الاستعماري، ولقد تحالف هذان العاملان اللذان نطلق عليهما: التزعة العلمية والتزعة الاستعمارية ليصبحا قدرا مكتوبا على أوروبا كما صار الكلام قدرا على مجتمع ما بعد الموحدين».⁽³⁾

هذا، ويرى "مالك بن نبي" أن تاريخ عصرنا يبيّن انحراف (الحضارة الأوروبية الغربية) ف (أوروبا) التي كان من الواجب عليها أن تهدي سعي الإنسانية قد اتخذت من مشاعل (الحضارة) فتيلًا يحرق بدل أن يضيء، والنار التي أشعلت وجهها في المستعمرات جاءت على أرضها وأحرقت بها

⁽¹⁾ اشبنجلر أزوالد: تدهور الحضارة الغربية، ج1، ص 313.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 313.

⁽³⁾ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 116.

نفسها، ويرى "مالك بن نبي" في هذا الأمر أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) علمنا درسا قال فيه: «من حفر مغواة لأخيه أوشك أن يقع فيها».⁽¹⁾

لقد أتت الحرب العالمية الأولى والثانية، فحطمت نهائيا وحدة (أوروبا) المعنوية من الناحية الأخلاقية لبعض الضمائر الأوروبية، بل وأفقدتها قيمتها الواقعية.⁽²⁾

لقد صار التاريخ منذ قرن من الزمان مجرد ملحمة للفكر والمنطق الاستعماري؛ فالطفل الذي يولد في (أوروبا) يشعر في استقباله للحياة كأنما سبقها إعدادُه وتهيئته للاستعمار، فقد أمّلت النزعة المادية على الطفل الغربي اتجاهه في الحياة، بحيث لا يختار طريقه فيه إلا وقد وضع نصب عينيه أن يأخذ من المجتمع لا ما يعطيه، إنه يبحث عن حظّه لا عن رسالته، وتلك طريقة جيدة لإعداد مدير المستقبل في المستعمرات.⁽³⁾

إن المستعمر الغربي الذي تعود على تسخير المستعمر في العمل، أبعده عاداته عن مهمته الحقيقية وجردته من بريق حضارته؛ فمباشرة للظلم أنسته العدالة وأصولها من احترام للقانون وشعور بحق الآخرين بمختلف أنواعه، وبذلك يتجرد المستعمر من حضارته في هدوء ويتوحش⁽⁴⁾، وفي هذا يقول "مالك بن نبي": «إنّ ضروب الانفصال والفساد تتضاعف وتستشري في كل يوم في أوروبا، وبقدر ما يستخدمون العدالة وسيلة من وسائل الضغط والاضطهاد في المستعمرات فإن قيمتها تنحط في بلادهم نفسها، وكلما فرضوا ألوان القيود على ضمائر الشعوب المستعمرة فقدوا أهم معاني احترام الضمير، إنهم يتمزقون أكثر مما تتمزق المستعمرات»⁽⁵⁾. ذلك أن الغرب يسعى إلى حكم الشعوب

⁽¹⁾ ينظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 121.

⁽²⁾ ينظر مالك بن نبي: تأملات، ص 42.

⁽³⁾ ينظر سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، ص (105_200).

⁽⁴⁾ ينظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 124.

⁽⁵⁾ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 119.

دون أن يهدف إلى نشر (الحضارة)، حيث أفرزت حركة التصنيع في (أوروبا) رغبة الأوربيين في التوسع، وازدهرت الحركة الاستعمارية عبر العالم قصد الحصول على المواد الأولية وحماية مصالحها رغم إدعائه أنها تؤدي رسالة تحضيرها.

• التذني الأخلاقي في مقابل التطور العلمي (تراجع الضمير للعلم):

إن (حضارة) القرن العشرين في تصور "مالك بن نبي" قد أفقدت قداسة الوجود في النفوس والعقول الضمائر بسبب ثقافتها المادية التي يطلق عليها اليوم مصطلح (العلمية)، والتي أخضعت كل شيء إلى مقياس الكم، حيث صار فيها العصر عصر كم يخضع فيه الضمير للنزعة الكمية⁽¹⁾، لقد أبدعت الذات الغربية الآلات التي لم تستطع السيطرة عليها، حيث قادتها بعقلها الآلي، فصارت الحياة مجرد أرقام وأصبحت السعادة مقاسة بقدر ما لديها من وحدات حرارية وهرمونات.⁽²⁾

يقول "مالك بن نبي": « (...) انزلت أوروبا إلى حمأة المادية، فما تماكنت أن حثت خطوها نحوها، يحدوها ما أحرزه العلم من ازدهار هائل مبدع، وكانت الفجوة بين هذا العلم الذي قلب الأوضاع وبين الضمير التقليدي الناكص تزداد اتساعا وعمقا كلما جد جديد أو حدث اكتشاف في ميدان العلوم، وغرق ذلك الضمير الذي طأ رأسه منذ نهاية القرن الثامن عشر أمام إلهة العلم».⁽³⁾

إن النزعة المادية _الآلية_ لها أثر كبير على القيم الخلقية، إذ صار هذا العصر عصر النسبية الأخلاقية، فلم يعد أحد يدرك القيمة الأخلاقية المطلقة، وهذا أدى إلى قتل معاني الفضيلة المطلقة كلها، وإلى القضاء على مفهوم العدالة المطلقة وغيرها من القيم الأخلاقية، يقول "مالك بن نبي": « وهكذا نجد أن أوروبا النازعة إلى الكم وإلى النسبية قد قتلت عددا كبيرا من المفاهيم

⁽¹⁾ ينظر سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند "مالك بن نبي"، ص 199.

⁽²⁾ ينظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 117.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص 117.

الأخلاقية، حين جردتها من أرديتها النبيلة وأحالتها ضروبا من الصعلكة ولكمات منبوذة في اللغة، طريفة من الاستعمال ومن الضمير»⁽¹⁾.

فلا بد إذن من الإقرار أنّ العلم والعقل لا يمكنهما أن يقولوا شيئا عن الأخلاق والقيم، ولا عن الثابت والمشارك الإنساني، فلقد أصبح الرقم سلطانا يفرض نفسه في المجتمع الغربي الآلي، وصار الإحصاء لا معقب لحكمه، وليس للضمير أيّ دخل في الحياة الجديدة، حيث أصبحت حياة الإنسان مجرد وظيفة تكمل الأرقام، والآلات هي التي تحسب وتسخر الإنسان للانخراط في حركتها، أما الحاجات الإنسانية العامة _ خاصة حاجات الأرملة والشيخ والمرضى _ فهي ليست مريحة لأن الماكينات تعرف الحساب.⁽²⁾

● الانفصال بين الدين وبين العلم:

يرى "مالك بن نبي" أن الغرب ينظر إلى العلاقة بين العلم وبين الدين كعاملين منفصلين، وذلك بسبب الفهم الضيق لكل منهما في تاريخ (الحضارة الغربية)، وانطلاقا من الصراع التاريخي القائم بين العقل العلمي الأوروبي ممثلا في علماء الغرب وبين سلطة الكنيسة ومحاربتها للعلم والعلماء، مما جعلها -نقصد الكنيسة- تضع العلم في دائرة ضيقة، حيث حصرت في ميدان الجوانب المادية _ التقنية _ والفلسفة الوضعية بقيادة "أوجست كونت"، وجردته من القيم الروحية والأخلاقية المعنوية.

لقد انحصر فهم الغرب للعلم على كونه مجموعة من الطرائق والأدوات التي يستعملها الإنسان لتحقيق أهداف مادية، حتى ولو كانت النتيجة على حساب تدمير ذاته، يقول "مالك بن نبي": « لقد أصبحت الثقافة الأوروبية تسيل في المجرى العلماني الذي سيقودها إلى موضوعية "أوغست كونت"، وبالتالي إلى المادية الجدلية التي تمخض عنها "ماركس"، وبلغ الانفصال غايته في نهاية القرن

⁽¹⁾ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 117.

⁽²⁾ ينظر سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند "مالك بن نبي"، ص 200.

الماضي، عندما زعم العلم -بعد اكتشافاته المبهرة في ميدان البخار وفي ميدان الكهرباء- أنه يستطيع وحده الاضطلاع بسائر المسؤوليات في العالم، وعندما اعتقدت، بكل بساطة، البلاد المتحضرة بأنها تستطيع أن تؤمنه على مصيرها، فورّطت -بفضل تفوقها العسكري- الإنسانية كلها في هذا الاعتقاد الساذج». (1)

هذا، ويرى "مالك بن نبي" أن أية (حضارة) تتوسع وتنتشر فوق الأرض، تتغلب أولاً على جاذبيتها بما تبقى لها من مخزون روحي، حتى إذا ما وهنت فيها قوى (الروح) وجدناها تخلد إلى الأرض شيئاً فشيئاً. (2)

حيث يقول: « إن العلم يزعم أنه يستطيع أن يحتل الجامعات والمختبرات والمصانع، ويترك للأخلاق مجال الرواسب التي صنعها هو، والتي تكدست حول المدن الصناعية أو في تلك المدن من صفائح القصدير، يسودها الفقر المدقع، وهي تحيط بالمدن الكبيرة في العالم الثالث (...)، وكلما تحطمت وحدة الإنسان إلى جزءين: واحد يسمى الكائن المعنوي والآخر الكائن الموضوعي، فإن الأمر سيؤول إلى تجزئة الأمة، وبالتالي -وباطراد سريع- إلى تجزئة الإنسانية». (3)

استنتاجات

من خلال دراستنا للدورة الحضارية في فكر "مالك بن نبي" يمكننا تسجيل النقاط التالية:

(1) مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه، ص 73.

(2) ينظر مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 59.

(3) مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه، ص 74.

— مركزية نظرية (الدورة الحضارية) بوصفها الإطار الكلي المفسر لظاهرة البناء والسقوط الحضاريين، فقد شكلت هذه النظرية منظورا حضاريا متميزا حاول سبر أغوار الظاهرة الحضارية، ومن ثم اكتشاف السنن التي تتحكم في ظاهرة الحضارات قياما وسقوطا، ونرصد من خلال تتبع هذه النظرية الحضارية حضورا مركزيا لمجموعة من العوامل التي تشكل من منظورها العناصر الجوهرية في نشأة الحضارات، والتي تتمثل في الفكرة الدينية والنفس الإنسانية.

— توظيف القيم والأخلاق في بناء وقيام أية حضارة واعتبارهما عاملين جوهريين مساهمين في نمائها وسيورتها واستمراريتها، ذلك أنه وراء كل (حضارة) قيم أخلاقية وروحية من شأنها أن تساهم في شد خيوطها ودفعها صوب التقدم والتطور.

— تعتبر (النظرية الحضارية) عند "مالك بن نبي" استمرارا للمدرسة الخلدونية التي يسميها البعض بـ (المدرسة الحضارية)، فقد حاول "مالك بن نبي" تقديم تصوّر واضح عن أسباب قيام وسقوط الحضارات، وإعطاء تحليل معمق بالطريقة ذاتها التي قدم بها "ابن خلدون" أفكاره، ليضفي على دراسته الحضارية نوعا من العلمية والموضوعية التي شملت جوانب متعددة، مثل علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ.... إلخ.

— يتميز طرح "مالك بن نبي" لأفكاره الحضارية بالموضوعية واعتماد المفاهيم العلمية، على عكس بعض المفكرين الذين اقتصرت دراساتهم على استخدام المفاهيم التاريخية والسياسية والاقتصادية.

— تطبيق "مالك بن نبي" للتفسير الدوري للحضارات اقتصر على حضارتين فقط، هما (الحضارة المسيحية) و(الحضارة الإسلامية)، فكيف يمكن أن تعمّم نظرية الدورة وتصبح قانونا عاما يسري على الحضارات الإنسانية كلّها؟⁽¹⁾

— "مالك بن نبي" يردّ الأهواء والحنن التي أَلَمّت بالحضارة الإسلامية إلى ما حدث في (معركة صفين) من صراع من خلال حمية الجاهلية، وهذا القول فيه مبالغة، فلم تكن حمية الجاهلية قد

⁽¹⁾ ينظر علي القرشي: التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي. الزهراء للإعلام والنشر، ط1، دم، 1989، ص 297.

انبعثت بعد، بل أن القضية بين "علي بن أبي طالب" و"معاوية بن أبي سفيان" كانت خلافا على الرأي، وكلّ منهم يظن أنه يدافع عن الإسلام الصحيح، فـ "علي بن أبي طالب" كان يرى أنه يدافع عن حق ولي الأمر في ترتيب الأمور، و"معاوية بن أبي سفيان" كان يرى بأنه لا بد من القصاص من القتل والوقوف ضد الخارجين، وهذا أولى من استبدال خليفة.⁽¹⁾

— أما ما يراه بخصوص أنّ سقوط (الحضارة الإسلامية) كان بسقوط دولة الموحدين، فإن: « دولة الموحدين كان فيها دخن كثير، فإن مؤسسها "محمد بن تومرت" كان يدعي العصمة، ولكن لماذا ينسى أستاذنا "مالك بن نبي" الدولة العثمانية التي استأنفت القوة الإسلامية، بدولة جامعة كبرى كانت أعظم من الموحدين وأكبر». ⁽²⁾

— لقد اعترض على فكرة (الدورة الحضارية) عند "مالك بن نبي"، فليس هناك ميلاد وشباب وشيخوخة، لا في حياة الدول ولا في حياة الحضارات أيضا، بل هناك إبطاء أو توقف في المسيرة الحضارية، مردّه عوامل قد يكون من أبرزها: سوء أنظمة الحكم والممارسات السيئة للحكام؛ فقيام الحكم على أساس أو ممارسات مرفوضة، وحدوث تنافر بين الحكام وبين الرعية، من شأنه أن يؤدي إلى توقّف الحوار والتفاعل الحيوي، وبالتالي إلى تضائل المعطيات الحضارية أو جفافها شيئا فشيئا. ⁽³⁾

— دراسته لم تقتصر على الوصف والتحليل فقط، بل حاول إعطاء حلول للواقع المعيش مُبينا كيفية انتقال المجتمع من مرحلة الجمود إلى الفعالية والبناء الحضاري.

⁽¹⁾ ينظر سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند "مالك بن نبي"، ص 116.

⁽²⁾ المرجع نفسه، ص 119.

⁽³⁾ ينظر علي القرشي: التغيير الاجتماعي عند "مالك بن نبي"، ص (297/296).

الخاتمة

وفي نهاية المطاف، نجد أنفسنا ملزمين بحوصلة بعض ما توصل إليه البحث، وهو كالاتي:

- فكر "مالك بن نبي" يشكل مدرسة مستقلة من مدارس الفكر الإسلامي المعاصر، وشخصيته تُعدّ من بين أعظم الشخصيات الفكرية في العالم العربي والإسلامي، لِمَا امتازت به دراساته من الشمولية والدقة في قضايا تمسّ صميم مشكلات العالم الإسلامي، هذه الدراسات التي اختار لها عنوانا موحدًا هو (مشكلات الحضارة)، حيث اعتبرها أمّ المشكلات جميعها.
- فكره يحتوي على جوانب أصيلة تعكس الروح العربية والإسلامية التي نفتقدها في كثير من جوانب حياتنا، ومما يعكس ذلك، الاهتمام الواضح بتناول قضايا (الثقافة) و(الحضارة).
- لا يمكن دراسة شخصية "مالك بن نبي" دون التلفت إلى الواقع الذي عاش فيه، ولا يمكن فصله عن سائر الشخصيات الفكرية التي كان ارتباطه بها وثيقا، والتي ساهمت بشكل فعال في بناء فكره وتحديد توجهاته، وفي رسم الخطوط العريضة لشخصيته التي لطالما عُرفت بكونها شخصية متعددة الأبعاد، متنوعة النشاطات، متفتحة العقل.
- خلف مجموعة من المؤلفات والإصدارات (كتب، مقالات، محاضرات... إلخ) تعتبر بلا منازع إضافة قيّمة لرؤف مكثبات الفكر والأدب، وتمثل مشروعًا فكريًا وحضاريًا ضخما للإحاطة بـ (الثقافة) وتأصيلها وأسلمتها، والعمل على بسط مقوماتها لتمسّ جلّ الحضارات.
- حظي موضوع (الثقافة) باهتمام كبير في فكر "مالك بن نبي"، وهو حين يدرسها يتطرق لها في شكل مناهج وبرامج تربوية، وفقا لأصول المجتمع وتطورات العصر.
- يتخذ "مالك بن نبي" من الواقع اليومي الذي يعيشه، ومن تجاربه الذاتية، ومن اطلاعاته المتعددة المشارب على أمهات الكتب والمصادر، منطلقا لتحديد مفهوم (الثقافة) والبحث في أسسها والعناصر المكونة لها.
- استطاع إعطاء نظرة شاملة عن (الثقافة) وما تحتويه، فهو حيث يطرح مشكلة (الثقافة) ويُحدّد

مفهومها اللغوي والتاريخي والاجتماعي... إلخ، لا تهمه الدراسة النظرية لهذه الظاهرة بقدر ما يهّمه بناء (الثقافة) التي انهارت جوانبها نتيجة لظروف تاريخية معروفة.

— انتهى "مالك بن نبي" من خلال برنامجه التربوي في دراسة (الثقافة) إلى حصرها في أربعة أسس جعل قيام (الثقافة) وتركيبها لها رهينا بها، وهي: المبدأ الأخلاقي، التوجيه الجمالي، المنطلق العملي، الصناعة الفنية، وجعل لكل مبدأ مكانته ودوره المنوط به؛ فالأخلاق من أجل تمتين عرق الصلات الاجتماعية، والجمال من أجل إيجاد الذوق الجمالي، والمنطلق العملي لتحديد أشكال النشاط العام له، وهذه كلها تقوم بها الصناعة أو الفن التطبيقي.

— يُعدّ "ابن خلدون" أول من أعطى مفهوم (الحضارة) دلالة متكاملة، حيث جعلها مقابل البداوة، بما يعنيه ذلك من أنماط حياتية وسلوكية واقتصادية واجتماعية ونفسية.

— تُعدّ أطروحة "مالك بن نبي" منهجا فريدا ومتكاملا في سبيل النهوض الحضاري على مستوى العالم الإسلامي.

— توظيف القيم والأخلاق في بناء (الحضارة) عند "مالك بن نبي"، واعتبارها عاملا محوريا وجوهريا يسهم في بقائها ونمائها.

— مركزية نظرية (الدورة الحضارية) عند "مالك بن نبي" باعتبارها الإطار الكلي المفسر لظاهرتي البناء والسقوط الحضاريين؛ فقد شكلت منظورا حضاريا متميزا حاول سبر أغوار الظاهرة الحضارية واكتشاف السنن التي تتحكم في قيام الحضارات وسقوطها.

— "مالك بن نبي" يجعل لـ (الحضارة) عمرا، ويحددها في ثلاث مراحل، حيث تبدأ بمرحلة الروح (النهضة)، ثم مرحلة العقل (التوسع والانتشار)، لتنتهي بمرحلة الغريزة (السقوط).

— أهمية مرحلة (الروح) وإعطاؤها الأهمية الكبرى في بناء (الحضارة)، واعتبارها الأساس الذي يربط بين عناصرها ويساهم في نشأتها ويجعلها الضامن لاستمرارها، إذ هي التي تحقق التكامل فيما بينها، وبتراجع دورها تظهر النزاعات الفردية الغريزية وتتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية.

– أهمية الفكرة الدينية في بناء المشروع الحضاري عند "مالك بن نبي" باعتبارها النظرية المتكاملة التي تتحدد ضمنها قيم المجتمع ومثله وأهدافه العليا.

– تحديد عناصر (الحضارة) عند "مالك بن نبي" في ثلاث نقاط رئيسية وهي: (الإنسان)، (التراب) و(الوقت).

– إعطاء عنصر (الإنسان) الأهمية الكبرى، إذ بفعاليته تزيد فعالية كل من (التراب) و(الوقت) شريطة تدخل المركب الديني أو الفكرة الدينية.

في الأخير نأمل أن يكون قد حالفنا التوفيق فيما وددنا الوصول إليه من أهداف ونتائج خلال مسيرة هذا البحث المتواضع، ونرجو أن نكون قد أسهمنا ولو بشيء قليل في التعريف بشخصية "مالك بن نبي" والتعرف على الخطوط العريضة لنظريته الثقافية.

فإن أصبنا فذلك من فضل الله تعالى، وإن وقعنا في الزلل فذاك من تقصيرنا وسوء تقديرنا.

والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر

القرآن الكريم.	
أولاً: قائمة المصادر.	
1.	مالك: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث. دار الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دم، 1969م.
2.	مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه. دار الفكر، ط2، دمشق، 1998م.
3.	مالك بن نبي: تأملات. دار الفكر، دط، دمشق، 2002م.
4.	مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين. تر (عمر كامل مسقاوي)، عالم الفكر، ط1، دمشق، دس.
5.	مالك بن نبي: شروط النهضة. تر (عبد الصبور شاهين، عمر كامل مسقاوي)، دار الوعي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013م.
6.	مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. دار الفكر، دط، دمشق، 1985م.
7.	مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية. تر (عبد الصبور شاهين)، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط4، 1987م.
8.	مالك بن نبي : فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ. تر (عبد الصبور شاهين)، دار الفكر، ط3، دمشق، 2001م.
9.	مالك بن نبي : فكرة كنمويلث إسلامي. دار الفكر، دط، دمشق، 1990م.
10.	مالك بن نبي : في مهب المعركة. دار الفكر، ط3، دمشق، 1981م.

قائمة المصادر والمراجع

11.	مالك بن نبي: القضايا الكبرى. دار الفكر، ط1، دمشق، 1991م.
12.	مالك بن نبي : مجالس دمشق. دار الفكر، ط1، دمشق، 2006.
13.	مالك بن نبي : مذكرات شاهد القرن. تر (القنواني مروان)، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ط1، دمشق، 1993م.
14.	مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي الحديث. دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دم، 1969م.
15.	مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد. دار الفكر، ط3، دمشق، 1987م.
16.	مالك بن نبي : مشكلة الثقافة. تر (عبد الصبور شاهين)، دار الوعي للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013م.
17.	مالك بن نبي: ميلاد مجتمع. تر (عبد الصبور شاهين)، دار الفكر، دط، دمشق، 1985م.
18.	مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي. تر (هبد الصبور شاهين)، دار الفكر المعاصر، دط، بيروت، لبنان، 1981م.
ثانيا: قائمة المراجع العربية غير المترجمة.	
19.	أبو الأعلى المودودي : الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها. دار العربية للطباعة، ط2، بيروت، 1970م.
20.	أبو الأعلى المودودي : نحن والحضارة الغربية. دار السعودية للنشر والتوزيع، دط، دم، 1987م.
21.	أنور الجندي: الفكر والثقافة المعاصر في شمال إفريقيا. المكتبة العربية، دط، القاهرة، 1965م.

قائمة المصادر والمراجع

22.	أحمد صابر مولاي: مالك بن نبي _الفكرة والمنهج_. مؤسسة دراسات وأبحاث، قسم العلوم الإنسانية والفلسفة، دط، دم، دس.
23.	أمّنة تشكيو: مفهوم الحضارة عند "مالك بن نبي" و"أرنولد تويني". المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1989م. الطيب ابن إبراهيم: مواقف وأفكار مشتركة بين "مالك بن نبي" و"ابن خلدون". دار مدني للنشر والطباعة، دط، دم، 2008م.
24.	بشير ضيف الله : فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي. نشرات المجلس الأعلى، ط1، الجزائر، 2005م.
25.	حبيب مؤنس: الحضارة _دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها_. عالم الفكر، ط2، دم، 1998م.
26.	رابح عدالة : علماء قسنطينة. دار المجتهد للنشر والتوزيع، دط، دم، 2013م.
27.	رابح لونيسي: رجال لهم تاريخ ونساء لهن تاريخ. دار المعرفة، دط، الجزائر، 2010م.
28.	زريق قسطنطين: في معركة الحضارة _دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها في الواقع الحضاري_. دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1981م.
29.	زكي الميلاد: المسألة الثقافية _من أجل بناء نظرية في الثقافة_. دار الشاطبية للنشر والتوزيع، ط3، المحمدية (الجزائر)، 2012م.
30.	زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي. دار الشروق، ط9، دم، 1993م.
31.	سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1993م.
32.	سيد قطب : في ظلال القرآن. المجلد الأول، دار الشروق، دط، دم، 1982م.
33.	سيد قطب: معالم في الطريق. دار الشروق، ط6، بيروت، 1979م.

قائمة المصادر والمراجع

34.	شايف عكاشة: الصراع الحضاري في العالم الإسلامي (مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي). ديوان المطبوعات الجامعية، دط، الجزائر، 1993م.
35.	الطاهر سعود : التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي. دار الهدى، دط، بيروت، دس.
36.	الطيب بن إبراهيم: مواقف وأفكار مشتركة بين "مالك بن نبي" و"ابن خلدون". دار مدني للنشر والطباعة، دط، دم، 2008م.
37.	عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون. تح (محمد الاسكندراني)، ديوان المبتدئ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الكتاب العربي، دط، بيروت، 2008م.
38.	عبد الرحمن علي الحجي : أضواء على الحضارة والتراث. شركة شهاب للنشر والتوزيع، دط، الجزائر، دس.
39.	عبد اللطيف عبادة: فقه التغيير في فكر مالك بن نبي. مؤسسة عالم الأفكار للنشر والتوزيع، ط2، المحمدية (الجزائر)، 2007م.
40.	عبد اللطيف عبادة : نصوص مختارة من مؤلفات "مالك بن نبي". مؤسسة عالم الأفكار للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، المحمدية (الجزائر)، 2007م.
41.	عبد اللطيف عبادة : صفحات مشرقة في فكر مالك بن نبي. دار الشهاب، ط1، باتنة، 1984م.
42.	عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ. دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1975م.
43.	عمر بن عيسى: مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي وفي مستقبل المجتمع الإسلامي. دار

قائمة المصادر والمراجع

	الفكر، ط2، سورية، 2007م.
44.	فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث. دار الشروق، ط3، عمان، 1988.
45.	قاسم أحمد الشيخ بلحاج : النظرية الحضارية عند المفكر مالك بن نبي. دار الجاحظية، دم، دط، 1998م.
46.	محمد البنعياي : أسئلة الفكر والمنهج والفعالية في تراث "مالك بن نبي" _بمناسبة الذكرى المئوية لميلاده_. سلسلة كتب النبراس، جمعية النبراس الثقافية، دط، دم، 2005م.
47.	محمد العبدية: مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاح. دار القلم، ط1، دمشق، 2006م.
48.	محمد نصر عارف: (الحضارة، الثقافة، المدنية) دراسة لسيرة المصطلح. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، دم، 1994م.
49.	مولود عويمر: مالك بن نبي رجل الحضارة _مسيرته وعطاؤه الفكري_. دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، دط، المدينة الجديدة، تيزي وزو، 2007م.
50.	يوسف بوراس: الفكر السياسي عند مالك بن نبي. دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، دط، الجزائر، 2013م.
51.	يوسف حسين: نقد ابن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث. دار التنوير، ط1، الجزائر.

ثالثا: قائمة المراجع العربية المترجمة.	
52.	أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ. ج1. تر (فؤاد محمد شبل)، المشروع القومي للترجمة، دط، دم، 2011م.
53.	ألبرت شفيستر: فلسفة الحضارة. تر (عبد الرحمن بدوي)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، دط، دم، دس.
54.	أوزوالد اشبنجلر: تدهور الحضارة الغربية. تر (أحمد الشيباني)، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة، دط، بيروت، دس.
55.	دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية. تر (منير السعيداني)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2007م.
56.	رولان بريتون: جغرافيا الحضارات. تر (خليل أحمد خليل)، منشورات عويدات، ط1، بيروت، 1993م.
57.	صامويل هنتون: صدام الحضارات _ إعادة صنع النظام العالمي_. تر (طلعت الشايب)، منتدى مكتبة الإسكندرية ط2، دم، 1999م.
58.	لويس دوللو: الثقافة الفردية وثقافة الجمهور. تر (عادل العوا)، سلسلة زدني علما، دار عويدات للنشر، دط، بيروت، 1982م.
59.	مجموعة من الكتاب: نظرية الثقافة. تر (سيد الصاوي)، عالم المعرفة، دط، الكويت، 1997م.

قائمة المصادر والمراجع

60.	ول ديونارت: قصة الحضارة (نشأة الحضارات). تر (زكي نجيب محمود)، ج1، دط، بيروت، دس.
رابعاً: قائمة المراجع الأجنبية.	
61.	R. Linton : le Fondement culturel de la personnalité. paris, 1959.
خامساً: قائمة المعاجم العربية.	
62.	ابن منظور: لسان العرب. دار صادر، ط1، بيروت، 1995م.
63.	أحمد بن فارس بن زكريا الرازي: معجم مقاييس اللغة. المجلد 1، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2008م.
64.	الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين. مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 2004م.
65.	الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم. تح (نديم مرعشلي)، دار الكتاب العربي، دط، دم، 1972م.
66.	مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط. ج2، إشراف (حسن علي عطية وآخرون)، مطابع دار المعارف، ط2، مصر، 1973م.
67.	محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس. ج 23، تح (عبد الفتاح الحلو)، مطبعة حكومة الكويت، دط، دم، 1986م.

سادسا: قائمة القواميس الأجنبية.	
68.	Le Petit Larousse Illustré. Paris, Larousse, 2007.
سابعا: قائمة المجلات والدوريات والمقالات.	
69.	إبراهيم خورشيد: "مفهوم الثقافة". مجلة الفيصل السعودية، ع 20، السعودية، 1979م.
70.	إبراهيم محمد جواد: "نظرات في الثقافة والمثقف". مجلة البصائر، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، ع 47، دم، دس.
71.	أبو زيد وصفي عاشور: "فكرة الفاعلية عند "مالك بن نبي"، مجلة رؤى، ع 20، دم، 2003م.
72.	أنورالجندي: "فقيه الإسلام العلامة مالك بن نبي". مجلة الوعي الإسلامي (مجلة إسلامية ثقافية شهرية)، ع 108، الكويت، ديسمبر 1973م.
73.	زكي الميلاد: "مالك بن نبي ومشكلات الحضارة". مجلة الفيصل السعودية، ع 196، السعودية، أبريل 1993.
74.	عمار طالبي: مالك بن نبي". المجلة الثقافية، وزارة الثقافة والإعلام، ع 18، دم، جانفي 1979م.
75.	محمد البشير مغلي: "السنة الإلهية في تحليلية مالك بن نبي ومنهجية المفسرين". دراسات مالك بن نبي والمشروع الحضاري"، مجلة رؤى، ع 20، دم، 2003م.
76.	محمد سيد بركة: "مالك بن نبي". مجلة الوعي الإسلامي، ع 278، دم، 1987م.

قائمة المصادر والمراجع

77.	محمد العبدية: قياسات من فيلسوف العصر "مالك بن نبي" -خطوة لفهم نكبة الغفلة في الثقافة العربية-، صحيفة قراءات العرب، الاثنين 26/03/2007م.
78.	محمد مراد بركات: "مالك بن نبي فيلسوف الحضارة وشاهد القرن". مجلة رؤى (مالك بن نبي والمشروع الحضاري)، السنة الرابعة، ع 20، دم، 2003م.
79.	محمود صباح جاسم: "مفهوم الثقافة الإسلامية وتحدياتها". مجلة ديالي، كلية العلوم الإسلامية، ع 44، العراق، 2010م.
80.	مهدي العياشي أمنوح: منهج مالك بن نبي " في دراسة الغرب. نقلا عن نور الدين خنديوي، مالك بن نبي العائد، عالم الأفكار للطباعة والنشر، دط، الجزائر، 2008م.
81.	موسى لحرش: "مالك بن نبي (حياته ونتاجه الفكري)". المجلة الجامعية مالك بن نبي والفقہ الحضاري، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، دع، قسنطينة، جويلية 2006م.
82.	يوسف بلمهدي: "في ذكرى وفاة مالك بن نبي رحمه الله _دمعة على قبر مالك_". جريدة الحوار الجزائري، 07/02/2011م.
ثامنا: قائمة المذكرات والبحوث الجامعية.	
83.	جمال بروال: الدورة الحضارية بين "مالك بن نبي" و"أوزوالد اشبنجلر". رسالة ماجستير في الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2013/2012م.
84.	جويدة جاري: المشكلة الفلسفية والإيديولوجية في فكر مالك بن نبي. رسالة ماجستير، معهد الفلسفة، جامعة الجزائر، 1997/1996م.

تاسعا: قائمة المحاضرات.	
85.	عبد الله عيسى لحيلح: محاضرة بعنوان "مفهوم الثقافة الشعبية". مقياس الثقافة الشعبية، السنة الأولى ماجستير، تخصص نقد ودراسات ثقافية، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة جيجل، 2013/01/17م.
عاشرا: قائمة المواقع الإلكترونية.	
86.	إبراهيم نويري: "ترجمة محطات من حياة المفكر الجزائري العالمي الكبير "مالك بن نبي"، موقع تراجم أعلام الجزائر ، تم تصفح الموقع يوم: 2013/7/8م.
87.	مجموعة من الدارسين: "مفهوم الثقافة"، موقع Aou-Tmasamples الإلكتروني: www.Aou-Tmasamplesblogspot.com تم تصفح الموقع يوم: 214/7/12م.
88.	محمد سعيد مولاي: " محطات في حياة مالك بن نبي". موقع ابن نبي الإلكتروني، تم تصفح الموقع يوم: 2014/06/15م.
89.	محمد صلاح الدين المستاوي: "بمناسبة مرور أربعين سنة على وفاته- مالك بن نبي رجل الرسالة-"، موقع شخصيات ومؤلفات الإلكتروني، 2013/11/21م.
90.	مقال بعنوان: "ابنة شقيقة المفكر الجزائري "مالك بن نبي" تسرد سيرة حياته". بدون مؤلف، موقع المورد الإلكتروني: www.Mawrid.com، تمّ تصفح الموقع يوم: 2014/06/15.

يوسف بوحجيلة: "مالك بن نبي والصحوّة الإسلاميّة المعاصرة في الجزائر"، منتديات الجلفة

الإلكتروني: www.Djelfa.com

تم تصفح الموقع بتاريخ 2013/12/17م.

أولاً: فهرس الآيات القرآنية (حسب ترتيبها في المصحف)

الرقم التسلسلي	السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
01	البقرة	وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ.	30	188
02		كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ.	180	131
03		وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ.	191	73
04	آل عمران	ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ.	112	73
05		وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوَاهَا بَيْنَ النَّاسِ.	140	170
06	النساء	وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ.	08	131
07		فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا.	91	73
08		وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ.	128	131
09	الأنفال	فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكَّرُونَ.	57	73
10		وَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ فُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.	63	103

فهرس الموضوعات

172	11	إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ.	الرعد	11
189	09	إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ.	الحجر	12
147	28	أَتَيْنَكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُم.	العنكبوت	13
112	19	وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ.	لقمان	14
73	61	مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا.	الأحزاب	15
198	38	إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ.	محمد	16
188	56	وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.	الذاريات	17
131	28	كُلُّ شَرِبٍ مُحْتَضِرٌ.	القمر	18
73	02	إِنْ يَشْقُقُوا كُفْرًا لَكُمْ أَعْدَاءٌ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسِّنْتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ.	المتحنة	19
147	(27-26)	رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجِرًا كَفَّارًا.	نوح	20
73	(10-7)	وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا.	الشمس	21

ثانيا: فهرس الأحاديث النبوية الشريفة (حسب تسلسلها في البحث)

الصفحة	الحديث النبوي	الرقم التسلسلي
108	المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا.	01
116	إنما بُعِثْتُ لأريكم مكارم الأخلاق.	02
132	لا يبيعن حاضر لباد.	03

ثالثا: فهرس الأبيات الشعرية (حسب تسلسلها في البحث)

الصفحة	البيت الشعري	اسم الشاعر	الرقم التسلسلي
74	نظر المثقّف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منأدها	عدّي بن الرقاع	01
74	فإمّا ثقفوني فاقتلوني وإن أثقف فسوف ترون بالي	عمرو ذي الكلب	02
130	ومن تكن الحضارة أعجبتة فأيّ رجال بادية ترانا	القطامي	03

رابعا: فهرس أعلام العرب (حسب الترتيب الأببائي)

الصفحة	الاسم	الرقم التسلسلي
78	إبراهيم خورشيد	01
197	ابن رشد	02
197	ابن سينا	03
3	ابن العابد	04
130 - 71	ابن منظور	05
148 - 147 - 146	أبو الأعلى المودودي	06
72	أبو حنيفة	07
197	أبو الوفاء	08
36 - 35	أحمد رضا	09
49	أحمد شعبو	10

فهرس الموضوعات

61	أنور الجندي	11	
24	إيمان بنت مالك بن نبي	12	
49	بسام بركة	13	ب
186	بلال بن رباح	14	
23	جمال عبد الناصر	15	ج
39 - 31	حمودة بن الساعي	16	ح
27 - 22 - 21	خديجة	17	خ
72	الخليل بن أحمد الفراهيدي	18	
71	الراغب الأصفهاني	19	ر
24	رحمة بنت مالك بن نبي	20	
53	رشيد بن عيسى	21	
39	رمضان حشاني	22	
72	الزبيدي	23	
78	زكي نجيب محمود	24	ز
39	الزّناتي	25	
18	زهيرة بنت عيسى	26	
37	سامي إسماعيل	27	س
18	سكينة	28	
144 - 143 - 142 - 74 148 - 146 - 145	سيد قطب	29	
60	صلاح الدين المستاوي	30	ص

فهرس الموضوعات

54	الطّيب شريف	31	ط
38	الطّيب العقبي	32	
60	عبد الله دراز	33	ع
37 - 32	عبد الحميد بن باديس	34	
132 -122 -103 -84 -36 141 -140 -135 -134 -133 199 -197 -193 -171 -148 212 -210 -201	عبد الرحمن بن خلدون	35	
36	عبد الرحمن الكواكبي	36	
51 -46 -45 -37	عبد الصبور شاهين	37	
63	عبد العزيز الخالدي	38	
44	عبد القادر حميتو	39	
31	عبد القادر المجاوي	40	
30	عبد المجيد	41	
194	عبد المؤمن بن علي	42	
195	عثمان بن عفان	43	
74	عدي بن الرّقاع	44	
196	عقبة بن نافع	45	
211 -196 -195 -186	علي بن أبي طالب	46	
43	عمّار طالبي	47	
196	عمر بن عبد العزيز	48	

فهرس الموضوعات

44	عمر بن عيسى	49	
46 - 44	عمر كامل مسقاوي	50	
74	عمرو ذي الكلب	51	
190	عيسى عليه السلام	52	
32	الغزالي	53	غ
197	الفارابي	54	ف
74	فارس بن زكريا	55	
16	فاطمة	56	
39	فرحات عباس	57	
60	فوزي الحسن	58	
130	القطامي	59	
197 - 196	مالك بن أنس	60	م
197	المأمون	61	
52	مروان القنواقي	62	
36	المسعودي	63	
61	مصطفى السباعي	64	
39 - 38	محمد الأمين العمودي	65	
43	محمد العبد	66	
35	محمد عبده	67	
62 - 46	محمد المبارك	68	
62	محمد المليبي	69	

فهرس الموضوعات

211-194	محمد مهدي بن تومرت	70	
17	محمود بن الخضر	71	
64 - 35	محمود محمد شاكر	72	
212 -197 -195	معاوية بن أبي سفيان	73	
36	المنفلوطي	74	
31	مولود بن موهوب	75	
24	مولود قاسم نايت بلقاسم	76	
24	نعمت بنت مالك بن نبي	77	
147	نوح عليه السلام	78	
44	نور الدين بوكروح	79	
24	هوارى بومدين	80	ه
60	يوسف بلمهدي	81	ي

خامسا: فهرس أعلام الغرب (حسب ترتيب الحروف في اللغة الفرنسية)

Nombre	Nom	الاسم	الصفحة	
A	01	A. Dumas	ألكسندر دوماس	40
	02	Albert Schitzer	ألبرت شفيتشر	138 -137
	03	Aristote	أرسطو	118
	04	Arnold Toynbée	أرنولد توينبي	141-140
	05	August Count	أوغست كونت	209

فهرس الموضوعات

B	06	Balzac	بلزاك	117
	07	Boubreiter	بوبريتي	34
	08	Branly	برانلي	197-107
C	09	C.P.Philipon	سيلستين بول فيليبون	21
D	10	Daved Garick	دافيد غريك	155-154
	11	Descartes	ديكارت	194
	12	Dostoievski	دستويفسكي	117
E	13	Edison	أديسون	155-154
	14	Edward Burnett Taylor	إدوارد تايلور	96 -75
	15	Eugene Young	أوجين يونغ	40
G	16	Galven	غالفاني	197 -155 -154
H	17	Halegue	هاليغي	42
	18	Herman Key Serling	هرمان دي كسرلينج	194 -191
	19	Hertz	هرتز	107
J	20	John	جون	18
	21	John Dewey	جون ديوي	76 -41
	22	Jules Verne	جيل فيرن	40
K	23	Kant	كانط	42
	24	Konstantinov	كونستانتينوف	88
L	25	Lamartin	لامارتين	40
	26	Mao Tsé Toung	ماوتسي تونغ	89

فهرس الموضوعات

M	27	Marin behrtz	مارين بهرتز	197
	28	Marconi	ماركوني	197
	29	Martin	مارتان	34
	30	Marx	ماركس	209 -163
	31	Mathew Arnold	ماثيو أرنولد	76
	32	Michel Angelo	ميخائيل أنجلو	116
	33	Michel Zévaco	ميشال زيفاكو	40
	34	Moro	مورو	35
N	35	Nietzsche	نيتشه	168 -42 -11
O	36	Oswald Spengler	أوزوالد اشبنجلر	139 -138
				205 -140
P	37	Phidias	فيدياس	116
	38	Pierre Borji	بيير بورجي	40
	39	Pierre Loti	بيير لوتي	40
	40	Popov	بوبوف	197
Q	41	Quincy wright	كوينسي رايت	75
R	42	Racine	راسين	117
	43	Ralf Linton	رالف لنتون	88 -87 -76
S	44	Samuel Hugtington	سامويل هنغتون	139 -138
	45	Sophocle	سوفوكل	117

سادسا: فهرس الموضوعات (حسب ترتيبها في البحث)

الصفحة	المحتويات
/	إهداء
/	شكر وعرهان
/	دليل البحث
أ-م	مقدمة
66-15	الفصل الأول: محطات في حياة "مالك بن نبي"
15	تمهيد.....
25-16	المبحث الأول: "مالك بن نبي" _ مولده _ نشأته _ دراسته.....
16	المطلب الأول: مولده.....
25-16	المطلب الثاني: نشأته ودراسته.....
42-26	المبحث الثاني: "مالك بن نبي" ثقافته و مؤثرات بنائه الفكري.....
26	تمهيد.....
30-26	المطلب الأول: المؤثرات الاجتماعية.....
28-26	أولا: البيئة العائلية.....
30-28	ثانيا: البيئة الاجتماعية.....
41-30	المطلب الثاني: المؤثرات الثقافية.....
35-30	أولا: تأثير الأساتذة والمعلمين.....
33-30	أ/ الأساتذة والمعلمون العرب.....
35-33	ب/ الأساتذة والمعلمون الفرنسيون.....
41-35	ثانيا: تأثير القراءات العربية والغربية.....
39-35	أ/ المؤثرات من القراءات العربية.....
41/40	ب/ المؤثرات من القراءات الغربية.....

فهرس الموضوعات

42/41	المطلب الثالث: المؤثرات الفكرية.....
42	تعقيب.....
57-43	المبحث الثالث: مؤلفات "مالك بن نبي".....
45-43	تمهيد.....
47-45	المطلب الأول: المؤلفات الصادرة بفرنسا.....
52-47	المطلب الثاني: المؤلفات الصادرة بمصر.....
55-52	المطلب الثالث: المؤلفات الصادرة بالجزائر.....
55	المطلب الرابع: الآثار غير المطبوعة _المخطوطات_ التسجيلات.....
57-56	تعقيب.....
64-58	المبحث الرابع: "مالك بن نبي" وفاته وأقوال العلماء فيه.....
59/58	المطلب الأول: وفاته.....
58	أولاً: ظروف الوفاة.....
59/58	ثانياً: الدفن.....
64-59	المطلب الثاني: آراء المفكرين فيه.....
65	تعقيب.....
66	استنتاجات.....
126-68	الفصل الثاني: "مالك بن نبي" وفكرة الثقافة
68	تمهيد.....
80-69	المبحث الأول: تعريف الثقافة.....
69	تمهيد.....
74-69	المطلب الأول: المدلول اللغوي للثقافة.....
70-69	أولاً: في الفكر الغربي.....
74-70	ثانياً: في الفكر العربي.....
80-75	المطلب الثاني: المدلول الاصطلاحي للثقافة.....

فهرس الموضوعات

77-75	أولاً: في الفكر الغربي.....
80-78	ثانياً: في الفكر العربي.....
102-80	المبحث الثاني: تعريف الثقافة عند "مالك بن نبي".....
83-80	المطلب الأول: منهج "مالك بن نبي" في طرح مشكلة الثقافة.....
102-83	المطلب الثاني: مفهوم الثقافة عند "مالك بن نبي".....
124-103	المبحث الثالث: الأسس الثقافية عند "مالك بن نبي".....
108-103	المطلب الأول: التوجيه الأخلاقي.....
118-109	المطلب الثاني: التوجيه الجمالي.....
122-118	المطلب الثالث: المنطق العملي.....
124-122	المطلب الرابع: الصناعة الفنية (الفن التطبيقي).....
125	تعقيب.....
126	استنتاجات.....
212-128	الفصل الثالث: مقومات الفكر الحضاري عند "مالك بن نبي"
128	تمهيد.....
149-129	المبحث الأول: تعريف الحضارة.....
129	تمهيد.....
132-129	المطلب الأول: المدلول اللغوي للحضارة.....
130/129	أولاً: في الفكر الغربي.....
132-130	ثانياً: في الفكر العربي.....
149-132	المطلب الثاني: المدلول الاصطلاحي للحضارة.....
136-132	أولاً: مفهوم الحضارة عند "ابن خلدون".....
142-136	ثانياً: مفهوم الحضارة في العصر الحديث.....
149-142	ثالثاً: مفهوم الحضارة في الفكر الإسلامي المعاصر.....
158-150	المبحث الثاني: تعريف الحضارة عند "مالك بن نبي".....
150	تمهيد.....

فهرس الموضوعات

153-151	المطلب الأول: الحضارة من الناحية الوظيفية.....
158-154	المطلب الثاني: الحضارة من ناحية التحليل و التركيب.....
159	تعقيب.....
167-160	المبحث الثالث: عناصر الحضارة عند "مالك بن نبي".....
160	تمهيد.....
164-160	المطلب الأول: الإنسان.....
161	أولاً: توجيه الثقافة.....
162	ثانياً: توجيه العمل.....
164/163	ثالثاً: توجيه رأس المال.....
165/164	المطلب الثاني: التراب.....
167-165	المطلب الثالث: الوقت.....
167	تعقيب.....
209-168	المبحث الرابع: الدورة الحضارية عند "مالك بن نبي".....
168	تمهيد.....
174-168	المطلب الأول: تعريف الدورة الحضارية عند "مالك بن نبي".....
209-175	المطلب الثاني: مراحل الحضارة عند "مالك بن نبي" وتجلياتها.....
211-210	تعقيب.....
212	استنتاجات.....
216-214	الخاتمة.....
228-218	قائمة المصادر والمراجع.....
243-230	الفهارس.....

فهرس الموضوعات